

obeikandi.com

٢ حارة الغول

الكتاب: ٢ حارة الغول

الكاتب: إيهاب عصمت

تصميم الغلاف: كريم آدم

تدقيق لغوي: د. سيد الشريف

رقم الإيداع: 2017 / 13664

الترقيم الدولي: 9-116-778-977-978

الطبعة الأولى: 2017

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت: 011 27772007- 02 35860372

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر



إيهاب عصمت

٢ حارة الغول

(الموت على الطريقة الملكية)

للنشر
والتوزيع

obeikandi.com

هذا العمل من وحي خيال المؤلف، وأى تشابه في الأحداث والأسماء،
فهو على مسئولية من فهم العمل من وجهة نظره الشخصية، دون وقوع
مسئولية على المؤلف أو الناشر .

obeikandi.com

إهداء

إلى أستاذى العظيم، والأب الرائع الدكتور: عبد العزيز شاهين
(الرئيس السابق لشركة فايزر للأدوية)
رحم الله يدًا، امتدت لىّ بخير. ستظل دومًا، فكرة عظيمة
وذكرى طيبة، لكل أبنائك وتلاميذك، الأفكار العظيمة لا تموت .
رحمك الله رحمةً واسعة.

إيهاب

obeikandi.com

الإسكندرية، عام ١٩٩٩م، ليلة رأس السنة :

جلس ساكنًا في الميكروباص المتجه لمنطقة المنشية العريقة ليلة الخميس، اقتربت الساعة من الثانية عشرة مساءً، والكُل في حالة استرخاء، وكأن الناس قد اجتمعوا على إشباع مُتعمم الخاصة في تلك الليلة التي لولاها لانفجروا في الشوارع. نظر إلى الكورنيش القريب حيث تظهر قلعة قايتباي وقد سُلطت عليها الأضواء الملونة احتفالاً بالألفية الجديدة، وانعكست ألوانها الجميلة فوق صفحة المياه الناعمة، مر بجوارها عدد كبير من مراكب الصيد التي أضاءت أنوارها القوية الملونة لتزيد الكورنيش بهجةً وراحة، عربة الأيس كريم الشعبية، المُزينة بالأعلام الخضراء، والصفراء، والحمراء، المكتوب عليها (حمادة العفريت)، شاب وشابة يتناولان الترمس، ويتجادبان أطراف الحديث، وتحتهن مباشرة، كُتبت عبارة باللون الأخضر العريض. «الاتحاد سيد البلد». يعرف كل من بالإسكندرية، من يكتب تلك العبارة (جمال الدولي) الذي صنفته، موسوعة جينيس بالمشجع الأكثر جنونًا في العالم. شاهد أب مكافح يجلس مع زوجته الهزيلة وثلاثة أطفال يأكلون الساندويتشات، تذكر أمه المسكينة التي اعتدى عليها بالضرب مُنذ ساعة، ليحصل منها على إسورتها الذهبية؛ لبييعها من أجل المخدرات!! نفذ من رأسه ذلك اللوم المفاجئ الذي يُعد خطرًا بالنسبة لشخص مثله، مات فيه كُل شيء. نظر لسائق الميكروباص، الذي جلس يستمع إلى الست، وهو في حالة استرخاء تام. الكل له مُتعتة ومزاجه الخاص، إذن لماذا

اللوم والعتاب، هو الآخر يبحث عن متعته التي لا تنتهى. اقتربت السيارة من النصب التذكارى للجندى المجهول. أمر السائق بصوته المُتَحَشِّج الخارج من حنجرة أهلكتها الكيوف:

- على جنب هنا لو سمحت .

سار عبر الشارع الطويل، بينما الباعة يجمعون بضاعتهم استعدادًا للرحيل . أشعل سيجارته وسار في الطريق الطويل المؤدى لشارع النصر، ثم انعطف يسارًا حتى وصل إلى (حارة البطارية)، حيث المُخدرات، هي سيدة الموقف. رمى سيجارته ودلف إلى الشارع الضيق، صعدت إلى أنفه رائحة دُخان (الجوزة) المُختلط بالحشيش، اقترب من بيت يكاد يظهر من تحت الأرض، ببوابته الخشبية القذرة، ونوافذه الحديدية التي دُفن نصفها أسفل الأرض، وتم دهان زجاجها باللون الأزرق، وكأنه مخبأ من زمن الحرب العالمية الثانية. إنه بيت (زوبة الجمل) ، نظريمينًا ويسارًا، خوفًا من أعين المُخبرين، طرق الباب عدة طرقات خفيفة، لتظهر سيدة سميئة سمراء اللون ضيقة العينين، قبيحة المنظر. نظرت له من نافذة صغيرة فتحتها في الباب، تفحصته قليلاً بعينها وكأنه يمر بكشف هيئة، طمأنتها نظرة الضعف في عينيه، ففتحت له الباب على الفور. دخل إلى المنزل وهو يعرف طريقه، مركز شباب الإدمان. مكان لزج قذر، تختلط فيه رائحة التبغ بالمخدرات. الحوائط مطلية بالجير، وفوقها لون سماوى باهت مال إلى الرمادى، بفعل ترسب كميات الدخان اللانهاية، فوق الجدران. على الأرض مجموعة من صفائح العسل الصدئ، تم وضعها كمناضد صُفت عليها أطباق المُخدرات، ومجموعة أخرى من الكنب المُتآك، والمُغطى بكلمة رخيصة باهتة، من التي تباع للبحارة الفقراء.

سار بأقدامٍ مُرتعشة، وهو يتفحص المكان، الغرفة التي أمامه قد نُصبت فيها (الجَوْزُ) ، وجلس فيها عشرة رجال يدخنون الحشيش، اتجه مباشرةً للغرفة

التي تحت السلم، دخل إليها وجلس مُستلقياً على أريكة خشبية ساقطة، بلا أرجل. استرخى تماماً، وكشف ذراعه المعروفة، التي ظهر بها الكثير من البقع الحمراء والزرقاء، دليلاً على قطعه شوطاً كبيراً في رحلة الإدمان، كان المكان يُشبه الحظيرة القديمة، فقد كانت أقفاص الطيور الفارغة تنتشر في كل مكان، استغلها المدمنون في الجلوس عليها، أو النوم فوقها. كان (حسين) ينظر إلى سقف الحظيرة المُغطاة بسعف نخيل، ومُدعم بعرقين كبيرين من خشب الشجر القوي، ثم نقل بصره إلى الجثث الملقاه بجواره بعد الحقن، شباب وبنات في ريعان الشباب، تبدو على ملابسهم علامات الثراء.

ابتسم في وهنٍ مُتساءلاً، ما الذي يجعل هؤلاء الشباب (المستريح). يلجأ إلى هذا النوع القذر من (المخدرات). دلفت (زوبة) وببدها كفة صغيرة بها بودرة بيضاء، نظرت له في ثبات فنفحها النقود التي بحوزته، تأملتها قليلاً في امتعاض ودستها في صديريتها، ثم وضعت الكفة تحت لهاب سبرتاية خفيف، حتى بدأ المزيج الأبيض ينصهر، لتلتقط بخبرتها الحُقنة سريعاً، وتسحب المزيج بداخلها، ثم ربطت على يد (حسين) بأنبوب أخضر مطاطي بدا في شدة القنارة، وضربت ببدها السمينة على يديه، حتى ظهر أحد عروقه الهاربة، فغرست الإبرة الملوثة فيه، ثم انصرفت إلى زبون آخر. تكوم حسين بعدها فوق كومة القش مُنتشياً، وهو ينظر إلى السقف، ويتابع فرد الحمام الرشيق الذي يسير فوق عرق الخشب المُعلق في سقف الغرفة، التي كانت يوماً إسطبلاً للخيل. شعر أن جسده يتقلص ويصغر، حتى صار في حجم عقلة الإصبع، تسلق العرق الخشبي وصعد فوق جناح ذكر الحمام الزاجل الذي طار به. كان الهواء مُنعشاً وهو يتقلب به فوق صفحات الميناء، رأى البحارة فوق سفنهم العملاقة، يحتفلون ببداية العام الجديد، وهم يرقصون، الرقصات الفلكلورية لبلادهم، تأمل صيحاتهم الثملة، ورقصاتهم الرشيقة، وهم يكسرون الأطباق، ويقذفون بعضهم بالفواكه والمشروبات، على أنغام، التانجو الأرجينتينية، والزوربا

اليونانية، والسامبا البرازيلية، والفاندانغو الإسبانية. يطير ويحط على مراكب الشحن الكبيرة الرابضة في الميناء. طار مرة أخرى إلى الجامعة حيث حصل على شهادة تخرجه، من كلية التجارة، بعد سبعة أعوام متواصلة، من المعاونة والجلوس على مدرجات سلم الكلية، بجيتاره العتيق، ظنًا منه، أنه سوف يُصبح (مُصطفى قمر) جديد. أفاق على شهادة مقبول بالكاد، وعلى أنه لن يُصبح مُصطفى قمر، بعدما طرده (الأستاذ حلمي بكر) من اختبارات الغناء وقال له ممتعضًا :

- الغنى مش ناقص بلاوى يابنى!

طاربه الطائر مرةً أخرى إلى منزلهم القاطن بجارة الغول بمحرم بك، حيث منزل من دورين مكتوب عليه (عاصم الغول تاجر). كانت أمه تجلس على سجادة الصلاة تبكى، بعدما دفعها في صدرها، وأخذ قطعة مجوهرات وكل ما لديها من نقود؛ ليُنْفِقها على المُخدرات. كانت رغم كل ذلك تدعوه بالهداية في بداية هذا القرن الجديد .

- ربنا يهديك، يا حُسين يا بنى

طارمرة أخرى حيث وكالة كبيرة لبيع الأقمشة، مكتوب عليها (منى فاتورة عاصم الغول) وأولاده، كان الحاج عاصم يجلس في سعادة على مكتب أنيق وحوله مئات الأتواب القماشية الملونة من كل الأصناف، بينما السيدات والفتيات لا تنقطع أسئلتهن له ولعماله:

- عندك صوف إنجليزى يا حاج، عندك حرير هندى، عندك موهير، كان الحاج وصبياناه يُجيبون على الأسئلة ويُلَبون طلبات السيدات بمهارة مُنقطعة النظر، سمع إحداهن تقول :

- وكالة الغول، أحسن وكالة قُماش في إسكندرية كلها .

طار إلى حانة (سبيت فاير) حيث جلس والده عاصم، وهو في عنفوانه مع

صديقته (أماليا) الحسناء اليونانية، وطار مرة أخرى إلى المنزل، حيث مرض والده بشدة، وانقطع عن العمل، وزادت مصروفات العلاج وضاعت الوكالة!! ووقف بها صبيه، وابن شقيقه (محروس)، تابع والده وهو يخرج من المنزل في المساء مُتخفياً، ثم يعود منهكاً في اليوم التالي، ولا أحد تقريباً يعرف إلى أين يذهب ولا أين يعمل، قالت له والدته يوماً عندما سألتها أنه يعمل عاملاً في أحد المُستشفيات، وفي أوقات فراغه يبيع الأقمشة والملابس الرخيصة بالتقسيط للموظفات والعاملات.

حط فرد الحمام فوق كتف شاب قوى يبتسم وهو يحرس موقعاً عسكرياً في الليل، تمنى حسين أن يهبط من فوق الطائرة ليقبل رأسه، ثم طار مرة أخرى ليشاهد زحاماً شديداً، وعربة تحمل صندوقاً ملفوفاً بعلم مصر. بكى حسين بشدة وهو يشاهد الشاب الشهيد وهو يُزف إلى مثواه الأخير. وأخيراً زار طائر الحمام، أجمل مكان في الدنيا. شُرفة (منى) حبيبة عمره وسبب بلواه وألامه. كانت تقف في الشرفة تسقى ورودها وشجيرات الصغيرة بفستان أحمر رائع، بينما يقف هو من بين خشب الشباك يراقبها وكأن الحياة توقفت، لكنه عرف بعد ذلك لماذا كانت تقف ولمن كانت تقف في ذلك الموعد المحدد من كل شهر، تنتظر شقيقه (فضيل) أو الشهيد فضيل وهو عائد من الوحدة العسكرية!. ظل (حسين) مُحلقاً وروحه تطير بعيداً مع ذكر الحمام الزاجل. لقد عشق تلك الرحلة التي رأى فيها نفسه، لكن شيئاً ما كان يرفض عودته من فوق جناح الطائر.

نفس الليلة- مقهى بيومى بحى محرم بك
ليلة رأس السنة احتفالية(الميلينيوم)

جلس رجل ستيخى قوى البنية على مقهى (بيومى) بجارة الغول، مُرتديًا بنطالاً رمادياً أنيقاً مكوى بعناية، وبلوفر رمادى سبعة تحته قميص سماوى جميل، وحذاء لامع، يبدو الرجل نظيفاً دائماً، وهو يضع كوفية رمادية مُطعمة بالأزرق حول رقبته، لحيته البيضاء الخفيفة وعلامة الصلاة ووجهه الوضاء، يعطيان أمارات بالتقوى والهدوء. كان يتابع تلك الاحتفالية الغربية، بحلول الألفية الجديدة، والتي أطلق جهاينة الإعلام عليها، اسم - روش وجديد، وهو "احتفالية الميلينيوم".

حاول الجميع معرفة، مالذى تعنيه، كلمة (ميلينيوم) والتي تنطقها المُديعة الدلوعة بطريقة هيسترية، تدل على أنها جلست تحفظها عشرات المرات، قبل أن تُلقى بها في وجه أعزائها كُل أفراد الأسرة. جاءتهم النجدة، من الأستاذ (فؤاد فواز) الكاتب الصحفى السكندرى المثقف، والملقب بفرفور، اسماً حركياً كان الصحفيون يتخذونه أيام الاستبداد، حتى يُفلتوا من السجن بتهم عديدة، أقلها خطورة العيب في ذات الحاكم المُقدسة من وجهة نظرأنفسهم بالطبع. وما إن جلس بجوار صديقه (عاصم)، وتبادلا بضعة كلمات، حتى انهال على رؤوسهم وابل من الأسئلة من (بيومى) صاحب المقهى الذى يرغب فى الانضمام بشدة لطائفة المُتقفين، ولكنه يفضل دائماً بسبب قدرته المحدودة على الاستيعاب،

ومحاولة مُجاراة عاصم وصديقه الأستاذ فؤاد، وهي مُحاولة أشبه بمُحاولة جِمَار أعْرَجُ اللِّحَاق بِفَرَسٍ مُنْطَلِقٍ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ.

نظر إلى التليفزيون، وقد تلون الهرم الأكبر بالكثير من ألوان الليزر، ووقف المخرج الأجنبي (مايكل جار) يستعرض مهارته في إخراج الاستعراض، والذي لم يُلاقَ استحساناً بالقدر المُتَوَقَّع، تقول الصحف: إنه قد تلقى مبالغ طائلة من أجل تلك الاحتفالية العقيمة! رشف الأستاذ (فؤاد فواز) رشفة من كوب الحلبة الذي أمامه، وهو يتابع الاحتفالية العجيبة، وعلامات السُخْرِيَّة، واضحة على وجهه، ثم قال لهم:

- هي تعنى الاحتفالية بألفية جديدة، أى كل ألف عام، فهمت يا بيومى، هز بيومى رأسه ببلاهة!!، وبالطبع بدا أنه لم يفهم شيئاً، لكن كبريائه منعه من قول ذلك. فبادره أحدهم

- يقولوا: إنها نهاية العالم !! الكمبيوترات هاتقف، والطيارات فى السماء هاتقع، وهابقى يوم القيامة! حوقل الجميع فزعاً وضربوا كفاً بكف، لمجرد تخيل، أن ذلك سيحدث، فقال عاصم:

- والله لو حدث ذلك، فلا عاصم لنا من أمر الله، وربنا يحسن خواتيمنا،

غمغم الجميع

- اللهم أمين.

رد الأستاذ فارس محى، مدرس أول الكيمياء بالثانوى، وهو يرتدى ملابس أنيقة بدت أصغر من سنه الذى شارف على الستين، وهو يضع كوفية حمراء أنيقة. ويتحسس شعره المصبوغ بعناية. كان مُدرِّساً شاباً جميل الطلعة فى الستينيات، والده يعمل مُدرِّساً للغة العربية والقرآن فى مدرسة (نبوية موسى)، أرسلته الحكومة المصرية فى الستينيات مع مائة مدرس إلى روسيا، كمنحة لتطوير التعليم؟!... لم يتطور التعليم، لكن الأستاذ فارس تمكن من تطوير

علاقاته النسائية! فتعرف على فتاة في حانة تدعى (تاتيانا)، وتزوجها، وقرأ كل ما وقعت يده عليه من أفكار لينين، وستالين، وكارل ماركس، وعاد بعد عام وزوجته في يده، كما عاد برأسٍ تحول إلى كهفٍ خرب، تُلقى فيه كل الأفكار والمزاعم الإلحادية بدعوى الحرية. لا تستدل على وجود شيء ولا تؤمن بشيء حسى ولا تقتنع إلا بما هو ملموس، وعلى لسانه جملة واحدة مُكررة.

- لكل شيء سبب علمي، بطلوا جهل بقى! استهجن الجميع جراته، واستغفروا بينما تأقف عاصم من وجوده، إلا أن الأستاذ فؤاد فواز كان صبورًا وقال:

- هناك نهاية للعالم، وهناك عالمٌ آخر، وبعث، وحساب، وجزاء. هراً الأستاذ فارس رأسه في عناد وهو يحمل جريدة الوفد التي لا يقرأ غيرها، ونهض قائلاً:

- بقالنا ثلاثين سنة، يافؤاد، نتكلم في الموضوع ده، وما حدش فينا ها يقتنع برأى الثانى! وقف بيومى في وجهه قائلاً

- يا أخى إحنا ما بنحبكش، أنت عار على الحتة، إزاي أنت بتدرس لولادنا؟! أنا مش فاهم. علا صوت الأستاذ فارس في غضب

- عيب يا بيومى، احترم نفسك!

- أنت اللى تحترم نفسك، راجل ناقص بصحيح . رفع بيومى يده ليضرب الأستاذ (فارس)، لكنها توقفت في الهواء قبل أن تهوى على وجه الأستاذ (فارس) بفعل يد عاصم التي تصدت للضربة برشاقة في آخر لحظة على الرغم من كبر سنه .

عاصم: عيب يا بيومى، ده مهما كان متربى معانا، هو حر، ومهما اختلفنا مش لازم نتناول على بعض.

عاد الجميع للجلوس مرة أخرى، بعدما هدأت موجة الغضب المؤقتة.

وبينما كان بيومي يعتذر للأستاذ (فارس)، كان أحدهم يجلس على أطراف المقهى ويتابع المشاجرة في ضجر، كان رجلاً قوى البنية، مُستقيم الشارب، ملابسه تخلو من ذوق، وكأنه ابتاعها من سوق الكانتو، جاكيت كاروهات وقُبعة رياضية رمادية، على بنطال قماشى أسود قديم، ويحمل في يده مُفكرة سوداء كبيرة، وقلم رصاص، وأمامه (خميس الحلواني) صديقهم في المقهى الذى أوقعته ضائقته المالية بين فكى هذا الثُعبان المُخيف، "نصر" الذى أطلق عليه أهل الحى منذ زمن "نصر اليهودى"، نظراً لبخله الشديد وحبه للمال، لدرجة العبادة، لكنه فى الحقيقة، لم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، ولم يعرف له أحد ملهً على الإطلاق! له مال كثير، ولا أحد يعلم من أين اكتسبه، ولكن الجميع يعرفون كيف تضاعف إلى هذا الحد، يُشارك صديقه، ومُعلمه، (يعقوب الصائغ)، رجل نحيل له شعر رمادى، ونظارة فرنسية مُستديرة، ينحدر من أصول لبنانية، ويعيش وحيداً رغم سنوات عُمره التى قد تخطت السبعين! كان (نصر) يسمع كلمات (يعقوب)، وكأنها مصابيح تُضئ له الطريق. (مالك هو سندك، وظهرك، وولدك)، الفقراء فقط هُم من يقولون: إن السعادة ليست فى المال! وعندما يأتى المال، يتقاتلون عليه كما تتقاتل الكلاب على قطعة من اللحم. (الزوجة والأبناء هم أكبر مُضيع للمال، ولذلك لم أتزوج)!!! كان (نصر) يحفظ كلمات (يعقوب الصائغ)، وكأنها كلمات كتاب مُقدس، لم لا!! وهو الذى علمه عشق المال إلى حد القدسية!! التفت (نصر) إلى خميس قائلاً:

- سيبك يا حبيبي منهم، دول هجاصين، وتملى يعملوا الحركات دى. أنت عارفهم أكثر منى .. بقالهم كده أكثر من ثلاثين سنة على ده الحال !!؟ رد عليه خميس فى قلق .

- أيوه .. لكن الخناقة جامدة المرة دى.

- دول لاجئين، وصبيح...هُما لهم متوى إلاهنا، المهم. هتأخذ الخمسمائة جنيه، وها ترجعهم يا سيدى، مد يده بألته الحاسبة البغيضة قائلاً
- سبعمائة جنيه، بعد ستة أشهر، قُلت أيه؟!
- قلت لا إله إلا الله. رد عليه بسخرية
- محمد رسول الله! هه موافق، ولا لأ. تهمد خميس فى قلة حيلة قائلاً:
- موافق يا عم (نصر)، وأمرى لله .
- ****

- تأخر كالعادة. مفيش فايدة. المخدرات لحست مُخه ! لازم أروح علشان أقدر أصحى. قالها (عاصم) لنفسه في غضب ونادى حسونة صبي المقهى قائلاً:
- الحساب يا حسونة. نقده الحساب وتحرك صوب المنزل. كان الأسى قد استبد بعاصم، لعلمه بما يفعله (حسين) في هذه الساعة. غادر المقهى بخطوات بطيئة، ورفع حقيبته التي تُشبه الجِوالَّ على ظهره، واستمر في السير حتى دلف إلى (حارة الغول) القريبة من المقهى والشارع الرئيسي. تطلع إلى المنزل المُتهالك ذى الدورين الواقع في نهاية الحارة، وإلى اللوحة النحاسية الصدأ، المكتوب عليها، (عاصم الغول - - تاجر)، وكعاداته في كل مرة يقرأ فيها تلك اللوحة، يشرد ويُفكر، ثم يهز رأسه قائلاً، وهو يصعد على السلم، "الحمد لله". بدا كأحد حُكماء التبت العظام الذين يتحكمون في طاقة الغضب لديهم، ويُحولونها إلى طاقة بناءة مُفيدة... واصل صعوده على السلم الخشبي المُتهالك، فتح الباب الخشبي العتيق، وأضاء المصباح، لتظهر صالة مُتسعة قديمة الطراز تحوى أريكة قديمة مُغطاة بكسوة من الورود الحمراء. وفوقها نتيجة قديمة بتاريخ، (٣١-١٢-١٩٩٩)، تُشير إلى آخريوم في الألفية الثانية، وأمامها منضدة زجاجية شفافة ذات عجل، موضوع فوقها جهاز تليفزيون توشيبا كبير الحجم، وعلى اليمين ثلاثة إيديال بيضاء أربعة عشرة قدمًا.

اتجه بسرعة إلى غرفة (حسين) ... ولد مفسود !! ... قالها في غضب، وهويتأمل في دهشة مُقتنيات ابنه العجيبة. لم يدخل الغرفة منذ زمن، ولم

يكن أبداً صديقاً له، كما كان صديقاً للمرحوم فضيل ابنه الأكبر، هل ظلم هذا الولد؟! تأمل مقتنياته مرة أخرى في دهشة، آلة جيتار باهتة من زمن الكلية، مكتب عتيق الطراز من السبعينات، عشرات البوسترات المعلقة على الحائط لنجوم الأغنية الشبابية، حميد الشاعري، محمد منير، مصطفى قمر، سيمون، مادونا، فريق (بينك فلويد)، فريق (ببتي شا)، كان عاشقاً للموسيقى والرسم.

مد يده وتناول (ماكيت) بيت، يُشبه كوخ إنجليزي، كونه حسين من علب السجائر المارلوبورو. تأمله الشيخ في إعجاب، فهو يراه بارعاً في أشياء كثيرة، ولكنها أشياء خائبة على حد قوله! فهو يهوى جمع التحف الصغيرة، غليون خشبي قديم، صدفة كبيرة فوق المنضدة، علب سجائر فارغة، شاهد لوحة رائعة من رسوماته لصياد قوى مفتول العضلات يُلقى بشبكته المفرودة في وسط الماء، بينما الشمس تعكس أشعتها الذهبية على وجهه، أعجبه تناسق الألوان وقوتها. تأمل سريره الخشبي الفوضوي الذي رسم عليه الكثير من الجماجم، وفوقه صورة شابة (خوجاية) ترتدى السالوبيت الجينز الشهير "بالعفريته" في التسعينيات، تُمسك بسيجارة في يدها، بينما رأسها مائل إلى الخلف في إغراء، ومن فمها تخرج كمية كثيفة من الدخان، بينما صديقها الوسيم (الهيبي)، ذو الشعر المعقوف يقف خلفها، وهو يستنشق ذلك الدخان مُغمض العين، مُستمتعاً، مُرتدياً نفس العفريته، بوعلى صدره مجموعة من السلاسل الغريبة، والتي تحوى الكثير من الجماجم. تنهد في ألم قائلاً

- يا خسارة يا حسين، ربنا يهديك يا بني، أغلق عُرفة (حسين)، واتجه إلى الغرفة الواسعة المظلة على الشارع، حيث يعيش هو وزوجته (الحاجة فيروز)، سرير خشبي قديم مُطعم بالصدف والعاج، وبجواره خوان أنيق من نفس الطراز، مُلحق به مكتبة أنيقة من الأرابيسك، صُفت بها أمهات الكُتب "كالعقد الفريد" و"الأغاني للأصفهاني"، و"عجائب الأخبار"، وغيرهم الكثير.

يعكف عاصم على قراءة تلك الكتب بالأيام، وخاصةً ذلك الكتاب الأسود الكبير، والموضوع باستمرار على الطاولة، بجوار الراديو الفيلبس العتيق، الذى لا يتوقف ليل نهار عن بث إذاعة القرآن الكريم. السرير المعدنى العتيق ذو العمدان الذهبية والمعلق عليه صورة له، هو وزوجته الحاجة (فيروز)، يحكى أيامًا من الهناء انقضت بوفاة فضيل، أحب الأبناء لقلوبهم. صورة أخرى بجوار المكتبة وهو يحمل (حسين) رضيعًا، وبجواره زوجته تبتسم وهى تحتضن الصبى الآخر. كان الصبى الآخر " فضيل " ذو السبع سنوات وقتها، يقف فى ثبات رافعًا يده بالتحية العسكرية، فاردًا كل أصابعه ببراءة، كل صورته كانت هكذا، فهل كان يتبنأ بما سيحدث له؟! طفرت دمعة من عينيه وهو ينظر فى عيني فضيل. يا الله!! كم كان جميلًا حلو القسمات. انتقل إلى البرواز الخشبي الآخر، وبه صورة فضيل بملابسه العسكرية، نفس العيون الجميلة، وإن خالطها، قسوة الرجولة، وشظف الحياة العسكرية، لكنه ظل باسم الوجه مؤمنًا بقضية، تشع ابتسامته نورًا. ابتسم له وهو يتمتم ببعض الآيات ثم همس فى حُب.

- سامحنى يابنى .

مد يده إلى المذراع الخشبي العتيق، وأدار زره الأصفر الكبير، لينساب صوت الشيخ المنشاوى فى تناغم، ويملاً الحجرة بالسكينة. استوقفته نهيات قادمة من تحت الغطاء، اكتشف أن زوجته لم تكن نائمة. بل كانت تستمع له، وهو يُناجى الصور، فقهرها الحنين هى الأخرى، وانخرطت فى البكاء. حاول إزاحة الغطاء من على وجهها، لكنها قاومت فى البداية. قائلة

- سيبنى أنام يا (أبوفضيل)، كان يحُب ذلك اللقب كثيرًا.

- أنتِ لسة صاحية، أنا فكرتك نمى .

- ومين بس يجيله نوم، الصداغ ها يموتنى .

كانت تُخفى جزءاً كبيراً من وجهها بإيشارب حريري أخضر، مُتعللة بالمرض،
وهي تدير وجهها قليلاً عنه، ضحك في مجون قائلاً:

- إنتي زعلانة مني ولا إيه، خليني أشوف وشك يا قمر. ردت عليه في جفاء:

- أنا تعبانة وعاوزة أنام !!

عاصم: لأ- - وريني وشك

دفع رأسها بقوة، فصرخت صرخة خفيفة. كان وجهها مُصاب بعدة
كدمات، وتورم في العينين.

- هو ضربك تاني؟! حاولت الدفاع عنه:

- معلش يا خويا، كان زعلان، علشان رفضت جوازه من (مُشييرة) بنت
حميدة.

عاصم: العيب مش في حميدة، حتى لو كانت بتخدم في البيوت، الشُغل
مش عيب. المشكلة في البنبت نفسها! هوناقص انحراف لما نجوزه البنبت المنحرفة
دي؟!، (مُشييرة) الممرضة بنت ملعب، الحارة كلها بتتكلم عنها. لكن لا!!—
الموضوع ملوش دعوة بمشييرة... نظرا إلى الزُرقة الواضحة في رسغها الأيمن قائلاً:
فين أسورتك. لم تكن الأسورة في مكانها بينما ظهر الارتباك على وجهها قائلة
- أصل؟! قاطعها قائلاً:

- من غير كذب، أنا المرة دي ها طلب البوليس.

الساعة الرابعة صباحًا.

صوت الشيخ (الحُصري) ينساب من مذياع عاصم، لكن سريره بدا خاليًا، وكأنه نفض عن نفسه النوم. صوت خرير الماء ينساب، كان يتوضأ أمام الحوض الكبير، الفاصل بين الحمام والمطبخ، ويُتمتم بأذكار الوضوء. دائمًا ما ينشط في هذا الوقت من الليل، تختفى آلام المفاصل، وخشونة الركبة ويصير أكثر خفة. سمع صرير باب الشقة، حيث دخل (حسين) صامتًا، ثم إستلقى على الأريكة القريبة من الباب، ونفسه يعلو، ومهبط، وكأنه يحتضر. حوّل الشيخ في غضب، واقترّب منه قائلاً، وهو يجذبه من ملابسه:

- أنا، كُنت رايح أبلغ البوليس، لولا أُمك اللي ضربتها وسرقت فلوسها، وغويشتها - هي اللي حاشتني، لكن أقسم بالله، لو كررتها تاني هاطردك من البيت، وأبلغ عنك.

اعتدل حسين جالسًا. كان شاحبًا كالموتى، أحمر العينين، بارز العظام. نموذجًا للضياح مُتجسدًا في هيئة إنسان، لدرجة انخلع لها قلب الأب الطيب، هو إنسان مريض، يحتاج لعلاج أكثر من احتياجه للوم والتقريع. تحدث بلسان ثقيل، وبصوت مبحوح

- ششش، مش عاوز أسمع أى حكم ومواعظ، كُنت أولى انصح نفسك، مانا طالعك يا حاج، أدار الأب ظهره مُتجهًا إلى الباب العتيق وهو يحمل فوق

كتفه حقيبة قماشية خفيفة بها زجاجة ماء وقطع من البسكويت الجاف. أغلق الباب خلفه ونزل إلى الشارع، بينما علا صوت حسين وهو يهذى:

- خسارة سيبت فاير لسة موجودة ! وصاحبتك اليونانية اللي خلصت فلوسنا عليها لسة عايشة !! هبط الشيخ على السلم، ودموعه على وجهه وهو يناجى ربه فى الظلام بدعاء سيدنا يونس:

- لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . ربنا يغفرلى. هو عنده حق أنا مش أب مُحترم علشان أنصحه . تغلب على أحزانه، وحاول رفع صوته الحزين كما يفعل كل ليلة مُنذ سنوات طويلة .

- الصلاة، الصلاة يا عباد الله، الصلاة خير من النوم، الرحلة طويلة والزاد قليل فقم وتزود . مسته تلك الكلمات، تذكر ابنه وهو يُذكره بذنبه، فتطلع إلى السماء، وهمس فى رجاء.

- لعل الله يغفر ذنبى. مريشوارع محرم بك ومحطة مصر، وهو يرفع صوته، ليذكر الناس بصلاة الفجر التى تنتهى، مع أذانها الأول، رحلته اليومية، حيث يعود من عمله منهك القوى، بعدها يدخل إلى المسجد، ويستكين فى هدؤ. تذكر كلمات ابنه (حسين)

- كنت نصحت نفسك الأول!! جاءه صوت النقشبندى، الصادح من مذياع المسجد القريب، كان الصوت جميلاً وجمهورياً، يلف الأنحاء، وكأن الله يبعث له بهدية تُسرى عنه .

فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ

فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ

أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعاً

استند على العمود الرخامى البارد، وهو يُحرك مسبحته العاجية السوداء،
ودموعه تُبلل لحيته البيضاء، كانت الكلمات، تتخلل إلى عظامه وكأن الشاعر
أبونواس قد نظمها من أجله. أطرق برأسه المُتعبَة. وهو يقول: يارب، انتبه لليد
الجانبة التى ربتت على كتفه قائلاً:

- سيستجيب الله لك إن شاء الله. فتح عينيه، لمح لثانية واحدة، شيخ
وقور أبيض الوجه، يزوره كثيراً فى أحلامه، وأحياناً يراه طيفاً فى المسجد. حاول
أن يكلمه، لكنه كعادته، إختفى. جذب إنتباهه صوت بكاء رجل، رقيق الحال،
هزيل الجسد، يبدو أن الأيام قد أدارت لها ظهره. كان يقف متعلقاً بأحد
الأعمدة الحديدية للمقام، وهو يُحرك شفّتيه وكأنه يُحدث أحداً، يعلم تماماً
أنه قد وصل من القهر مبلغه، لكنه استنكر ما يفعل. اقترب منه قائلاً:
- مالك يا بنى، خير.

جفف الشاب دموعه بيديه قبل أن ينظر للشيخ قائلاً:

- ضاقت بيا الدنيا يا عم الشيخ، علشان كده قلت آحى لضريح مولانا
أشتيكي له حالى. استغفر عاصم قائلاً

- وحد الله يا بنى، ربنا موجود، هايعملك إيه بس مولانا. ولا غيره !!

- مش هوولى وواصل لله.

- ربنا نفسه موجود. وسامعك، مش محتاج وساطة من حد.

لاحظ وجود معول صغير ومنديلاً محللاً وجواره، نظر ليديه وقدميه،
وضاقت عينيه فى فِراسة

- أنت بتشتغل إيه؟!!

- والله كنت بازرع أرض، لكن المرض هدنى، ودلوقتى أنا بسرح على باب الله،

جنايتي بالأجرة، ثلاثة أولاد وأمهم، همّ سبب نكبتى، محتاجين حاجات كثير،
والرزق ضيق.

- ربنا ها يرزقهم إن شاء الله، أنت صليت؟!

تردد الرجل قليلاً، حينما تذكر أنه لم يُصل، فهز رأسه نافيًا

عاصم: الصلاة هي أهم خطوة يا بنى فى الرزق، روح صلى وربنا يفرجها .

تحرك الشاب فى تباطؤ تجاه غرفة الوضوء، بينما عاصم يُتابعه فى إشفاق
وهو يُمسك بمسبحته ويتفكر، صار بحكم عمله الغامض خبيرًا بلغة الأجساد،
ذلك المسكين الذى ضل طريقه فى الحياة صار كالكتاب المفتوح بالنسبة له،
يبحث عن رزقه ولا يطلبه من الرازق، كمن يتوقع أن تسير سيارته بلا وقود. نظر
له وهو يُصلى صلاة المُضطرب الخائف، يعرف تلك الصلاة جيدًا، سيستمر فى
ممارستها حتى يطمئن قلبه ويعلم أن أمره كله بيد خالقه، ولا علاقة لضريح الولي
بأى شيء!! وإنما هو قرب، حب لا أكثر.

أخرج من جيبه ورقة أخذ يكتب فيها ويرسم بعض الأشياء. انتهى الشاب
الفقير من صلاته . تلفت يمينًا ويسارًا لكنه لم يجد الشيخ فى مكانه، أصابه
اليأس، كان ينتظر أن يُساعده لكنه رحل!. والآن الموقف كما هو، وسوف
يعود إلى أسرته خالى الوفاض. مد يده إلى الفأس الصغير المُتهالك، ورفع
فوق كتفه فى عصبية، وجذب المنديل، لكنه حملق فى الأرض عندما سقطت
على أرضية المسجد ورقة صغيرة مطوية، فتحها فى شغف ليجد شيئاً جعله
يطير فرحًا، ورقة مالية كبيرة من فئة المائة جنيه. لم ينتبه الشاب إلى الكلمات
المكتوبة بالورقة، عاد وقرأ الورقة وهو جالس على ركبتيه، تساقطت دموعه
من الدهشة:

- إيه ده، سبحان الله !!

كان عاصم قد كتب له :

لست مُزارعًا، ولاتعرف كيف تمسك فأسًا، إذا كنت تبحث عن عمل شريف، فاذهب إلى هذا العنوان، وقل لهم: إنك من طرف الشيخ عاصم الغول، وهم سيوجدون لك عملاً شريفًا، تُنفق منه على أسرتك. وإذا رفضت، فأنت تحتاج أن تعيد حساباتك من جديد، لأنك تكذب !!

(هذا المبلغ هدية منى لأبناء ك الصغار.)، ليُعينك على أن تبدأ مرة أخرى. قرأ الشاب الورقة في قلق، تلفت يمينًا ويسارًا، فلم يجد حوله شيئًا. كان الشيخ قد انطلق حاملاً جواله المجهول، ثم دلف إلى ذلك المبنى القصير ذو الحديقة الوارفة في هدوء، ودون أن يلحظه أحد .

ونظرًا لظروف الجفاف، التي مرت بالمملكة في العام الماضي، ومع استمرار هذه الظروف، قررت المملكة العربية السعودية أداء صلاة الاستسقاء اعتبارًا من اليوم، وعلى مدار يومين حتى صلاة الجمعة القادمة، وتشكر كل من سيؤديها من الأثقاء حتى يهطل المطر على البقعة الطاهرة. كان تلفاز مقهى بيومي يُذيع الخبر، والشيخ عاصم يجلس بجوار صديقه (فؤاد فواز) وحولهم مجموعة من الأصدقاء، يُتابعون باهتمام، بينما جلس الأستاذ (فارس مُحى)، يتناول قهوته، وهو يضع ساقًا فوق ساق، في عدم ارتياح، ظل صامتًا لكن حركات جسده كانت تشي بانفجار سيحدث قريبًا، لكنه صمت احتراماً لرفقائه، وكعادته سأل بيومي في فضول :

- أول مرة أسمع عنها الصلاة دى، ابتسم عاصم وهو ينظر إلى فؤاد، الذى رد بمرح وهو يُحرك حواجبه الثقيلة، ويسحب نفسًا من صدره الذى يجثم عليه صديرى ثقيل وجاكت من الصوف الإنجليزي الفاخر.

- علشان أنت عايش طول عمرك فى إسكندرية، وغرقان أنت وأهلك فى الشتا، ها تسمع عنها فىن يا بهيم . ضج المقهى بضحكة ماجنة اشترك فيها الجميع حتى، (نصر اليهودى)، الذى عادةً لا يُشاركهم أى شىء، ضحك على تلك الجُملة . فعقب بيومي .

- صح والله يا أستاذ فؤاد، بس إحنا خايفين نصلوها هنا، نصحوا

مانلاقوش بيوتنا !! ضج المقهى بالضحك مرةً، أُخرى وكأن الجميع قد إشتراكوا في جلسة أنس مُكبرة. انفجرت صوت الأستاذ فارس كالقنبلة.

- إيه الكلام الفارغ ده ؟!، كفاية تخريف بقى، العالم كله بيتقدم، وأنتم هاتفضلوا مُتخلفين، أنا زهقت!!، أنا هارجع روسيا تانى! أنا نفسي تعبت من التخلف ده، تابعوه وهو يغادر المقهى، لكن بيومى أكمل قائلاً:

- روح لجورباتشوف خليه يغسلها لك!!، وضج المقهى بالضحك، ليمسحوا قسوة الكلمات، لكن الشيخ عاصم والأستاذ فؤاد لم يضحكا هذه المرة، بل بدت المرارة واضحة على وجهيهما. تذكر عاصم ابنه (حسين)، فقال في رجاء:

- اللهم أهدى العاصى، فغمغم الجميع يارب. زفر (نصر) في ملل، تركهم ورحل دون سلام، فصرخ خميس الحلوانى

- صلاة الاستسقا جابت نتيجة ونضفتنا. ضحكوا كثيراً. لكن الشيخ قال لهم:

- صلاة الاستسقاء سنة مؤكدة، واستخدمها الرسول والخلفاء الراشدون من بعده: لجلب المطر

، وهى بإذن الله تؤتى بثمارها، شرط أن تؤدى بتقوى وصلاح. نظر له فؤاد قائلاً. وكأنه يريد للجميع الاستماع.

- نفس الموقف ده حصل، فى الجزائر من كام سنة، مع صلاة الاستسقاء و الجماعة الملحدين. ابتسم عاصم لفؤاد قائلاً

- آه!! قصدك، حادثة الشيخ الشعراوى، والملحدين وصلاة الاستسقاء.

فؤاد: أيوة. ده كان موقف غريب فعلاً. أطرأ الجميع أذانهم فى براءة تتنافى مع شواربهم الكثة وكروشهم الضخمة، وكأنهم عادوا أطفالاً يسترقون السمع لحواديت الجدات. انفلت لسان بيومى الأكثر فضولاً فى العالم قائلاً:

- إيه اللى حصل للشيخ الشعراوى يا عم عاصم !؟.

- لما الشيخ الشعراوى كان فى بعثة تبع الأوقاف فى الجزائر، شح المطر، وكانت البلد فى حالة جفاف، واحترار الرئيس هوارى بومدين فى المشكلة اللى تسببت فى خسارة كبيرة للاقتصاد، وساعتها اقترح الشيخ الشعراوى، والشيخ بلقايد، صلاة الاستسقاء على الحكومة والشعب، فما كان من بعض الشخصيات ذات المراكز الكبيرة فى الحكومة إلا أن اتهموهم بالجهل والتخلف، وأن المطر لا ينزل بهذه الطريقة! بل يجب تحرى الأساليب العلمية فى إنزال المطر! وقبلوا التحدى وقالوا للشيخ الشعراوى

- أرنا كيف سيتزل الله المطر! والعياذ بالله والعهدة عليهم. فما كان من الشيخ ومن معه من المؤمنين، إلا أن قاموا وصلوها، بينما جماعة العلمانيين، والمُلتحدين يقفون خارج المسجد، وماهى إلا دقائق بعد انتهاء الصلاة، وقد اتهمر المطر بشدة، واضطر جميع من بالخارج إلى دخول المسجد وقد ابتلت ملابسهم تماماً، وكأنهم قد سقطوا فى الماء، فابتسم الشيخ فى سعادة وحمد الله. ضج مقبى بيومى بالتكبير فى صوت واحد.

الله أكبر- ماشاء الله، الله أكبر ربنا يرحمه ويزيدكم. وفى قمة التهليل، ربتت يد على كتف الشيخ قائلة:

- أحسنت يا شيخ عاصم .

تلقت الشيخ عاصم إلى الرجل الخمسينى، الذى كان يبتسم له فى ثبات، كانت النعمة ظاهرة عليه، يرتدى جلباباً بنى فوقه عباءة مُطرزة بالقصب المذهب وعلى رأسه، عمامة صعيدية بيضاء، وفى يده خاتم ذهبى كبير فى حجم البندقية وعصاته الأبنوسية الأنيقة، تشى بئراً فاحش . بدا هذا الشخص غريباً على عاصم، فلأول مرة يرى هذا الوجه فى الحى. فرد عليه بفتور .

- ربنا يكرمك

- ممكن نتكلم خمس دقائق في الركن بعيد عن الجماعة؟! -

- حضرتك مين؟

- هاقولك على كل حاجة . انتقلا إلى الطرف الآخر الأكثر هدوءًا في المقهى،

والذى اعتاد (نصرعبدالله)، التاجر المُرَابى الجلوس فيه، لكنه غادر المقهى

مُبكرًا في هذه الليلة الغربية .جلس عاصم في توجس تحت بصر (الشلة) التى

كانت تنظر في شك، إلى الرجل الغريب الذى انفرد بالشيخ في تلك الساعة.

- محسوبك (حنا عجايبي)، مقاول، وعندى عمارات فى الحى هنا ..

- أهلاً وسهلاً

- أنا جاي أعرض عليك عرض، إن شاء الله يخليك تعيش بقيت عُمرِك

مرتاج.

ابتسم (عاصم) وهو يعلم باقى العرض، فارتشف رشفة من كوب الينسون

وهو يقول:

- عاوز تشتري البيت وتمهده، وتبنى مكانه عمارة جديدة .اندهش الرجل

قليلاً، ولكنه ابتسم فى ثقة تاجر، يُجيد اللعب بالبيضة والحجر.

- اللى دلونى عليك، قالوا لى إنك ذكى . ابتسم عاصم وقرر أن يُشاركه

اللُعبة قائلاً، وهو ينظر فى عينيه بقوة

- وقالوا لك عنى أيه كمان؟! . أكمل الرجل ثباته قائلاً:

- حكولى كتير الصراحة !. نظرله عاصم فى هدؤ قاتل.

- وماخفتش؟

- بالعكس ده شجعنى أكثر إنى أقابلك .

- تشرفنا يا سيدى بالمقابلة، وبعدين؟!عايز أيه تانى

- عاوز أشتري البيت!! بصراحة الحتة نُحفة، وخسارة تفضل كده على بيت

قديم بدورين . نظرله عاصم فى وجل.

- أنت مجنون يا جدد إنت !! ولا حد يقدر يعمل إلی بتقول عليه ده، أنا بس إلی ممكن يسكن البيت ده، والمشكلة إنك سمعت الكلام إلی بيتقال ومع ذلك بتعاندا!

- بص ياعم الحاج، الكلام ده كله إنت عامله، علشان ما تبعش، وكلها تخاريف، أنا ها دفع نص مليون جنيه تمن البيت، أنا عارف ظروفك، والعرض ده ممكن يخليك تعيش مرتاح باقى حياتك . حدث عاصم نفسه ساخرًا وهو بيتسم ابتسامة مُزعجة جعلت وجه (حنا) يحمر توترًا. بعض البشر الجُهلاء يظنون أنهم ماداموا امتلكوا المال، فيمكنهم كسر كل القوانين، حتى قوانين الكون غير المرئية. رد عليه بعبارة مُقتضبة وهو ينهض من أمامه - أنا لو وافقت على العرض، ها تعيش إنت تعبان طول حياتك !!

معامل السلام للتحاليل- د: محمد الشحات .

وقف (حسين) يتطلع إلى اللافتة النيون مُستندًا على دراجته البخارية الحمراء ماركة (جاوا)، مُرتديًا جاكيت من الجلد الأسود، وبنطلون جينز "ليفيس". كم هي رائعة محطة الرمل في الشتاء. تطلع إلى أضواء المعمل، الساعة الآن الثامنة مساء، دقيقة وتنطفئ اللافتة، نظر في سعادة إلى تذاكر حفلة التاسعة مساء، بسينما فريال، فيلم " شورت وفانلة وكاب" . دقائق أخرى، وجاءت تهادى، كفرسي بريّ جامح، لم يعرف الترويض بعد. جسد ممشوق، مُدرللتستوستيرون⁽¹⁾، ملفوف في بنطال من الجينز الأزرق الداكن، وتحتة، (بادى) هاي كول أبيض، وجاكيت من الجلد الهافان، وبوت من نفس اللون. فتح حسين فمه في إعجاب، لكن سرعان ما زاره الغضب، عندما رأى مائة وعشرين زوجًا من العيون تخترقها!! ساد الصمت الرهيب، في القهوة التجارية، بمجرد مرورها أمامهم. احترق دمه، بينما قابلته هي بابتسامة ساخنة، وهي تُحرك شعرها الأسود الفاحم في دلال، فرسم دور الغضب على وجهه، وان كانت أنزيماته الاخرى تئن!

مائة مرة قلت لأملك ما تعديش من قدام القهوة الزفت دى. ابتسمت، وهي تضع يدها الباردة في جيب سترته المشتعلة من فوق جسده قائلة في غنج:
مشيرة: بتغير علىّ يا سحسى. حاول أن يتماسك قائلًا في غضب:

(1) التستوستيرون (باللاتينية: Testosteronum) هو هرمون موجود لدى الذكور.

- أيوة طبعًا، وهانولعو في أى حد يبص عليكى .

مشيرة: طيب شد حيلك، واخطبني علشان زيزو ابن عمى ها يجنن ويتجوزنى، وكل يوم بيزن على أمى، وأنا واقفالهم علشانك.

حسين: أنا والله سُقت عليهم ناس يا ما، بس مش عارف ليه راكبين دماغهم؟
مشيرة: معلش أصل إحنا مش قد المقام السامى؟! بدت غاضبة ولكنها استطردت، وبعدين دى إسكندرية تمّا ما فيهاش زى حلاوتى ولا جسمى!! فلتت منه كلمة كادت تفسد الليلة:

- ما هوده اللى مخوفهم؟!

مشيرة: تقصد أيه يا حسين؟ أنا مشى بطلال؟ طيب بتمشى معايا ليه يا عين أمك، أنا ماشية. جذبها من ذراعها في استعطاف قائلاً:

- لا يا مشمش، ماعاش اللى يقول كده. بس هما ليه تفكيرهم، وربنا يسهل، ها نزورو أهلك عن قريب. تأبط ذراعها وقادها إلى زُدهة صالة السينما، جلس بجوارها في استرخاء، بكت مشيرة عندما أخذوا بطولة الفيلم (نور) من حبيبها أحمد السقا، وقبضت الشرطة عليه، أما هو فقد أعجبه المشهد الذى تزوج البطل فيه حبيبته (ابنة الوزير)، على مرأى ومسمع من العالم، ومن كاميرات التليفزيون، التى كانت تُغطى المؤتمر الاقتصادى. أخذ يُفكر في ظلام السينما:

- لازم تعمل حاجة، يا حسين قبل البت ما تروح منك - هو يعنى أحمد السقا أجدع منك في أيه؟! ابتسم ابتسامة خافتة في الظلام، وهو يمسك بيد (مُشيرة)، خرجا من الفيلم مُتأثرين بنهايته السعيدة، كانا يضحكان، وإن بدت ابتسامتها متوترة، ووجهها يبدو وكأنه أحد تماثيل (مدام توسو) الشمعية⁽²⁾ .

(2) سمي هذا المتحف نسبةً إلى مدام توسو مؤسسته. ولدت مدام توسو التى أسست هذا المتحف عام 1761 في ستراسبورغ، ويعد أشهر متحف للشمع في العالم .

ابتسم لها قائلاً : تتعشى . أومأت برأسها موافقة، اندهش من موافقتها سريعاً فلقد كانت، الساعة قد قاربت من منتصف الليل . اشترى ساندويتشات الفول والفلافل من مطعم (جاد) القريب من السينما . سارا متأبطين أمام فندق سيسل، عبرا طريق الكورنيش، واستقرا على البحر مُعطين ظهرهما للشارع، وهما يُراقبان المراكب، وقد انعكست أضواء قلعة قايتباى المهيّرة عليها، فبدت وكأنها ألعاباً ملونة، تسير في ظلام البحر. قال لها :

أول مرة ما تبقّيش مستعجلة بعد السينما، ابتسمت، ابتسامة باهتة:

- أُمى، النهاردة، بايتة عند خالتي في بحرى. قطب حاجبيه في استنكار قائلاً:

- وإزاي تسيبك مع جوزها لوحدكم؟!!

- عنده نقلة النهاردة في أسيوط؟! هو قالها كده؟!!

. كانت تنظر إلى صفحة المياة في حزن، والدموع تتحجر في مُقلتها. أعطاهما

ساندويتش، فأشاحت بوجهها قليلاً، سألهما في قلق:

- قالها كدة؟! يعنى ما سافرش؟!!

مدت يدها في جيبه، وأخرجت علبة السجائر الكيلوباترا البوكس، تناولت

واحدة وأشعلتها في حزن، وهى تنظر في شرود لصفحات المياة، وقد بدت غائبة

عن الدنيا قائلة:

- ياريتته كان سافر.

حسين: فيه إيه؟! مالك

مشيرة: لأ ما فيش! تعالى روحنى؟!!

ركبت خلفه على الدراجة البخارية، فانطلق مُتوغلاً في عمق الشوارع

الجانبية، بينما المطر قد بدأ يُعلن عن (نوة) شديدة القوة . وصلوا سريعاً، بدا

المنزل مُظلماً، والشتاء قارس. كانت تصرفاتها غريبة في تلك الليلة، لأول مرة - 7

تركه يصل بها إلى باب المنزل، دون أن تعباً بالقييل والقال، لكنه قال لنفسه:

- يمكن علشان الدنيا شتا، والشارع فاضى، سمع صوتها وهو يرتجف:

- معلش، اطلع معايا وصلنى --- أنا خايفة؟! رد عليها فى دهشة:

- إنتى مش خايفة إن حد يشوفنا؟

- اطلع بس؟!

كان الشارع خالياً ومدخل البيت القديم مُظلمًا تمامًا. صعدا على الدرجات الحجرية القديمة، وهما يُمسكان ببعضهما، ويستندان إلى الدرايزين الخشبي القديم. كان الظلام موحشًا، ورائحة العطن تفوح من جنبات المنزل القديم، زاد صوت الرعد من اصطكاك أسنانهما. دوت صرخة من تحت قدميهما لشيء يجرى بسرعة، جمدت الدماء فى عروق (حسين) بينما شهقت (مُشيرة) وهى تتنفس بصوت مسموع، فلقد كانت الصرخة لقطٍ سخيّف قرر النزول من على الدرج فى ذلك التوقيت الغير مناسب، فداست مُشيرة على قدمه.

صعدا الأدوار الثلاثة فى مشقة، وكأنهما يصعدان الهرم، فلقد أنهكهما الخوف تمامًا، وبالكاد وصلا إلى سطح المنزل. حيث تسكن مُشيرة وأُمها، وزوجها (سبع الليل مناع)، فى غرفتين خشبيتين تصحهما (عفشة مياة) غاية فى القذارة، كانت مُشيرة تسكن فى واحدة، بينما زوج أُمها الخريت وزوجته (حميدة أبو النور) يسكنان الحُجرة المُلاصقة، وبالطبع كانت أعظم هوايات (سبع الليل)، هى التلصص على جسد مُشيرة الفائز، من بين ثقوب الغُرفة الخشبية التى لا تستر شيئًا، أو تعمد الاصطدام بها بمناسبة وبدون! كطريقة بدائية ومكشوفة من طرق التحرش. عبرا باب السطوح الخشبي، لاحظ حسين ذلك السلم الخشبي المُرتفع بشكل حلزوني فى الهواء. أكثر من ثلاثة أمتار، ينتهى بغية حمام خضراء كبيرة تسبح فى الفضاء كقُبة ولى من أولياء الله، تستخدمها أُمها (حميدة) فى تربية الحمام وبعض الدواجن، وفى تخزين عدة الغسيل،

من (بواجير) و(طشوط) وعصيان خشبية، ويستخدمها (سبع الليل)، أحياناً لمزاجه. ظهرت في الطرف الآخر لسطح المنزل حُجرة أسمنتية مُتوسطة، يُلاصقها حُجرة خشبية بها عدد لا بأس به من الثُقوب. لم تُمهله مُشيرة كثيراً بل فتحت الباب سريعاً، ليسقط حسين بعدها على ركبتيه، ويُفرغ ما في جوفه.

لم يُصدق (حسين) ما رأى، بمُجرد أن أضاءت (مُشيرة) مصباح الغرفة، التي تحولت إلى سلخانة بشرية! قطع أدمية، رأس، وأفخاذ سمينية، وبجوارهم، كمية كبيرة من الأكياس السوداء، ومنشار حدادى ضخم، وأنواع مُختلفة من السواطير. ظل يُفرغ ما فى جوفه وهو يصرخ:

- أيه ده !!، الله يخربيتك، ويخربيت الليلة السوداء دى . قالت مُشيرة بتوتر:

- ده سبع الليل! جوز أمى، بصقت عليه فى اشمئزاز، ثم استطرقت وهى

تبيكى، مُحاولةً أن تستدر عطفه:

- الكلب ده، فهم أمى إنه مسافر، وعرف إنها رايحة تبات عند خالتي المريضة، علشان ترعاها بعد العملية، واستنى ودخل علىّ وأنا نائمة على الكنبه، وكبس على نفسى، قاومته ووقعته من فوق الكنبه، جريت وسحبت السكينة، وغرزتها فى كرشه .شعر أنه قد دخل كابوساً رهيباً بقدمه اليُسرى، ولا يعرف كيف يخرج منه، تراجع عدة خطوات فى ذهول، فانتبهت مُشيرة إلى أنه قد يُفكر فى الهرب فأخذت تبكى وتستعطفه:

- أرجوك يا حبيبي ساعدنى نخلص من البلوة دى، قبل ما حد يصحى، لسة

قدامنا كام ساعة على لفجر، والدنيا شتا والشارع كُحل . كانت يده ترتعد من

البرد ومن المشهد المُخيف، فقال لها :

- لأمش هاعمل كده، مش قادر. نظرت له نظرات ساخنة وهي ترتى في
حضنه قائلة:

- احميني يا حسين، مش أنا حبيبتك برضه، أنا عملت كده علشان
أحافظ على شرفك، وانت كده بتدافع عن شرفك!! تعالى معايا، وأنا هارحك.
شعربالخدريسى فى أعصابه، من جراء ملامستها المُستمرة، لأجزاء حساسة من
جسده، سحبتة على غرفتها، وأغلقت الباب، دفعته فى دلال فوق سريرها وهي
تقول له فى همسٍ ماجن:

- أيه رأيك فى سريري، رهيب مش كده؟! ولسة هاوريك؟! ضحكت بصوتٍ
هامس، فشعربدوار، أمسكت يده فى نُعومة، وكشفت ذراعه، حاول أن يُخفى
ندبات الحُقن المُخدرة عنها، لكنها بالعكس قبلتها فى شبقٍ أصابه بالجنون، وهي
تقول:

- خُد راحتك يا حبيبي، مفيش حد مالوش مزاج، أنت ناسى إني مُمرضة، أنا
عارفة من أول يوم، وعلشان تعرف إني بحبك هاضرب معاك أنا كمان. انثنت
أمامه وهي تُخرج دسته من الأمبولات المُخدرة، أخرجت منها أمبولاً، وبمهارة
فائقة أفرغت سائلة البُنى فى الحُقنة الرفيعة، وأمسكت بيده فى دلال، وهي
تدفع بالسائل البارد فى عروقه، اشتعل جسده عندما كشفت ذراعها، وأفرغت
الأمبول الآخر فى عروقهها. صرخت فى انتشاء، ثم احتضنته، وسقطت بجواره على
سريرها.

اليوم التالي

حالة لا مُتناهية من النشوة قد دبت في جسد حسين، وهو يعمل معها في تعبئة وتقطيع جُثة (سبع الليل) من الليلة الماضية . كان تأثيرها، وتأثير الحُقنة المخدرة، قد أصابه بحالة لا مُتناهية من النيرفانا، لم يحصل على سعادة بهذا الحجم من قبل !! ولذلك فقد سار خلفها مُخدراً، ونجحت هي في قيادته، عشرون كيساً من الحجم الكبير امتلأت بهم جُثة سبع الليل مناع . قال لها ضاحكاً بعدما عاد من رحلة توزيع، ألقى فيها ثمانية أكياس للكلاب في عدة مناطق نائية مُتفرقة :

- سبع الليل ده، فشر العجل! ده مُمكن يأكل حى بحاله، ضحكت قائلة، وهى تقوم بتشفيته بمهارة تفوق جزارى المذبح :

- طيب خلص يا ظريف، لسة عندنا شُغل كثير، أحسن نتكشف، أُمى جاية بكرة ولازم نخلصوا على العجل ده قبل ما تيجى . وضعت مجموعة من الأكياس داخل جوال فارغ كبير وقالت له:

مشيرة: هانستنوا آخر الليل، ونحدفوهم زى ما عملنا إمبارح . نظر إلى الهيكل العظمى المُغطى بأحد ملاءات السرير قائلاً:

- وهانعملوا أيه فى المُصيبة دى؟ قالت فى هدؤ، وكأنها ليست المرة الأولى .

مشيرة:- هانشوفله صرفة! ما تعلقش، بس في حاجة لازم نعملوها الأول؟

حسين: أيه هي؟

- خلاص، إحنا بقينا شركاء في المصيبة دي، وما ينفعش نسيب بعض. نظر

لها في شبق قانلاً:

- ما ينفعش حد يعرفك ويسيبك يا مشمشة، نظرت له في حزم:

- مش بالكلام – لازم نتجوزوا النهاردة؟! .

- بس !!، قاطعته في غضب:

مشيرة: لازم النهاردة نخلص، أنت مصلحتك معايا، وأدبك شفت .

- آه شفت، بس إنتى ودتيى في داهية! ابتسمت بوجه مكشوف :

- كل شىء بتمنه يا حبيبي؟! نظر لها في اندهاش لكنها أردفت:

- ماتستغريش قوى كده؟! إنت ساعدتى، وأنا ساعدتك، وكده خالصين،

وماتنساش أنت بتحتاج كيفك، وأنا أقدر أجيب، وببلاش، وأدبك بتظبط من

كله !

حسين: آه يا بنت الكلب، كنت فاكرك سهلة.

مشيرة: السهل بيتاكل في الزمن ده يا حبيبي !! خليك مع مشمش حبيبتك

تكسب. لم يكن مُزعجًا من كلامها، بل كان يحتاج شخصية قوية مثلها

الساعة الواحدة صباحًا.

هبطا السلم العتيق، بعدما تأكدا من خلوه من السُكّان، فلقد كان الشتاء

لايزال يُلقى بظلاله الثقيلة على أهل الإسكندرية، مما دفع الجميع للجوُّ مُبكرًا

إلى منازلهم . كان السلم مُظلمًا تمامًا، فأشعرهما ذلك بالراحة، حمل حسين

الجوال الثقيل على كتفه بينما سارت هي خلفه تحمل حقيبة حمراء كبيرة، عاد

بها سبع الليل مؤخرًا بعد رحلة عمل فاشلة من ليبيا . فاجأهم صوت سُعال ثقيل على باب البيت، لمحته مُشيرة في الظلام، بجسده الضخم وصلبته التي تلمع على ضوء عمود الإنارة الخارجى، ورائحة المعسل الثقيلة التي تُغطي ملابسه، إنه (لمعى) صاحب المنزل، وصاحب محمصة للب والسودانى، وزوج مدام (أزهار)، والتي يطلق عليها العوازل، والجارات الكارهات، اسم "مدام حنفى" نظرًا للشبه القاتل بينها وبين الفنان العظيم (إسماعيل يس) فى فيلم الأنسة حنفى، لكنها تتمتع بغرور وثقل ظل تحسده عليها أنثى الطاووس. عندما شكت (أزهار) لزوجها (لمعى) من اللقب، لم ينزعج كثيرًا، فهو أكثر شخص فى العالم يراها قبيحة، بل هو يئن تحت هذا الكم من القبح، لكن المنازل، والعقارات حولت القرد إلى غزال. تراجعًا قليلًا، ولحسن حظهما أنه كان مسطولاً، فلم يتمكن من رؤية شىء. اختبنا قليلًا فى بئر السلم، ريثما يصعد لمعى السلم فى الظلام، ويختفى داخل شقته، إلا أنه كسرتوقعاتهما، حيث شعر بشىء يتحرك فى الظلام، فعاد وهبط الدرجات واقترب من ذلك التجويف المُظلم فى بئر السلم، ليجدهما متكومان هناك كزوج من القطط الخائفة .

- إيه ده، استنوا إنتوا مين . أطلق صيحته كعسكرى دورية، إلا أن عاجلته ضربة قوية، من جسم جلدى، أسقطته أرضاً، وفرا بعدها. وهو يصرخ:
- آه - عورتونى ياولاد الكلب.

اقتربت دراجته الجاوا، من منطقة المجيرة القديمة على الأطراف الغربية من الإسكندرية أطفأ الأنوار، ونزلت (مُشيرة) ترتدى عباءة سوداء ومعها الحقيبة الحمراء، التى حملت عظام (سبع الليل). وقف حسين وفى ذلك الليل الموحش، يُتابع الحركة السريعة للسيارات على الطريق، قذف إليها بمعول صغير، حيث دخلت إلى المجيرة، وهو ينظر يمينًا ويسارًا للطريق. اقتربت مُشيرة

من إحدى (الجور) الغائرة، وحفرت في حرص، حتى وصلت إلى عمق كاف، وأخرجت الحقيبة، وأفرغت عظام سبع الليل بداخلها في عصبية، ثم أهالت عليها الجير، الذى أصابها بسعال شديد، وحول لون جلباها الأسود إلى أبيض. أنهت عملها ودفنت الحقيبة في مكان بعيد، كادت تخرج، إلا أنها سمعت صوت سارينة سيارة شرطة تقترب، وصوت موتوسيكل حسين ينطلق بعيداً، فاختبأت بين مجموعة من البراميل الفارغة .

- الولد بقاله مدة طويلة برا البيت، أنا خايفة يكون جرى له حاجة ؟

كانت الحاجة فيروز تجلس في صالة المنزل، وأمامها صينية نحاسية عتيقة عليها أكواب صغيرة مُذهبة، و(سبرتاية) صغيرة، فوقها (كنكة) نحاسية جميلة، وأمامها عاصم، يجلس مُستمعاً بكوب القهوة المُحوجة العظيم الذي نُعده، بينما بدت يدها مُرتعشة . كان صامتاً، فدفعته بالجملة المصرية الشهيرة

- ما تقول حاجة ياراجل؟!

عاصم: ها نقول أيه، لا إله إلا الله .

فيروز: محمد رسول الله، يعنى مش ها تقوم تدور عليه؟! ياراجل ساعده.

ارتشف آخر قطرة من القهوة، وهو يتسّم في يأس قائلاً:

- أساعده؟! هو مش قادر يساعد نفسه، ضيعت فلوس كتير على علاجه من

الإدمان، ومفيش فايدة! لا بيثبت في شغلانة، ولا بينفع في حاجة، بعته الوكالة

يشتغل مع محروس ابن عمه، بهدله وسمعه كلام زفت! وطايح بالموتسيكل

بتاعه في إسكندرية كلها، هو والبت المُرضة الصايعة، بنت حميدة، اللي عاوز

يتجوزها.

فيروز: مش يمكن حاله ينصلح لما يتجوزها؟ وأهى برضه أمها غلبانة

ومنكسرة ويتساعدنى.

عاصم: أنا ما ليش دعوة بأمها، غلبانة ومنكسرة، بس مش قادرة عليها،

وبعديين، صمت قليلاً ثم قال، أستغفر الله العظيم ماتخلينيش أقول كلام أكثر من كده، علشان الذنوب. صمتت ومصصت شفتيها قائلة، أستغفر الله العظيم .

- تصبى على خير، علشان ألحق ميعاد صحيان. استبد به القلق لغياب حسين هذه المدة الطويلة، لكنه بدا أمامها غير مُهتم، حتى تتوقف هي عن القلق عليه، لقد دلتته كثيرًا، بعدما أصبح الحيلة، وهذه هي النتيجة، صار نبتًا شيطانياً لن ينفعهم بشيء. صلى ركعتين ودعا له كثيرًا، ثم نام. رآه يسير في ردهة مُستشفى كبيرة بدراجته النارية الحمراء، و(مُشيرة) تنتظره في نهاية الردهة الطويلة، وهي تجلس في خلاعة، كان يسير بصعوبة، ف مع كل خطوة كانت تروس الدراجة، تُمزق قطعة من ساقه، فيتزف دمًا، وكلما زادت سرعتها، زاد نزيف الدم من ساقه، حتى تحولت أرضية المُستشفى البيضاء، إلى بركة عميقة من الدماء غرق فيها (حسين) و(مُشيرة):

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. نهض وجلس في سريره مفزوعًا، امتدت يدها له بكوب ماء قائلةً

- مالك بس يا بو فضيل - وحد الله يا خويا .

- لا إله إلا الله . نهض من سريره واتجه إلى الحوض الكبير، توضأ، وتناول طعام إفطاره على عجل، وخرج إلى الشارع الكبير

اليوم التالي .

الساعة الثامنة والرّبع مساء

نزلت (مُشيّرة) من المعمل، فوجدته مُستندًا كعادته على دراجته البخارية، لم يكن في حالة مزاجية عالية، ويُدخن بشراهة، حدجته بنظرة نارية وهي تقول:
- كويس اللي إنت عملته إمبراح، أنا كنت هاموت من الخوف والبرد، نظر
يميّنًا ويسارًا قائلًا:

- ما ينفعش هنا، اركبى .انطلق بها حيث وقفا أمام قلعة قايتباى، البحر في
هذه البقعة هادئ، وله تاريخ عظيم. وقف بجوارها متوترًا، بينما سألته غاضبة:
- إزاي تسيبنى إمبراح وتهرب كده .ابتسم في برود
- يعنى كُنْتى عاوزانى أعمل فيها شجيع، واتعارك مع الحكومة؟!
- طب كُنْت رَجعت وأخذتنى؟.

- حاولت لكنهم كانوا واقفين بيلفوا في المنطقة، وبعدين لما لقيتك
استخببتى، اطمئنيت عليكى. ابتسمت في سُخرية، وتأكّد لها حُسن اختيارها له،
جبان، ومُستهتر، وضعيف، خامّة طيبة للانقياد! لانت لهجتها، وكأنها اقتنعت
بكلماته.

- أنا كنت ها موت، وفضلت قاعدة في مكانى، استحملت الأذى، والبرد،
والحشرات لحد الفجر ما شقشق، وشاورت لعربية خضاركانت معدية ومروحة

البلد. كان ينظر في الأفق وكأنه يسبح في ملكوت آخر، وهو يرتجف من البرد فقالت له، وهي تلتصق به من الخلف:

- مش هانفذوا اتفاقنا بقى، أنت واحشى جداً. كان مُتردداً فلم يُعقب لكنها عاجلته في دلال:

- خلاص يا حبيبي، إحنا بقينا شركاء في الموضوع ده. سواء تمينا المشوار، أم لأ، عموماً إنت الخسران!

كان شارداً يُفكر، لقد زلت قدمه في المُستنقع، وما كان قد كان. إذا فليستمتع بالحياة لأخر قطرة، وليتزوج تلك الماكينة الألمانية الجبارة، والتي ستوفر له أهم شيئين في حياته، الحُخْن والحُب. كان مُتجهًا ناحية منزلها، لكنه عدل اتجاه دراجته البخارية، وسار في اتجاه آخر، أما هي، فلم تتحدث معه مُطلقاً، كانت تشعر بالمعركة التي تدور في رأسه، فتركته يحسمها بمفرده؛ لأنها مُتأكدة من كونه سيختارها في النهاية، بعدما ذاق السُم والعسل في آن واحد! هي تحتاجه أكثر ما يحتاجها، فهو في هذه المرحلة أفضل ما تطلبه، قوى كالثور، ضعيف الشخصية، يسير وراء رغباته، كما يسير الكلب الجائع خلف قطعة من اللحم، ليس غنياً، لكن أهله ناس مستورين، ويسكنون في بيتهم الملك، الذي سيؤول إليه بعد موت والديه. كما أن بيئته أنظف، وسُمعتهم طيبة في الحارة. وقف أمام بيت صغير في منطقة (المنشية)، جذبها من يدها، وصعدا إلى الدور الثاني، وقفا أمام باب خشبي أحمر اللون، مُعلق عليه يافطة نُحاسية—(محمد المناهري) مأذون شرعى، دق الجرس، ففتح لهما شاب في العشرينات، يرتدى لباساً أزهرياً. كان الشاب وسيماً جداً، وفي وجهه علامات السماح، جعل تلك الشيطانة تستملحه! إلا أنه هرب منها ببصره وهو يتلو آياتٍ من سورة يوسف. اغتاض حسين قليلاً، عندما لاحظ ذلك، فقال له بحدة :

- إنت المأذون، ابتسم الشيخ الصغير قائلاً:

- لا أنا ابنه ومساعدته، هل جئتم في زواج، أم لا قدر الله في طلاق. قالت له
في خلاعة:

- حرام عليك يا مولانا، إحنا لسة مادخلناش دُنيا، بدا وكأنه يُسمِع ما
يحفظه من والده :

- إذن سأذهب وأستدعى الشهود. تفضلوا في غرفة المكتب، ريثما يأتي الشيخ.
دخلا عُرفة المكتب، غرفة بسيطة، بها طقم مكتب أرابيسك رائع مكون من
مكتب أنيق منقوش عليه بعض أسماء الله، الحسنى، وأربعة كراسى، كل كرسى
على رأسه اسمًا من أسماء الله الحُسنى، أو حكمة جميلة، "الرزاق"، "الواسع"،
"حُسن الظن من حُسن الفطن"، مكتوبة بخط كوفي مُنمق. دخل رجل وقور
أبيض الوجه واللحية، نموذجًا مُكبرًا من الشيخ الصغير يزيد عنه، كرش بارز،
وأرداف مُمتلئة، كان في تمام الصحة، وهو يقول عبارته التاريخية:

- زواج مبارك إن شاء الله .. أخرج دفتره الكبير، ماركة الشمرلى، وأخذ
يدون التاريخ وبعض المعلومات، وهو يتفرس في ملامحهم جيداً، وكأنه يتأكد من
أهليتهم، فقال لهم:

- على ما الشيخ محمود يأتي بالشهود، من فضلكم أعطوني البطايق، مدت
مُشيرة يدها في جيب بنطالها الجينز، لتخرج البطاقة في ثوانٍ، لكن (حسين)
أخذ يُقلب في جيوب سترته في قلق، كما انتقل القلق إليها هي الأخرى قائلة:
- فيه إيه؟

إنتفض حسين واقفاً، وهو يُقلب داخل جيب قميصه، وفي جيوب سرواله.
- مش عارف كانت هنا، في جيب الجاكيت، لكن مش عارف راحت فين؟!،
امتقع وجهها، فلا يجب أن تضيع البطاقة في ذلك اليوم النحس أبداً.

عادت إلى منزلها مُحطمة، كانت تُحدث نفسها في الشارع، غير عابئة بنظرات شباب الحى التى تلتهمها

طول عمر حظك زفت يا مُشيرة. ما هولو كان عدل ما كانش (زفت الليل) ده وقع في طريقك، وما كانتش بطاقة المعدول ضاعت .إيييه .

اقتربت من سطح المنزل، حيث تسكن، اقتحمت أنفها روائح المنظفات النفاذة، كلور، بوتاسا كاوية، وصابون غسيل رخيص. وسمعت هسهسات أربعة (بواجير جاز) كبيرة الحجم تأكدت من عودة أمها من عند خالتها، لا تتوقف عن الغسيل للجيران وللزبانن، لدرجة أنها قد صارت تعرفها من رائحة الكلور والمنظفات التى لا تُفارقها أبداً، والتى باتت جزءاً منها . كادت مُشيرة أن تُصاب بالجنون، عندما وجدت (حميدة) تجلس أمام "طشت الغسيل"، مُرتدية جلباباً بُنيًا فقيرًا، به ورود فاقعة اللون خالية من الذوق وتحتة سروالاً أسود باهت، وعلى وجهها أسى، وهمّ العالم أجمع . ندت شهقة فزع خافته من مشيرة، وهى تنظر إلى (عُشة الحمام) الخضراء، وهى تحدث نفسها :

- يا دى المُصيبة؟! حاولت أن تتماسك، وهى تقول بصوت مُتهدج .

- إزيك ياما؟ .

لم ترد (حميدة) بل أكملت (فُم الغسيل) حتى نهايته!!

كانت العلاقة قد ساءت بينهما كثيرًا في الآونة الأخيرة، وبالطبع كان لسبع الليل دور لا يقل عن دور "هيلارى" في الربيع العربي. بعدما انتهت حميدة، نهضت في هدوء قائلة:

- كُنْتِ فين ؟

- مشيرة: يوووه ... هو أنتِ كل ما تشوفينى، مفيش غير السؤال ده؟!، كُنْتِ في الشغل

- كدابة، كنتِ مع الواد الصايح ابن الحاجة فيروز.

مشيرة: أيوة .. وها نتجوزوا كمان .

- أمه كانت هنا وبتشتكى منك، ومش عاوزاك لابنها . قطبت (مشيرة) حاجبها في غضب

- إيه اللى جاها هنا ؟!

حميدة: كانت عاوزانى علشان أغسلها .

مشيرة: هو أنتِ مش ها تبطلى الزفت ده، والولية دى بالذات .. بلاش ؟!

حميدة: هى دى أول مرة، احنا بقالنا سنين على كده . صَرَخَتْ في غضب:

مشيرة: دى ولية سِماوية وشايفة نفسها أحسن من الكل . نظرت (حميدة)

لابنتها في حزن، لقد تعبت كثيرًا حتى تجعلها إنسانة صالحة، كم سهرت الليالى

مُنكبة على (طشت) الغسيل البارد في ليالى الشتاء حتى توفر لها مصاريف

الدراسة، والطعام، والملبس المناسب، لكنها للأسف بدت كنبئة شيطانية وسط

حقل قمح، لا تعرف متى وأين تسرب كل هذا الكم من الشر والحقد داخل

نفسها ! قالت لها حميدة :

- لما أبوك مات وأنتِ لسة صغيرة، ماحدث شالنا غيرها، وباما أكلتك،

وشالتك لكن نقول إيه، قليلة الأصل وناكرة جميل ... لو كنت أعرف أنك زرة

شيطاني كنت بركت عليك موتك .صمتت (مُشيِرة)، فلقد ذكر أحدهم القتل الآن. لكنها ردت في تحفز:

- هاتجوزه، غصب عنك وعنهم .

حميدة: عاشقاه إياك؟ لاهو اللى زيك يعرف حُب ولاعشق .كانت (مُشيِرة) في كل لحظة، ترفع رأسها وتنظر في اتجاه غيبة الحمام

مشيِرة:أهو عيشة، أحسن من العيشة الزفت مع جوزك البغل . تغيرت ملامح (حميدة) وسقطت الدموع من عينيها، وهي تمد يدها تحت الأريكة وتلقى بكيس بلاستيكي أسود تحت قدم (مُشيِرة) وهي تقول لها .

- سبع الليل ما كلمنيش من يوم ما سافر، دي خلجاته اللى كان مسافريها، فيها دم وفي عشة الحمام، أمسكت بتلابيها في غضب وكأن جأناً مسها، بينما تسمرت مشيِرة من هول الصدمة.

حميدة: عملتى كده ليه يا مُشيِرة، وفين جتته؟؟

مشيِرة: وأنا أيش عرفنى ياما، أنا كُنت في شغلى وجيت نمت. أكملت حميدة، وكأنها لم تسمعها :

حميدة: طول عمرك، وأنتِ لكِ غيبة في قتل خلع الله، ولا نسيا إياك القطط والكلاب اللى كنتِ مالية بهم السطح، وبتعطيهم من الجزايز اللى بتحضرها بيدك !!. طول عمرك بتجى القتل، كيف عندك، كانت مُشيِرة تنفس في غضب بينما أمها مُسترسلة في الكلام، وسط نوبة بكاء هستيرية:

- ده جآلى إنه مسافرو عطاني فلوس علشان زيارة أختي، أيه اللى خلاه عاود تانى .لم تتمكن من كبح جماحها هذه المرة وقالت لها وهي تبكى.

مشيِرة:اسألنى نفسك أيه اللى رجعه تانى، علشان هو قدر، وطول عمره بيأذيني، وياما اشتكيت لكِ، وأنتِ كُنتِ بتبصى لنفسك وبس ! مش مهم شرف بنتك ولا لحمها اللى بيتعري !! حتى لما كبرت، رمتيني في أودة خشب وسخة الحمام

بتاعك عايش في واحدة أحسن منها. كانت (حميدة) جالسة على الأرض تولول، بينما تحولت مُشيرة إلى نمرة جائعة، تُثيرها رائحة الدم .

مشيرة: أنا كنت هانلم هدومي ونعيشوا في شقة مفروشة، من أول الشه، لحد ما نتجوزوا أنا و(حسين) ، لكن الكلب ده دخل على وأنا نايمة، وعلشان كده خلصنا عليه .

- ليه كده يا مشيرة - ليه كده؟ . كانت قد جمعت متعلقاتها في حقيبة كبيرة، وارتدت ملابسها وقررت مغادرة السطوح .

- خلاص ياما -ياروح ما بعدك روح، بس لو بلغتني عني، أو قلتي حاجة هانزعلوا منك، لم تتخيل حميدة أنها ستسمع تلك الكلمة من تلك القطة البرينة اليتيمة التي بُريت يديها من غسيل الملابس حتى تُطعمها وتعلمها، ولكنها سمعتها وهي تنظر لها بشراسة مُتناهية .

- وأديكي يامًا، شفتي زعلى وحش إزاي!؟

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ»^(٣)

(3) سورة التغابن، آية : 14.

ثلاثة أسابيع كاملة. داخ دوخة (يئى) فى بلاد المُسلمين، حتى ختم البطاقة الجديدة، واستوفى باقى الشروط. شعر أنه قد عبر المانش الإنجليزى، بمجرد أن نادى الموظفة الكنيبة على اسمه، بصوتها الرفيع الممطوط
- (حسين عاصم الغول).

- أفندم، قالها بفخر شاب، يقف فى منطقة تجنيد العامرية. استلم البطاقة، تأملها قليلاً، ثم اتجه بدراجته البخارية ناحية محطة الرمل، وجلس على المقهى ينتظر مُشيرة ريثما تنتهى من عملها، أنطلقا مرة أخرى إلى مكتب الشيخ (محمد المناهرى)، حيث أتما زواجهما، ثم اتجها بعد ذلك إلى منزل (حسين).. ٢ حارة الغول.

صرخة مُدوية، أطلقها الحاجّة فيروز، وهى ترى ابنها (حُسين)، وهو يدفع باب الشقة، ويقف ب- (مُشيرة)، التى وضعت حقيبة كبيرة أمامها.

- خلاص تجوزتها؟! هو إحنا مالناش أى كرامة عندك ؟

حسين: ياما إهدى وأنا هافهمك، أمها طردتها ودى غلبانة ومالهش حد .

- أهدى إيه، بقالك مدة غايب واحنا قلقانين عليك، وفى النهاية، جاى ومعاك دى! خلاص يا بنى عليه العوض، أنا كنت حايشة عنك أبوك، اتصرفوا سوا، وقفت مُشيرة فى حالة لامبالاة وهى تنظر إلى سقف الغرفة فى ملل، بينما الأخرى تصب غضبها على ابنها

- مالمقيش غير دى، تتجوزها. هنا كشرت مُشيرة عن أنيائها:

- بقولك أيه يا ست أنت، أنا محترماكى علشان أنتِ قد أمى، لكن ماتغلطيش،
بدأ فاصل من الاشتباك بين فيروز ومشييرة، حيث مدت (فيروز يدها) وضربت (مُشييرة) على وجهها، قائلة:

- أمك، هو أنتِ بتحترمى أمك من الأساس، الست اشتكت منك، وحطت صوابعها فى الشق، من أيام ما كانت بتشتغل عندنا فى البيت الكبير زمان .

مشيرة: خلاص يا حاجة - الله يرحم أيام زمان. الحال من بعضه دلوقتى!!
فيروز: فضل ونعمة يا حبيبتى، المهم الرضا، وأنتِ وهو، ملعونين. ولا بترضوا بنصيبكم أبداً .

كانت مشاجرة النسوة قد اجتذبت عددًا كبيرًا من الجارات، منهن من جاء من أجل الفضول، والأغلب جاء لمحاولة تهدأة الأوضاع! ظن عاصم بأن مكروهاً حدث لزوجته، لكنه عرف ما حدث من ابنه، دخل وشهد المشاجرة بين (فيروز)، و(مشيرة)، بينما ابنه (حسين)، يقف بينهما كشبكة الكرة الطائرة، وهو يحاول ألا تعتدى إحداهما على الأخرى. دخل الأب إلى المنزل المُزدحم بالجيران فى حزم، والفضائح تذاق بث مُباشر على الهواء! فقال بحكمة:

- خلاص مش عاوز حد يتكلم، شكرًا يا جماعة تفضلوا، نجيلكم فى الخير. كان قلبه مُنقبضًا، عندما تذكر الحلم الذى حلم به فى الصباح الباكر، لقد وقع ابنه فى الشر، وما كان قد كان، وطرده قد يُزيد الطين بلة، الأمر لله، نظرله فى حزن قائلاً.

- دخلها غرفتك، وتعالى نقعد شوية على القهوة. أذعن له فى صمت بينما قال لمشييرة بحزم:

- صوتك ما يعلاش فى البيت ده، إحنا طول عمرنا محترمين فى الحنة، فلو سمحتي اللى حصل ده، مايتكررش تانى، ثم نظر إلى فيروز قائلاً

- وأنت يا حاجة، استهدى بالله مش عاوزين فضايح .. هزت فيروز رأسها في
ضجر، بينما أصبح الموقف لا يشى بخير.
جلس معه على المقهى صامتاً .

- شوف يا بنى، أنا خلاص تعبت منك، مش عاوز تتعلم حاجة، ولا عاوز
تبقى راجل .

- خلاص يا حاج ماعدش عندنا حاجة نبكى عليها، اشتغل أيه وأروح فين؟
- أنا كلمتلك محروس ابن عمك في الوكالة القديمة ! روح اشتغل معاه
وربنا يرزقك

- قصدك أشتغل عنده، محروس بقى صاحب الوكالة، أخذ كل حاجة
بتراب الفلوس!!

- محروس وقف معنا جامد في مرضى، وبعنا نصيبنا علشان نسد الديون،
لكن عارف، لو اشتغلت معاه، واتعلمت ممكن تبقى أكبر تاجر في البلد دى، في
ظرف خمس سنين بس، لسة اسمنا موجود في السوق، بس أنت شد حيلك،
وسيبك من سكة المخدرات، والطريق الأعوج اللى أنت ماشى فيه. رد عليه
بسخرية قائلاً:

- طيب ما أنت بتسرح بالقماش ده، بقالك خمس سنين، مابقتش ليه
أحسن تاجر في البلد، ورجعت تجارتك؟. ابتسم في انكسار:

عاصم: أنا يا بنى بسعى، وبعدين أنا راجل كبير، وطاقتى مش زى طاقتك!!
ومع ذلك بشتغل، والحمدلله، مش محتاج لحد.

حسين: بص يا حاج.. أنا ماليش في الجوده، الكفاح والعرق، واللقمة،
والكلام، اللى لا يودى ولا يجيب!!

وبعدين يعنى بعد ما كنا أصحاب الوكالة، عاوزنى أروح أشتغل صبي عند محروس ابن عمى .. ده مستحيل.

- عاوز أسألك سؤال يا حسين:

حسين: اتفضل.

تفتكر لو كنت سيبتلك نصيبك فى الوكالة كنت هاتحافظ عليها؟! صمت حسين، فاستطرد الشيخ، أبدأ - كنت هاتضيع كل حاجة على مزاجك؟! يابنى لازم تبدأ بنفسك . إحنا اللى عملنا الوكالة، واحنا باذن الله قادرين نرجعها .

- ده كلام يا حاج، مجرد كلام، ابتسم عاصم فى هدو قائلاً:

- أحب أشوف منك الفعل يا حسين، ياريت يابنى، هو أنا أكره. زفر (حسين)

فى غضب:

- عاوزنى أنا اللى أحارب، وأعمل كل حاجة لوحدى !!

- تحارب، خلاص يابنى، اللى حارب ربنا رحمه، واستشهد.

- هاترجع تانى لسيرة فضيل .. كل حاجة هو، كنت بتفضله على فى كل شىء.

- اثبت لى إنك أحسن منه فى أى حاجة. وأنا أشيلك على راسى. سخر

(حسين)، من كلمته مُتهكماً: قائلاً

- منافسة مع راجل ميت!!، منافسة عادلة فعلاً!. تجمدت ملامح عاصم،

بدا وجهه كقطعة من صلصال، جففتها الشمس قائلاً، وهو يميل للأمام، ويطلق

نظرة ساحقة فى عيني حسين، الذى انكمش رعباً:

- الله أعلم مين هو الميت، ومين هو الحى؟! المهم، مادمت تجوزت، دور على

شغلانة شريفة تصرف بيها على نفسك، و مراتك، ولا عاوز تعيش عالة عليها،

خصوصاً وهى بتشتغل. زفر حسين فى ضيق، بعد كلمته الأخيرة قائلاً:

- ربنا يسهل، قطع حوارهما، تجمهر مجموعة من رجال المقهى، وهم يحوقلون، نادى عليهم عاصم فى اهتمام .

- خير يا رجالة؟! فيه إيه؟

- الأستاذ فارس مٌحى، عمل حادثة ونقلوه إلى المشرحة. ارتبك الجميع على المقهى، بحث حسين عن والده ولكنه كان قد اختفى.

اقترب من ذلك المبنى القصير، ذا الدور الواحد والحديقة الكبيرة، الملاصق لمبنى المستشفى الضخم، وضع حقيبته، وارتدى ملابسه الرسمية، عفريته خضراء تنتهى بحداء بلاستيكي طويل له رقبة، وقفاز مطاطى خفيف، ومريولاً جلدياً يغطى معظم جسده، بدا كأحد جزازى المذيب، بمجرد دخوله فى ذلك الزى، لا يقترب أبداً من البوابة الكبيرة، ولا يحتك بالناس حرصاً على عدم إثارة فزعهم، يعرف أن مهنته هى الأكثر رعباً فى العالم!!، غالباً ما يبدأ عمله فى المساء، داخل ثلاجة الموتى، بسحب أحد الأدرج، ليخرج الضيف الذى بها ويكرمه، يعتبرهم ضيوفاً، يستضيفهم بضعة أيام، وقد تطول المدة لمن لا هوية له، صار يعرفهم ويعرفونه، لغة ما نمت بينهم، فى هذا المكان الذى تنكشف فيه الحقيقة وتسقط فيه كل الأقنعة.

- جهز الحالة الموجودة فى درج ١٢ يا عم عاصم، علشان هاتخرج بكرة .

عبارة روتينية سمعها (عاصم) آلاف المرات، من الدكتور سامح العدوى، كبير الأطباء الشرعيين فى الإسكندرية . خرج الدكتور سامح كالطاوس، ووراءه مساعده، رحلوا جميعاً، وجلس هو، بجوار الباب الحديدى هادئاً، فتح الباب ودخل إلى ثلاجة الموتى، ذلك الكيان الرهيب، المقسم إلى مجموعة من الأدرج، يحترم عاصم تلك الأدرج كثيراً، فهى عنده ليست مجرد أرقام، فبداخل كل درج، نهاية حكاية، بطلها ذلك المسكين، الذى بات لا حول له ولا قوة، نهاية كل شىء، حب، زواج، أسرة، منصب، أموال طائلة! صراعات على المناصب والمال!؟

وفي النهاية .. لا شيء؟ فتح درج رقم ١٢، لأول مرة يرى ذلك الهول المرسوم على وجهه، سحبه ووضع على الطاولة الكبيرة، وبمجرد أن مد يده، انقطعت الكهرباء!! جفل قليلاً، قبل أن يسعفه مولد الكهرباء الاحتياطي، خرج إلى الحديقة، وقف أمام الشباك الموجود بالدور الثاني، وهو ينادى على (عبودة) صديقه، (تومرجى معمل السموم، والطب الشرعى) الذى يسلم له معظم حالات الوفاة داخل المستشفى، والذى يساعده فى كثير من الأحيان بسبب مرض مساعده (جابر) مرضاً نفسياً، منعه من ممارسة هذا العمل، ومن المضحك أن عبودة كان جباناً، يخاف كثيراً من الجثث، لكنهم أجبروه على هذا العمل، نظراً لعدم انشغاله، كما أنهم أغروه بالمكافآت، التى يحتاجها للإنفاق على أسرته الفقيرة.

- يا عبودة، يا عبودة. أطل رجل ثلاثينى، قصير نحيل، أبيض البشرة دقيق الوجه، طيب القسما من غرفة فى الدور الثانى، قائلاً:
- أيوة يا عم عاصم، أنا نازل حالياً.

كان عاصم متوتراً، على الرغم من خبرته الطويلة التى تجاوزت العشر سنوات، جهز فيها، وساعد فى تشريح آلاف الجثث، لكنه يعرف هذا الشخص جيداً، الأستاذ (فارس محى) جاره فى الحارة، وزميله المشاغب فى المقهى، الحادث شوه جسده ولم يجعله نظراً كما كان، إزرق لونه وعبس وجهه .

بسم الله الرحمن الرحيم (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ

رُزُقًا) (٤)

كان يستغفر كثيراً، وهو يسمع كلماته تتردد فى أذنه:

ما فائدة الصلاة، ماهذه التخاريف، أنا لا أومن بالغيبيات والخرافات!! الأديان موجودة علشان تعطلنا، أستغفر الله العظيم، لعلك عرفت فائدة كل

هذا، فالكون لا يسير دون إله ينظمه. كان يتكلم معه كما كان يكلمه على المقهى، لقد صار صديقاً للجثث، يكلمهم ويشكو إليهم، ويعرف منهم ما حدث، صارت تلك عادته، منذ أن حضر غسل ابنه الشهيد بنفسه لقد صار يتكلم معهم ويكلمونه بطريقة ما !

- الله يسامحك يا أستاذ فارس ويغفرلك، ربنا موجود وما بينساش حد، أنا عارف أنك تعبان وخايف دلوقتي، يا ما قلتلك، لكن خلاص بقى ربنا يرحمك، سمع طرقات قوية على الباب الخارجى، تبعه صوت رجالى رفيع

- إفتح يا عم عاصم. اتجه عاصم بخطوات هادئة نحو الباب الخارجى، فتح الباب ليجد (عبودة) مُتسمراً أمام الباب، ووجه شاحب تماماً، ابتسم له عاصم ابتسامة مرح، تتناقى مع رهبة المكان، يعلم أنه جبان، ويخاف من الموتى، لكنه يحبه كابنه، لطيبة قلبه وأمانته، فهو لا يُفشى سرّاً أبداً، كما أنه مصدر ضحك هائل بالنسبة إليه، وكثيراً ما يجلس معه، يشربان الشاي فى حديقة المشرحة، يفسح له عاصم للدخول.

- مالك يا عبودة، واقف كدة ليه ما تدخل، زفر عبودة، آخر نفس من سيجارته، قبل أن يدوسها بقدمه، قائلاً بضم مرتعش

- اللى يسمع كدة، يقول: إنك عازمنى فى صالون بيتكم؟! والنبي ياعم عاصم، قولى عاوزنى فى إيه، وخالى الليلة دى تعدى على خي، جذبه عاصم من يده وغلق الباب، وهو مُستغرق فى الضحك. قائلاً

- يعنى ها كون عاوزك فى إيه؟! فى حالة عايزك تساعدنى فيها، اكفهر وجهه، وحوقل قائلاً

- يادى النيلة. يا عم أنا قلتلك، جتى بتتلبش، من حالاتك الزفت دى! إشمعنا أنا؟، ابتسم عاصم قائلاً:

- أعمل إيه، ربنا يشفيك يا (جابر)، حوجتني للى يسوا واللى ما يسواش؟! انظر له عبودة في غضب، فازداد ضحكًا

- يشفيه من إيه يا عم الحاج، هو كان عنده برد، ولا حتى سُكر، ده اتجنن... إتجنن، وأنت اللى جننته بعفارتك دى، وشكلى كدة هانحصلوه، حسبى الله ونعم الوكيل فى الدكتور سامح، وفيك أنت كمان، علشان أنا مش قادر على الشغلانة دى، غيرش لقمة العيش بنت ال... قالها، وهو يخبط يده فى رأسه بطريقة هستيرية، أصابت عاصم بنوبة ضحك، كان يحبه كثيرًا ويشفق على حاله، فهو دائمًا ما يكسرجو الرتابة والحزن فى هذا المكان، بحركاته الخفيفة المضطربة، ويهدأ بعد أول رشفة من كوب الشاي فى الحديقة، يتسامران ويتضحكان، وكأن شيئًا لم يكن. قال له عاصم

- بقالك سنة على الحال ده، كل مرة، بتعمل الهليلة دى، وبتشتغل بعدها، وبتبقى زى الفل، وبعدين ده رزق وربنا باعته لعمالك يا حمار! صمت (عبودة) بعدها، وكست الجدية ملامح عاصم قائلاً:

- سعى الله، وتعالى ورايا يهدؤ، وما تعملش حاجة من غير ما قولك، كالعادة. ابتلع عبودة لعباه بصعوبة، وكست الجدية وجهه وهو يتبع عاصم يهدؤ. كانت جثة (فارس محى) ممددة على الطاولة الكبيرة. أغمض عبودة عينيه، من بشاعة المنظر، جسدٌ ممزق تمامًا، قطع طولى مخيف من الصدر إلى تجويف البطن، قطوع طولية فى الوجه، لاحظ عبودة تلك الأسيخ الحديدية الملوثة بالدماء، والمُلْقاه على الأرض فى أحد الأركان، يبدو أنه تم استخراجها من تلك الجثة البائسة، ارتدى عاصم مريوله، وقفازه، وبجواره أدوات الجراحة، تابع عبودة مهارة عاصم وسرعته، وهو يقوم بخياطة الجروح الكبيرة، بسرعة ومهارة عالية، صارت جثة الرجل تشبه تلك الدمية التى خاطتها زوجته لابنته (سحر)، تم خياطة بطنه من المنتصف، بخيط أسود عريض، كما نالت الخياطات فمه

من الجانبين، فبدأ وكأنه يضحك ضحكة سوداء مرعبة، فهم بخبرته، أن هذه، هي عملية (التقفيل) الذي يقوم بها فني التشريح، حتى لا تنزف الجثة أثناء التغليف والتكفين. أنهى عملية التقفيل، فلت سؤال برئ من (عبودة):

- إيه ده، هو متهدل كدة ليه، وإيه الأسيخ دي؟ حدجه عاصم بنظرة غاضبة أخرسته تمامًا، يعلم أنه لا يتكلم أبدًا، وقت الشغل! إلا فيما هو مهم. أعطى عبودة ملابس بلاستيكية، تحميه من البلل، فلبسها عبودة، أهال الماء عليه، ناطقًا باسم الله ومُتمتًا ببعض الآيات، كان يشعر بالجسد يتصلب، مع كل آية يقرأها، ورعشات خفيفة، صادرة من المصباح الفلوريسنت الكبير، مع أزيز مزعج، كان الأزيز يزداد، وجثة الرجل تهتز بعنف، وكأنما تم وضعه على شاحن!! حاول أن يستجمع قواه، بينما عبودة يشهق في فزع، وهو يرى الرجل يهتز بقوة، ومصباح الفلوريسنت الذي يأز في غضب، لم يجرؤ على الكلام، على الرغم أنه شعر بتوتر عاصم، الذي أكمل عمله في عناد وهو ينهى غسل الجزء الأيمن، وبدأ يقلبه على الجانب الأيسر، بدأ بكتفه. نظرة واحدة على الكتف جعلته يصرخ:

- ما هذا!..، وشم دائري كبير، بداخله رأس تيس ضخم له قرون حادة، ونظرة مغناطيسية مخيفة!، زاد اهتزاز الرجل، وسمع الرجلان صوتًا غليظًا قادمًا من جثة الرجل، يُلقى بعض الكلمات المنظمة غير المفهومة، بدت وكأنها تعاويد أوطلاسم. عاد عاصم إلى الوراء وهو يصرخ بقوة

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، سمع فرقعة قوية قادمة من سقف الغرفة، التي أظلمت بعدها تمامًا، شعر بسقوط عنيف، لجسد على الأرض، بالطبع لقد كان جسد عبودة الذي لم يتحمل الصدمة.

عبودة، قوم يا عبودة

نهض عبودة في فزع قائلاً، وهويتلفت يميناً ويساراً:

- فيه إيه ؟ إيه الى حصل ؟ الراجل كان بيتكلم! هدا عاصم من روعه، وهو

يقول له:

- أنت بخير، بس خليك هنا أوعى تتحرك.

جذبه عبودة من ذراعه في ذعر قائلاً

- لأما تسبينيش هنا، نظرله في حزم:

- عشر دقائق بس، أخلص، وارجعلك .

جلس عبودة في حديقة المشرحة، يلتقط أنفاسه، ويشرب الشاي، بعدما

شاهد بعينه الرجل يتكلم، بينما عاد عاصم بشجاعة الانتحاري إلى الداخل

وهو يقول .

- استرها يارب، نفسك معايا يا شيخ هريدى، أول مرة أتعامل مع حالة

زى دى ؟! يالله ما هذه الليلة العصبية!!، انفجر المصباح، وانكسر صنوبر

المياة، وكاد (عبودة) التمرجى أن يقف قلبه رعباً، عاد بخبرته وأضاء المصباح

الاحتياطي، بالطبع لم يستجب الأستاذ (فارس) للغسل الشرعى، فلقد كاد

جسده يصبح كقطعة من حجر، بمجرد ذكر الله !! هؤلاء القوم لهم طقوسهم،

التقط أنفاسه في رعب، ثم عاد ووقف أمام وجه الأستاذ (فارس) الذى كان

يخرج صوتًا غليظًا. تغير وجه عاصم فجأة، وظهرت عليه بعض إمارات الجنون، وهو يضع يده على رأس الجثة، ويلقى ببضع كلماتٍ غير مفهومة، أخذ يتمتم بها حتى هدأت ثم قال وهو يحدثها:

- أنا هنا في مهمة، سيبنى أخلصها، وأخرج راجلك من هنا!!، بدون أذى، بدون أذى!!

علمته التجارب أن يحترم تلك الحالات الخاصة، ولا يزدريها، ولا يفرض عليها منطقها، بل يتحرك هو وفق منطقها!! فى الآن قد وكل أمرها إلى القاضى الأعظم!، وليس المطلوب منه سوى أن يحافظ على ستر الله عليها. خاصة أولئك الذين يُخفون أمرهم بين قومهم، ويتحولون فى السر. سارت الأمور بعدها بهدوء. أنهى عمله، ووضع الأستاذ (فارس) مرة أخرى داخل درج ١٢، انتظارًا لتسليمه غدًا، تأكد أن غدًا، سيكون يومًا عصيبًا على الرجال الذين سيتسلمون جثته، لكنه لا يمكن أن يخبرهم، فهم لا يعرفون طبيعة عمله. خرج إلى الحديقة، فوجد (عبودة) يدخن وهو يضرب كفاً بكف:

- الله يخربيت اليوم اللي عرفتك فيه !! أيه اللي شفته ده .

تجاهل عاصم كلمات عبودة وقال له فى هدوء، وهو يشير إلى البراد الأسود الموضوع فوق راكبة النار:

- صبلى كباية شاي! كاد عبودة أن يُجن من برود أعصاب ذلك الرجل، لقد رأى الموت بعينيه منذ لحظات، ومع ذلك يطلب كوبًا من الشاي، وكأنه فى نُزهة! - ولك نفس تشرب شاي كمان، والله أنا ندمان على صحويتك إلى هاتربيلى الخفيف؟ أيه الأسياخ الحديد دى، وأيّه النجمة الكبيرة اللي فيها الجدى ده؟؟ وازاى الراجل تكلم كدة؟! كان عاصم يحتسى الشاي فى هدوء قائلاً بجدية وهو ينظر نظرة مُخيفة فى عين عبودة .

- أنت عارف السرده لوطلع براك ها يحصل آيه، نظرله عبودة مُنكمشًا في فزع، فأجاب عاصم بحزم:

- حياتك كلها هتتشقلب!!، علشان كدة أنسى أى حاجة شفتها النهاردة. صمت عبودة في خوف قائلاً:

- طيب أشرحلى بس، أفهم آيه أسياخ الحديد دى؟

عاصم: الراجل ده جارى، وعمل حادثة عربية شايلة أسياخ حديد، دخلت في جسمه!

عبودة: طيب آيه الختم الفظيع ده؟ نظرله عاصم في حزنٍ قائلاً

- ده ختم الشيطان!! شفته على ظهر واحد من البجارة من خمس عشرة سنة.

عبودة: طيب والصوت ابتسم عاصم بجنون، قائلاً:

- ده صوت الشيطان اللى لابسه، بيعترض على الغسل الشرعى!! صرخ عبودة في فزع وجرى من الحديقة مهرولاً، وخرج من الباب، وهو يسبه، بينما عاصم يضحك كالأطفال. أنهى كوب الشاي، وهو يتنأب في تعبٍ واضح، تكوم على سريرهِ الصغير داخل الغرفة الصغيرة، في نهاية الحديقة، فرآه واقفاً أمامه. كان فارس يسير عارياً على ممشى من شوك يمزق قدميه، بينما هو ومرزوق وخميس الحلوانى يسرون في الاتجاه الآخر، على ريجان أخضر. كانت حلوقهم جافة - تكاد تتمزق من حرارة الشمس، هطل المطر بشدة، ففتحوا أفواههم، كانت كل قطرة مطر تسقط، تملأهم وترويمهم حتى شبعوا، بينما فارس مولياً ظهره، عارياً كما ولدته أمه، وعلى ظهره وشم كبير لنجمة سداسية ضخمة يتوسطها "تيس"، له نظرة مغناطيسية رهيبة، كان يسير على الممشى الشوكى دون أن يستمع لنداءات رفاق الحى المتكررة، وهم يحاولون إرشاده للطريق العكسى الأكثر رحابة وظلاً، ظل سائراً والطريق يزداد حرارة حتى وقف أمام

ربوة عالية، والعرق الغزير ينفجر من جسده، سمع نفيراً عميقاً قادمًا من خلف الربوة، تبعه مجموعة الجنود الأقوياء مفتولى العضلات، لهم وجه يقترب من وجوه الحيوانات!!، وهم يصطفون احترامًا لدخول ذلك الكيان المُغطى بغطاء أسود حريرى كبير، وله غطاء رأس، وكأنه "بُرنس" ملاكم وزن ثقيل. و قف (فارس محى) مشدوهُمًا في إحترام لذلك المُغطى بالبُرنس، وانتظر حتى انطلق النفير الثانى، تبعه نفس الصوت، الذى كان بداخل المشرحة، أراح عنه البرنس، فَخَّرَ الجنود سُجَّدًا، بينما سجد (فارس محى) في إحترام، وقف هو هناك، جسد قوى كأجساد المصارعين، ورأس "تيس" رهيب يثغو بصوت مخيف كالذى سمعه (عاصم) فوق منضدة المشرحة، كان باقى الرجال، قد استراحوا تحت الشجرة الوارفة، يشربون ماء باردًا من الجدول، وينظرون لذلك المخيف فى ترقب، لم يستمر وقوفه بعزة فوق الربوة سوى ثوانٍ معدودة، بعدها اندفع سائل بركانى رهيب، أصفر اللون مائل للبرتقالى من فوق قمة الجبل؛ ليغمر الجهات الأربع، ويغرق الوادى والرجال، بينما التيس الضخم يحاول تفاديها، والرجال يصرخون من حوله ومعهم (فارس)، ويحاولون التشبث بملابسه، وهو يدفعهم بيديه، ويلقى بهم فى وادى النيران، بينما الرجال يتابعون ذلك المشهد المرعب، تحت الشجرة الوارفة.

استيقظ عاصم خائفًا . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ربنا يعافينا من هذا المصير، انتبه على صوت جلبة بالخارج، لكنه تراجع عندما رأى (شلة المقهى) وأبناء الحى، ينتظرون استلام جثة (فارس). كم هم طيبون!! لقد قرروا أن يستروا عيبه، على الرغم من غضبهم منه، ومن كلماته التى كانت تبعث على السقم. سمع صديقه بيومى الطيب يقول .

- لا ياجدعان حرام عليكم - ده فى البطاقة مسلم، ولازم يتستر، ويكرم، والباقى ده مش بتاعنا، ده بتاع ربنا . ابتسم وهو جالس على الكرسى الخشبى بالداخل .

- لك الله يا بيومى، أنت طيب القلب وخير. ولذلك تستحق ما رأيتك لك.
اقتربت سيارة إسعاف سوداء، ضخمة مكتوب عليها أرقام أجنبية، عبرت
بظهرها بوابة المشرحة الحديدية، ثم استقرت حتى يتمكن العمال من وضع،
جثمان (فارس محى بدخلها)، تابعها عاصم، متوارياً عن الأنظار يعلق، يعرف هو
كل السيارات التي تعمل في هذا المجال، بل ويعرف معظم سائقها بحكم عمله،
لكن تلك السيارة بدت غريبة، بلونها الأسود اللامع، وشعارها الفضى الخارجى،
وأرقامها الأجنبية!! لاحظ وجود أربعة رجال بداخلها، يرتدون ملابس سوداء
تماماً، ويغطون وجوههم بنظارات سوداء، بدت ملابس رسمية وكأنهم ينتمون
إلى جهة ما؟!، وبمجرد أن دعاهم زميله (محسن)، لاستلام الجثة هبطوا من
السيارة، فى نظام، بينما شق عاصم فى فزع، لقد رأهم بالأمس فى الحلم، إنهم
حراس ذلك "التيس" الرهيب!! بل العلامة الفضية على السيارة، قريبة من
الختم الذى كان على كتف (فارس). حاول بيومى ركوب السيارة إلا أن الرجال
أزاحوه بغلظة دون أن يتكلم أحدهم، فأعطى بيومى للسائق، العنوان فى ورقة،
وهو يقول له:

- هانصلوا عليه الظهر فى العنوان ده، مسجد الإخلاص بحارة الغول!! أخذ
السائق منه الورقة دون أن يتكلم وهو يبتسم ابتسامة مخيفة!!

انقضت صلاة الظهر، وبعدها صلاة العصر، والسيارة لم تظهر. وقف
الرجال يضربون كفاً بكف، بينما عاصم كان يقف بينهم مبتسماً، هو الوحيد
الذى كان يعلم أن السيارة لن تأتى إلى هنا أبداً. وبالطبع كان لغز اختفاء الأستاذ
فارس مثير حديث الرجال على مقهى بيومى، بل فى حارة الغول بأسرها.

٢ حارة الغول .

كانت (فيروز)، تحيك ملابسها على ماكينة الخياطة السنجر العتيقة، بينما جلست تستمع لشكوى، (نجوى) زوجة بيومي صاحب المقهى، وهي تبكي قائلة:
- ده هددنى يا حاجة إنه ها يتجوز بنت مفعوصة علشان الخلفة !! سيع سنين وأنا مستحملاه، لما كان حته صبي بيومية فى نفس القهوة، ودلوقتى عاوز يرمىنى ويتجوز لما بقى صاحبها . كان عاصم يجلس فى غرفته يستمع لها وهو يقرأ. استعداد للخروج إلى الشارع لكنها استوقفته عند الباب قائلة كعادتها فى غضبها على بنات الحارة التى اعتبرتهن كبناتها تماماً

- بقولك أيه يا عاصم، انزل لِم، بيومي دلوقتى، لحسن وكتاب الله أنزل أهدله فى الشارع، وافرج عليه الناس، يتجوز على البت ده بتاع أيه، خليم يروحوا لحكيم وربنا يسهل !! ابتسم عاصم فى وجهها قائلاً.

- لا وعلى أيه .. بلاش فضايح، أنا هاكلمه بينى وبينه، فتح الباب ليجد (حميدة أبو النور)، أم (مشيرة) تقف فى حالة انكسار أمام الباب، حيثه فى وهن، بادلها التحية ونزل إلى المقهى . وجد بيومي شاردًا وهو يدخن الشيشة، ويتابع التليفزيون فى ملل، جلس بجواره صامتًا . نظرله بيومي فى حزن قائلاً

- عارف إنها طلعت للحاجة، وعملت مناحة، بس والنبي يا عم عاصم، أنا مش ناقص . ابتسم عاصم قائلاً:

- بتسبب علشان ما تتهدلش؟! طيب احمد ربنا دى (الحاجة فيروز)، كانت نزلة لك هنا في القهوة، وكانت ها تبعزقك قدام الناس. أنت عارفها، هي خلاص اعتبرت نفسها أمهم، وهما كمان اعتبروها كدة، فهمى بتقلك لم نفسك يا بيومى، وإياك تتجوز على البننت! رد بيومى بحزن:

- ماحدث حاسس بوجيعتى، أنا تعبت ونفسى فى عيل.

عاصم: تكلمنا قبل كده، والتحاليل بتقول إنكم كويسين، يبقى تصبر، لأن الخلفة بيد الله، والحل مش إنك تتجوز تانى، لوربنا مش رايد، مش ها تخلف. بيومى: طيب أعمل أيه بس .

عاصم: روح للحكيم وخذ الأدوية، وهاقولك على حاجة تتوزن بميزان من ذهب!! فتح بيومى أذنيه قائلاً:
- أيه؟!

تناول عاصم قلمًا رصاصًا من فوق المكتب، الذى يجلس عليه بيومى فى المقهى، وكتب على الحائط الذى بجواره
(رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)^(٥)
ثم قال له

- الدعاء ده لسيدنا زكريا لما كبر، وكان نفسه فى غلام من صلبه، عارف مع الدواء والسعى، ادع كتير بالدعاء ده، وإن شاء الله مش ها يمرعاهم إلا وابنتك ها يبقى فى حضنك !!

فى نفس التوقيت كانت (حميدة أبو النور) تقف على باب الحاجة فيروز، وعلامات الخزي على وجهها، رأتها نجوى زوجة بيومى، فكفكت دموعها وهمت بالانصراف .

(5) سورة الأنبياء، آية : 89

- مساء الخير يا ست الحاجة، نطقتها حميدة بانكسار:

رسمت فيروز علامات الغضب على وجهها وهي تقول .

- وليكي عين توريني وشك، بعد اللي عملته بنتك . كانت تُعطي لها ظهرها،

لكنها بعد دقيقة سمعت نهباتها القادمة من الباب، تلفتت فيروز فوجدتها تبكي بحرقة، وهي تستند على الباب في وهن. كم تُشفق عليها، فهذه السيدة المسكينة لم تريومًا حلواً في حياتها الطويلة البائسة؟! لاحظت (فيروز) شُحوب وجه (حميدة)، ونحول جسدها، وكأن هموم العالم قد تكومت فوق ظهرها المحنى. لم تستطع فيروز إكمال دور القسوة، الذي رسمته على حميدة صديقتها العزيزة وكاتمة أسرارها. لم تتمكن الفوارق الطبقيّة من حجب العلاقة الطيبة بينهما، حيث إنهما صديقتان مُنذ أمدٍ بعيد. احتضنتها فيروز وهي تبكي قائلة .

- ادخلي، واقفلي الباب، وما تعمليش في نفسك كده ... ربنا موجود.

- وتفتكري، ربنا هايسامحني، على اللي أنا عملته؟!!

فيروز: لا إله إلا الله .. هو أنتِ عملتي إيه بس؟!، سقطت على يديها تقبلها

فسحبتهما (فيروز) سريعاً، فأكملت (حميدة):

- سامحيني، والله العظيم ما كنت أعرف حاجة، أنا كنت عند أختي المريضة

في بحرى، ورجعت لجيتها عملت كل حاجة .. أنا خلفت بنت مجرمة، وما عرفتش أربيهما، وخايفة ربنا ما يسامحنيش. تهمدت فيروز في أسى، فهي الأخرى، تُشاركها نفس الهم، فلقد رزقها الله بولد عاق لم تُحسن تربيته، واختار الصالح للقائه ..إنها حكّمته وحده.

- وحدى الله يا حميدة، وأنتِ ذنّبك أيه. مين فينا له يد في خلفته، وبعدين

الحال من بعضه يا أختي؟!!

هدأت حميدة قليلاً وهي تقول:

- آه، إتلم المتعوس على خايب الرجا. صممت فيروز على مضض، حاولت أن

تغير مجرى الحديث، فقالت لها:

- بقولك أيه ... عندي طبق كشك صعيدى، وفراخ، يستاهلوا بقك. كانت فيروز قد اعتادت على تقديم الطعام لها، كلما زارتها. فبى تعتبره نوعاً من الدعم، غير الجارح لمشاعرها كسيدة فقيرة، عفيفة النفس، إلا أنها أبت قائلة:

- نفسى أشرب فنجان جهوة من يدك، علشان على صدرى جبل. وجلت فيروز وهى تشعل السربتاية قائلة:

- خيريا حميدة ... مالك يا أختى، ولا بسة أسود ليه .

- والله ما أنا عارفة أقولك تلفتت يميناً ويساراً قائلة:

- فى حد هنه. هزت فيروز رأسها فى قلق، كلهم نزلوا، وبنتك الموكوسة راحت

شغلها

أخرجت حميدة من صدرها، مظروفاً حكومياً بنى اللون، يحتوى أوراقاً،

ثم قالت لفيروز:

- حاسة إنى ها يجرالى حاجة الفترة الجاية، شيلى ده عندك، إخفيه، واونى

يقع فى يد البننت (مشيرة). أو مات فيروز فى رعب وهى تقول .

- خير يارب! المظروف ده فيه أيه؟

أنا ها حكيك على كل حاجة. استمرت تحكى وفيروز تكاد يُغشى عليها من

الفرع، فارت قهوتها، وأغرقت السربتاية بينما هى تستمع فقط، وفمها مفتوح

من الدهشة، والمظروف الأصفر أمامها على المنضدة. لم ينتهيا على الباب

الذى فُتح سريعاً بمفتاح، فاعتدلت حميدة فى جلستها، بينما أخفت (فيروز)

المظروف فى صدرها، لمحتها (مُشيرة) تفعل ذلك على الرغم من سرعتها. فوقفت

تنظر إليهما فى غضب، بينما كادت (حميدة) تسقط مغشياً عليها.

جلست فيروز تنظر لعاصم في شغف، بعدما عاد من المقهى مساء، شغلتها مشكلة (نجوى) وسر حميدة، عن الجلوس معه طوال اليوم، كانت كطفلة فضولية تريد أن تدخل عالمًا غريبًا، يشبه صندوق الدُّنيا^(٦)

تناولت ملابس الشغل التي يُخفيها بداخل حقيبة ظهره، ووضعتها على الفور، في مسحوق غسيل أزرق اللون حتى لا يظهر منها شيء، تركته يستلقى بعدما أعدت له وجبته المفضلة، قطعة من الجبن الأبيض مغموسة في زيت الزيتون، ورغيف من العيش الأسمر، لقد صارت تلك وجبته منذ خمسة عشرة عامًا، بعد وفاة فضيل، والتحاقه بوظيفة عامل بمشرفة كوم الدكة، تلك الوظيفة التي خباها عن كل المحيطين به، ماعدا زوجته وصديقه (فؤاد

فواز)، أملًا في أن يحيا حياةً طبيعية، ولا يُصبح مادة تلوّكها الألسنة على المقاهي وفي جلسات السمر!! الموت هو سر من أسرار الله في الكون، ولذلك وجب التعامل معه بحذرٍ شديد!! تناول عاصم طعامه، عدة لقيمات بسيطة ثم حمد الله، وجلس يتناول الشاي في استمتاع، بينما هي تتحرق شوقًا لكي يحكي لها شيئًا. سألتها في هدوء:

(6) صندوق الدُّنيا: آلة بدائية كانت تستخدم في نهايات القرن التاسع عشر، قبل اختراع السينما، حيث كانت تعرض مجموعة من الصور بشكل دائري للأطفال، وأحيانًا للكبار حيث كان يمكن للطفل من التعرف على قصص تراثية، مثل أبوزيد الهلال، والزنتاتي خليفة، والظاهر بيبرس، فكانت تنقلهم إلى دُنيا مختلفة في وقت لم يكن فيه إنترنت أو تليفزيون أو سينما، وكانت هي البداية لاختراع شاشات السينما وغيرها من وسائل التكنولوجيا الحديثة.

- ابنك ومراته لسة برة؟ بادرتة بسؤالٍ آخر، وكأنها لم تسمعه:

- شُفته؟! رسم علامات البلاهة على وجهه قائلاً:

- شُفت مين؟!، ابتسمت في حُبث قائلة:

- بلاش لؤم عليّ يا أبو فضيل؟ (تتينا) مراته قالت لي، إن الرجالة راحوا يجيبوه من كوم الدكة، والغريب إن العربية اللي جابته اختفت ومارحتش الجامع، وهي كمان اختفت! مادام راح كوم الدكة تبقى شُفته!! كم يُحب طفولتها، أسئلتها مُزعجة، وتحمل فضول الأطفال في بعض الأحيان، إلا أنه يتحملها كما تحملته في شبابه، فهو أيضاً لم يكن ملاكاً، وهي كانت تعلم تردده على حانة (سبيد فاير)، وعشقه (لأماليا) الجرجية. كم يُقدر حُب الناس لها، وخاصةً سيدات المنطقة، فهي تُقدم العون للجميع ولا تُعادي أحداً، رئيسة أمناء الحارة، وبنك التسليف، ومسئولة الجمعيات الأولى، طوال اليوم تعاون هذه، وتُقرض هذه. وتحمل أطفال إحداهن، أو تجمع حملة كبيرة للتبرعات لزواج فلانة، أو عملية جراحية لزوج علانة.

شاغها قائلاً:

ما هو طول ما أنت عاملة فيها شيخة حارة، ورئيسة جمعية خيرية. مش هاترتاحي أبداً، ابتسمت في سعادة قائلة:

- جمعية خيرية؟! ياه، هو أنا أطول، أنت عارف كم الخير، والسعادة من وراء مشروع زي ده. ضحك قائلاً:

- مشروع!! فقطبت حاجبها:

- طبعاً مشروع!! أعظم تجارة، هي التجارة مع الله. ابتسم مُتفهماً، وظن أنه قد هرب من سؤالها إلا أنها عادت تُحاصره مرةً أخرى قائلة:

- ما قولتيش، شفته؟! كان وشه عامل إزاي؟! اکتست ملامح وجهه بالجدية

قائلاً:

- إشمعنى يعنى المرة دى، بتلجى فى السؤال كده !؟

- علشان الأستاذ فارس ده بالذات، كانوا بيقولوا عنه، إنه والعياذ بالله

كاف.... قاطعها قائلًا

- وحدى الله يا أم فضيل ده فى دارالحق، واذكروا محاسن موتاكم .

فيروز: بس كل الناس كانت عارفاه، وأنت اشتكيت قبل كده من الحاجات،

اللى كان بيقولها، فكنت عاوزه أعرف؟

عاصم: لا إله إلا الله، تعرفى أيه بالظبط؟!

فيروز: بيبقى شكله إزاي، وها يعمل إيه لما يقابل الموت (وجهًا لوجه)،

ردد عقله الكلمة فى طنين مُزعج كررها عشرات المرات.. «وجهًا لوجه». شريط

سينما سريع مرعليه، وهو يسحب جسده الأزرق التالف من ثلاجة الموتى

العميقة، وهو يرى علامات الفزع والخزى على وجهه، جسده المتخشب، وتلك

الأحداث المفزعة، وذلك التيس الغاضب المرسوم على كتفيه، وهؤلاء الرجال

الذين تسلموا جثته، وذهبوا بها إلى مكانٍ مجهول! تسارعت دقات قلبه، وأغمض

عينيه فى ألم، وارتعش جسده، شعرت به فندمت على فعلتها الصبيانية، تنتابه

أحياناً نوبة رعشة غامضة وتعرق، نوبة هلع، تحترمها جدًّا، وتعتبرها رد فعل

طبيعى، عما يُلاقيه فى عمله من أهوال، تعلم أنه عندما يدخل فى تلك النوبة، لا

يجب أن تُكلمه، دقائق فقط ويهدأ . وقفت صامتة، وهى تمد يدها بكوب الماء،

تراقب اختلاجات وجهه وجسده، حتى هدأ. ندت منها إيماءة اعتذار خفيفة

- سامحنى يا أبو فضيل، والله ما كان قصدى، نظرلها فى وداعة قائلًا:

- أنتِ فاكرانى بشتغل الشغلانة دى ليه؟ نظرت له فى حيرة:

- والله أنا بسأل نفسى السؤال ده كل يوم ؟ أنا مُتأكدة إنك مستور و

الحمدلله!! . قاطعها على عجل.

- مستور، علشان الشغلانة دى بس .. ربنا ساترنى، خلاص بقيت أنا وهُما

حاجة واحدة، بيكلموني واكلمهم، بسمع منهم، وبعذرهم أو بلومهم، بعرف علاماتهم، وبخاف عليهم أحياناً من مصيرهم، وبخاف على نفسى، أو يتمنى لنفسى مصير حد فيهم!! كانت (فيروز) تنكمش على أريكتها فزعاً، كلما تكلم عن ضيوفه الموتى فى المشرحة، وكأنه يتحدث عن أصدقاء حميمين يعرفهم منذ سنوات. لم يترك عمله هذا منذ أن غسل ابنه الحبيب الأقرب إلى قلبه (فضيل)، لم يتوقف أبداً، كانت تشعر أحياناً أن مساً من الجنون يُصيبه وهو يتحدث عنهم، تتعجب لسلوكه الهادئ وكلماته القليلة، هل تعلم ذلك من الموت؟! لا تدرى؟! تلاحظ قطعة الجبن التى يأكل منها عدة لُقيمات، ثم تختفى بعد ذلك. دون أن تتأكد من أكلها! لا تنكر أنها قد صارت تخاف من تصرفاته قليلاً، فأحياناً يبدو كجثة تسير على الأرض، وأحياناً أخرى ينبض بالحياة، ويذهب إلى مقهى (بيومى) مع صُحبته القديمة، التى تعتبر مقهى بيومى، الحجرة الإضافية بمنزل كل واحدٍ منهم. تركته يسترسل حتى أنهى كلماته بجملته التى يُكررها كثيراً:

- اللهم إرحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه ... الستريا أم فضيل ... السترهو
أهم حاجة فى الوجود، تؤمن وراءه الدعاء ثم (نُمصص) شفيتها فى تأثروتهز
رأسها، مؤمنةً على كلامه، أناها دخل أقرأ شوية، قبل ما نام .

(من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك) ابن
عطاء الله السكندرى، غمغم قائلًا:

- الحمدلله .

لم يكمل القراءة، أزعجته عدة طرقات مُتتابعة على الباب، تبعها صُراخ
مُتقطع لامرأة وخلفها ضجيج رجالى خشن .

- إلحقينى يا حاجة (فيروز) ... إلحقنى يا عم (عاصم) . ميزت (فيروز) صوت
جارتها (نورا) والى تعتبرها كابنتها، امرأة أربيعينية، بيضاء كالقمر، بجسدها
امتلاء مُحبيب، ولها أصول ريفية. تظهر بوضوح فى لكتنها، التى لم تتخلص

منها، رغم نزوحها إلى الإسكندرية مُنذ أكثر من رُبع قرن. فتحت (فيروز) الباب مُنزعة، فاندفعت نورا تعبر الباب سريعًا، وتقف خلفها مُحتمية من شيء ما. قالت (فيروز) في فزع:

- فيه أيه يابنت يا (نورا) !

- الحقيتي يا خالتي، خميس عاوز يضربني! ظهر خميس بالفعل وهو يُمسك عصا غليظة، كان غاضبًا:

- بتفضحيني يا بنت الكلب، والله لفشفس عظمك. حاول أن يضرب نورا بالعصاة، بعدما دخل إلى عقر الدار، دون استئذان. كان الشيخ عاصم يجلس في غرفته، وهو يعرف أن زوجته ستتصرف في تلك المُشكلة العابرة، جذبت الحاجة فيروز (خميس) من قميصه قائلةً:

- وكمان عاوز تضربها في بيتي يا ولا يا نطع! هات العصاية دي ولم نفسك، ضربته في كتفه ضربة خفيفة فتراجع إلى الوراء مُنكسرًا، وهو يرمى بالعصا أرضًا:

- ححك على يا خالتي، أصل بنت الكلب دي فورت دى ..

- بتقول على الشيخ متولى، الراجل اللي حفظك القرآن زمان «كلب»، إخص عليك وعلى قلة أدبك.

صمت خميس، بينما جلست نورا على طاولة الصالة المُستديرة والمُغطاة بمفرش أبيض، منقوش عليه ورود كبيرة، خبأت رأسها بين كفيها، وهي تبكي قائلة:

- ليه كل ده؟ علشان، قُلْت لك فرح البننت قرب، وعاوزين فلوس التنجيد، (نبوية) حماتها كلت وشى .

- شوفتوا تانى، أهي دايرة تفضحني، والله بس أما أخلص من الجوازة دى، وأنا ها رميكي رمية الكلاب.

فيروز: ما تخرس يا يولا يا خميس؟! كل العركة دي علشان التنجيد!!

خميس: وهو ده شوية يا خالتي. خرج عاصم من غرفته قائلاً:

- تعالى يا خميس. جذبته من ذراعه، وفتح الباب قائلاً:

- أنا وخميس ها نقعدوا شوية على القهوة. تهلتك أسارير (فيروز)، عندما رأت عاصم، قد خرج ليحل المشكلة، تعلم مدى تأثيره بين هؤلاء الرجال فكلمته كالسيف على رقابهم. فقالت:

- أيوة كدة يا حاج عاصم، خد «التور» ده وانزلوا، وسيبولى القمر دى، هانشرىوا قهوتنا المحوجة من على السبرتاية، وكل حاجة هاتروق. زمجر خميس وهو ينظر للحاجة، نظرة طفولية، بعدما سبته أمام زوجته، فابتسمت في وجهه بطيبة أم قائلة :

- حد يزعل (نورا) الأميرة بنت الأصول . أيه يا يولا مش عاجبك، تحب الطشلك قدامها، أنت ناسي إني، أنا اللي شلتك على يدى يوم ولادتك، وأنا صاحبة أمك، الله يرحمها!
ابتسم خميس في حب قائلاً:

- على راسى يا حاجة، أنتِ أمى، وتعملى في ما بدالك. تراكهما وجلسا على مقهى بيومى صامتين.

قال له عاصم في عتاب :

- أول مرة صوتكم يعلو أنت ومراتك في الحتة؟ دافع خميس عن نفسه
مُبرراً:

- أعمل أيه يا شيخنا الظروف، مش عارف ألاحق على طلبات البنات اللي ما بتخلصش .

- لأ يا خميس دى مش ظروف .. دى ذنوب! قطب خميس حاجبيه وحك إبهامه بذقنه، وهو يُفكر بالكلمة

- ذنوب أيه والعياذ بالله؟! ما نتا عارف، أنى من شغلى لبيتى ومن بيتى لشغلى، وأخرى نقعدوا هنا بينكم على القهوة دى، وما عنديش وقت للحاجات الثانية.

- مين قالك: إن المعصية، هى الحاجات الثانية زى ما أنت بتقول بس؟ فى حاجات تانية كتير، ممكن تجر عليك الخراب بعيد عنك . صمت خميس وهو ينظر للشيخ الذى التفت إليه، ونظر فى عينيه مباشرة:

- زى إنك تاخد فلوس بالفايظ من (نصر اليهودى) مثلاً؟! امتنع وجه خميس، وهو ينظر للشيخ عاصم خجلاً:

- عرفت ازاي؟! لسة الموضوع بنا، وكنا ها نخلصوه.

عاصم -: الحريقة اللى دارت فى بيتك اليوم، كانت علامة من الله .

خميس:أعمل أيه يا شيخنا، الدنيا قفلت فى وشى، بعد ما سبت حلوانى (سابلية)، عاوز نجوز البت، ونشوف محل صغير، ينفع حلوانى، نشغل حر نفسى، وما لقيتش قدامى غير سكة نصر اليهودى !!

. مد عاصم يده فى جيبيه، وأخرج خمسمائة جنيه قانلاً:

- خُد المبلغ ده علشان تجيب حاجة البت. وإياك تستلف من (نصر اليهودى) تانى، اللى شُفته النهاردة علامة بس. نظر خميس إلى المبلغ بذهول، نفس المبلغ الذى اتفق عليه مع نصر اليهودى، كيف عرف وهولم يكن حاضرًا الإتفاق، حتى زوجته (نورا) لا تعرف قيمة المبلغ الذى كان ينوى اقتراضه من نصر، يبدو هذا الرجل غريبًا، لكنه يُشع خيرًا ورحمة . كان يتأمل الشيخ فى هدوٍ، وهو يقول له:

- لما تضيق بيبك، استغفر الله كثيرًا، واسعَ وأنت هاتشوف النتيجة، وإن

شاء الله مش ها يمر العام إلا وأنت فى محللك !! ضحك خميس قانلاً:

- ياه يا عم عاصم . تفتكر .

عاصم: مفيش حاجة تكثر على ربنا، بس أنت قول يارب، واستغفر على قد ما تقدر، زى ما قولتلك، ثم استطرد قائلاً:

- يالا نقوم بقى وروح صالح مراتك. هما بالخروج إلا أن يداً امتدت بقوة فى اتجاه الشيخ تمنعه من النهوض، وقال صاحبها بصوت مرتفع، يحمل لكنة عدائية:

رايح على فين يا عاصم؟ كان (نصر اليهودى) كما كانت تُسميه المنطقة، نظراً لبخله الشديد، وموته على القرش، رأس ماله الذى يزداد كل ساعة بالربا، يقف أمام عاصم بجسده الضخم وعضلاته المفتولة، رجل خمسينى قوى البنى، له شارب مُستقيم اصطناعى بلون الزيتون الكلاماتا، يصلح لأن يكون إعلاناً لصبغة (بايجن) العظيمة. كان يبدو غاضباً، عندما سمع (عاصم) يذكره بشر، بل ويُعطى لخميس النقود، نهره (عاصم) بتعقل:

- عيب كده يا نصر.

- عيب على مين يا راجل يا خرفان . أنت تعرف العيب، أنت اللى داير تلسن على (نصر)، عمل أيه (نصر)؟! بيتاجر فى المخدرات مثلاً؟!، أنت اللى بضيق على فى رزقى.

عاصم: أنا ماليش دعوة بيبك

نصر: ده رابع واحد الأسبوع ده تديله فلوس، وتقوله ابعده عن نصر اليهودى.

عاصم: وما سألتش نفسك للحظة واحدة، ليه الناس سمتك الاسم ده؟ مع إنه اسم وحش قوى يا أخى!

- أنا حرو عاجبى!! هو فى أجدع وأشطر من اليهود، هما سادة العالم فى التجارة والسياسة كمان؟! لم يكن عابئاً بنظرات الامتعاض التى كانت تخترقه، بل أكمل تبججه على عاصم.

- أنت بتجيب الفلوس دى منين، ولاحد يعرفلك شغلانة، ولا حد عارف عنك حاجة، بعد ما خسرت وكالتك، غير أنك بتسرح ببضاعة، ولافيه بضاعة ولا غيره؟! شكلك شحات، طب ما بدل ما تنصح الناس، انصح ابنك، اللى المٌخدرات يهدلته وفي الآخر خرج عن طوعك وراح تجوز واحدة (ش...)، قام بيومى بسرعة ولكم نصر فى وجهه، وتخلى الاستاذ فؤاد عن هدونه المعهود، وجذب نصر من ملابسه ناهراً إياه:

- خلاص يا نصر قول يا مسا، امش من هنا . كانت أنف نصر قد نذفت دمًا، من جراء لكمة بيومى القوية الذى قال له:

- عمك (عاصم) ده، خيره على الكل وأبونا كلنا، ومن النهاردة ما تجيش تقعد عندى تانى.

- يا عنى طردتنى من الجنة...الله يلعن أبوكم كلكم، أنا حر، وما بنضربوش حد على أيده، وبنفكوا زنقة الناس، وبنأخذوا حسنة . هو البنك بيعمل إيه تانى غير كدة؟! كل واحد حر كان عاصم ينظرله فى إشفاق وهو يرغى ويزيد، ثم عاجله قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم

”الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا“^(٧)
صدق الله العظيم.

لم يظهر للآية الكريمة أى تأثير فى نفسية نصر، بل رد مُتبححًا:

- كل واحد يخليه فى حاله، وما يعملش واعظ علينا. كان عاصم يراقبه فى هدؤ، لاحظ حركة جسده غير المتسقة، صار خبيرًا فى الأجساد، يفهم ما هو صحيح منها، وما هو عليل . كان نصر يتحرك بشكل نصفى، ذراعه اليسرى لا تتحرك بشكل طبيعى ! وإن بدت طبيعية . أنهى شجاره مع الشيخ الذى ظل

(7) سورة البقرة، آية : 275.

جالسًا في هدؤ، بينما بيومي صاحب المقهى، والأستاذ (فؤاد فواز)، وخميس الحلوانى، يدفعان عنه الأذى. بدا غائبًا في عالم آخر لا يتابع ذلك الشجار، وكأنه لا يعنيه، كان ينظر للسماء التى تلونت بألوان بهيجة، على الرغم من ظلمة المساء. هدا الشجار فجأة بعد دوى سيارة إسعاف اقتحمت الشارع الرئيسى فى مواجهة المقهى ووقفت أمام محل عليه لافتة كبيرة. «يعقوب مزراحى الصائغ». هرول نصر اليهودى، عندما شاهد رجال الإسعاف وهم يحملون أستاذه (يعقوب الصائغ)، حاول أن يكلمه، لكنه لم يرد عليه. كان غارقاً فى نوم عميق، حاول أن يفهم من مساعده شيئاً:

- أيه اللى حصل يا (مليم). أجابه (مليم). وهو يتصنع البكاء:

- والله ما نا عارف يا أستاذ نصر. فجأة لقيته نايم على المكتب، صحيته، ما قامش!! انفض الجمع وهم يحوقلون، اختفى عاصم تمامًا، بينما ركب (نصر) سيارة الإسعاف بجوار يعقوب. وفى الصباح الباكر استيقظت زوجة خميس لتجد خمسة أجولة من القطن، تستند بجوار باب الشقة.

جلست فيروز أمام سبرتاية القهوة، صديقتها الحميمة، حيث اختلطت رائحة القهوة، برائحة الكحول الخفيفة، المنبعث من السبرتاية، لتُعطى لمجلسها مذاقاً خاصاً، كانت تقرأ جريدة الأخبار الصباحية في استرخاء، وهي جالسة على أريكتها ذات الورود المزركشة، المحببة إليها، تستمع إلى برنامج (إلى ربات البيوت)، ومسلسل (عائلة مرزوق) من المذيع الخشبي الكبير، تقرأ الأخبار الصباحية بنهم، وعلى وجهها إمارات الإهتمام، تُعدل من وضع نظارتها السميقة على أنزبة أنفها، كُل عدة دقائق، ثم تُعاود القراءة من جديد. لكنها لا تستمر على هذا الحال سوى بضع دقائق، يُقاطعها دائماً جرس الباب، فتضع الجريدة على مبيض، وتتحرك بجسدها السمين مُرتدية (الشبشب) البلاستيكي الأخضر. ناطقة بصوتها الرفيع عبار ممطوطة:

- حاضر.. ياللى بتخبط . تُفاجأ بطفل صغير، لم يتجاوز الثامنة قائلاً:

- صباح الخير يا خالتي، أُمى عاوزه ملعقتين سمن؟ تبتسم الحاجة وتتحرك

إلى المطبخ وتعود بالطلب، وهي تُعطى الطفل ثمرة فاكهة قائلة:

- سلم على أُمك . تعود لتجلس في مكانها مرةً أخرى، لكن جرس الباب، يدق

للمرة الثانية، هذه المرة، كانت (زُبيدة) بائعة الحليب تقف مُبتسمة بوجهها

الخمري الطيب، وملابسها الريفية الملونة:

- صباح الخير يا حاجة (فيروز).

فيروز: صباح النور يا (زبدة)، دائمًا ما تدللها بهذا الإسم، منذ أن كانت طفلة، تتعلق في طرف ثوب أمها (صفية)، التي كان تأتي كل صباح إلى الإسكندرية، مع قطار الأرياف.

- اليوم، عندي جبنه وزبدة والله يستاهلوا بقك، تبتسم الحاجة في ميوعة، رافعة أحد حاجبيها الرفيعين، التي رسمتهما بالكحل

- نصابة؟ المرة اللي فاتت قُلتي لي، الزُبدة طازة، وطلعت قديمة، شهقت زبيدة، وضربت على صدرها المُمْتلى بيديها قائلة، بشهقة ممطوطة.
- لا والله أبدًا .. كانت معمولة في يومها . تضحك فيروز قائلة:

- إنتي زمتك واسعة، ومش زى أمك الله يرحمها . تتهد بعدها (زبيدة)، ثم تقول في حزنٍ صادق.

- أمي؟ الله يرحم أمي، وزمن أمي، حتى جاموسة أمي! كانت الله يرحمها، بتطلع جزء من لبنها لأهل الله .. من كتره!! دلوقتي تعالي شو في الجاموستين اللي عندي؟ مش بيطلعوا نص الى كانت بتطلعوا . صممت بعدها في حزن، وشعرت فيروز بمعاناتها الصادقة، فهي بالفعل طيبة كأُمها، لكنها ككل بنات جيلها، تكدح من أجل أسرتهَا، نفقات تعليم الأولاد، وجهاز البنات، تخشى من الفقر والعوز، خاصة بعد سفر زوجها إلى العراق، ووفاته هناك ! .تضن يداها حينًا، وتلجأ إلى الحيلة أحيانًا كي تعيش، على عكس أمها التي كانت تترك كل شيء يسير ببركة الله .
- ماهو طول ما أنتِ دايرة تحسبيلها بالواحدة مش ها تمشي يا خايبة،

أملك كانت سايبها على الله .. نهايته، أخرجت مبلغًا من المال، أعطته لزبيدة التي تجرى على أيتام كما تقول، فتنظر لها زبيدة قائلة في امتنان

- بس ده كتير والله يا حاجة، أكثر من حقي، تبتسم فيروز وهي تربت على كتفها في حنان أم، تمسح دموعها التي غلبتها، قائلة في مرح:

- ححك أيه يا بنت ..كسر ححك، يالا روى وسلمى على العيال، بس ماتغيبيش عليّ. تدعو لها زُبيدة بالصحة وطول العمر، ملمت أدواتها الثقيلة، وباب الشقة لم يزل مفتوحاً عن آخره، سمعت صوت عكاز(إسماعيل الفقى) كعادته كل صباح. صعد أولى درجات السلم بصعوبة، ألقى عليهم السلام، ثم بدأ التلاوة بقراءة سورة يس .كانت (مشيرة)، تُحاول جاهدة، أن تنام وسط هذا السوق الصباحى، لكنها لم تتمكن أبداً من ذلك، فنهضت في غضب مُتطلعة إلى ذلك الجِوال النائم بجوارها، تعلم أنه لن يستيقظ أبداً قبل الظهر، فذلك المورفين اللعين، يجعله جثة هامدة، زفرت في غضب، ثم قامت بعصية خارجة من غرفتها، واضعة يدها في وسطها. بينما لازالت فيروز تنادى على إحدى جاراتها من (بير السلم) . لاحظت مشيرة ذلك الخاتم الذهبي الموجود على المنضدة، بجوار السبرتاية، بينما كانت (زبيدة) تجلس على الأرض تُلملم أدواتها وإسماعيل الفقى يقرأ على المصطبة خارج المنزل . لتبدأ شجارها اليومى مع الحاجة (فيروز) - مشيرة:حرام عليكى، كل يوم الدوشة دى .. مش عارفة أنام، عندى شغل الظهر.

فيروز:ما تنامى هو حد منعك يا بنتى!

مشيرة:حرام عليكى من السوق اللى بتعمليه كل يوم الصُبح، وجرس الباب اللى ما يببطلش رن؟!

فيروز: بقولك إيه، دى عوايدى من خمسة وعشرين سنة، ودول جيرانى .. أنا صاحبت البيت، وأنا حرة.

مشيرة:كان يوم أسود لما شوفتك أنتِ وابنك ..

فيروز:هو انتى كنتى تطولى يا بنت حميدة الغسالة؟!

مشيرة:مش دى اللى عاملة فيها صاحبتك، بتعايرينى بشغلتها ليه، علشان

انتى ولىة بوشين!! وقفت (زبيدة) حائلاً بينهما قائلة:

- وحدوا الله يا جماعة، بينما توقف إسماعيل الفقى عن القراءة، وهو

يحوقل

نزلت (نورا) زوجة خميس الحلوانى، التى حاولت. فض الاشتباك قائلة:

- خلاص بقى، وحدى الله يا حاجة، وأنتِ خشى جوا، تشاجرت معها مشيرة

- اخرسى ما تتكلميش معايا

نورا: أنا مش هارد عليكى علشان الحاجة فيروز، جلست نورا وفيروز على

الأريكة، بينما رحلت زبيدة وإسماعيل الفقى وأغلقت الباب، قبل أن يتجمع

الجيران عليهم، دلفت مشيرة إلى غرفتها، بدلت ملابسها، وخرجت إلى العمل،

وحسين لم يزل نائمًا بعد كل هذا الزلزال، بحثت فيروز عن الولاة لتشعل على

القهوة، لكنها لاحظت شيئًا غريبًا، لقد اختفى الخاتم الذهبى الذى كان بجوار

السبرتاية.

- أنا مُتأكدة إن هي اللي سرقتَه.

كانت فيروز تقف في الصلاة بينما جلس حسين وعاصم على الأريكة،
ومُشيرة تبكي في استعفاف .

- أنا والله ما سرقت حاجة . تفرس عاصم ملامح وجهها، تابع حركات جسدها
بدقة، كجهاز رصد ذبذبات ياباني الصنع، لقد صار هذا العالم مكشوفًا بالنسبة
له. كما يعلم مُدرب الأسد من حركات ذيله، متى سيهجم، ويقرأ مُروض الثعابين
حركاتهم جيدًا، هي ليست سهلة ! بل هي مُجرمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى،
لكن لا دليل مادي يُدينها، يتذكرها منذ أن كانت طفلة في السابعة، كانت تأتي مع
أمها وهي تغسل الملابس في حديقة المنزل الكبير. أيام الغنى، شاهدها تلهو بقتل
الأرنب والقطط المارة بأي شيء تجده، سكينًا حادًا، عصا مُدببة ذات مسامير
بارزة، حُقن مُلوثة، أو أسياخ حديدية تضعها فوق موقد الغلية، حتى تسخن،
ثم تكوى بها الحيوان المسكين الذي ألقاه حظه العاثر في طريقها، لا حظ عاصم
هذه الهواية العجيبة عند الطفلة (مُشيرة). فسألها يومًا، لماذا تفعلين ذلك؟
نظرت له نظرة رهيبة لا ينساها أبدًا، ثم ردت بتلقائية:

- هُما ربنا خلقهم، علشان يموتوا؟! وأنا بحب أموتهم !!. وعندما قال لها

- ليه يابنت كده حرام، ربنا هايزعل منك، أعطته ظهرها. وانصرفت! كانت
تجلس صامتة تراقب كُل شيء، ولا تلهو أبدًا مع الأطفال، تشعر أن شيطانًا
صغيرًا يلهو بداخلها، دائمًا ساخطة، وعنيفة، لا تُساعد أمها، وتعتز بجمالها

لأقصى حد . طفلة بهذا التاريخ المُرعب، لأيمكن أن تُصبح امرأة سوية أبدأ!! هذا يُفسر، لماذا يشتم رائحة الموت التي يعرفها جيدًا، بُمجرد أن تزوجها حُسين، وأدخلها المنزل؟ صار يشم رائحة الموت في كل ركن، ما عدا غرفته هو وفيروز، لكن ما أحزنه، أنه اشتم رائحة الموت في جسد حسين أيضًا، في يديه، وملابسه، لايعنى هذا سوى شئ واحد؟ أنه ضالغٌ معها في الدم؟! كما حلم تمامًا .

تركها تسترسل في خُبثِ قاتلة :

- وقت العركة كان فيه خمسة في البيت! ليه ما وجهتس التهمة إلا لى أنا ؟ نظرت فيروز لها في هدؤ:

- دول أنا مرياهم، وبیدخلوا هنا، من عشرين سنة، زبدة دى أمها كانت بتجيبلى من عشرين سنة، وإسماعيل الفقى، وكمان نورا ؟شوفى بقى من الغريب اللى دخل علينا؟ نظرت لها باستعطاف وهى تقول .

- ليه كده يا حاجة؟ طيب ما أنا برضه متريبة هنا زيهم!! وأمى طول عمرها صاحبتك وبتخدمك بعينها. غضبت فيروز وهى تنظر لها، هى وحسين نظرة اتهام، جعلتهما ينكمشان في مكانهما .

- أمك؟! ما بلاش تفتحى موضوع أمك علشان ها قولك كتير!! ومش عاوزه أتكلم. نظرت فيروز إلى حسين في حيرة، فنطق قائلًا في ارتباك :

- إيه يا حاجة ما توحدى الله، أنا مش عارف أتدخل، لكن مشيرة مش ممكن تعمل كده، دى مهمما كان زى بنتك.

- بنتى؟! خليك يا خويا ماشى وراها زى الخروف، لما تجيب رقبتيك لحبل المشنقة . ماهذا؟! هل تعرف شيئًا ؟ إنها تُقدم تلميحات غير مريحة !! زفر حسين في غضب، بينما كان عقل مشيرة يعمل في هدؤ شديد، وعيناها تضيق بشكل غريب .

حسين: ليه ياما الكلام ده، عيب كده، بتشتمينى قدام مراتى؟! .

فيروز: خليك كده يا اخويا. أما نشوف آخرتها معاكم. نظر لهم عاصم في تحدٍ قائلاً وهو يتحدث إلى فيروز:

- ما تقلقيش يا (أم فضيل)، الخاتم بأمر الله هايجي، هايجي، وهييان اللي سرقه.

لاحظ تلك الابتسامة الساخرة على وجه مشيرة، فابتسم هو الآخر ابتسامة المنتصر. لقد حمى وطيس اللعبة، إذن فلنلعب ونلقنها درسًا.

حل المساء، وأضواء المصابيح الملونة قد بدأت تنعكس داخل المنزل، والزغاريد تنطلق من الطابق العلوى، دقات ودق جرس الباب حيث دخلت نورا قائلة:

- مساء الخير عليكم، ماتنسوش الفرح، عاوزينك يا حاجة علشان تزوق العروسة.

ابتسمت الحاجة في غضب مكتوم وهي تنظر لزوجة ابنها شزراً

- طيب يا نورا، شوية وأنا طالعالك

. نظرت نورا بقلبيها الطيب تجاه مشيرة قائلة:

- وأنتِ كمان يا مشيرة، تعالى معايا، وماتزعليش منى بسبب العركرة، النهاردة فرح. وعاوزين كلنا نفرحوا.

مشيرة: لا أنا مش زعلانة منك، بس هانروحوا مشوار ساعتين شغل، ونرجعولك.

انتظر عاصم، حتى فرغ المنزل تمامًا، وخرج الجميع، كلٌّ إلى وجهته، ظل قابلاً في عُرفته يُصلى ويقرأ القرآن، كانت الإضاءة خافتة على قدر مصباح القراءة، جلس بعدها يُطالع ذلك الكتاب الأسود الكبير المخطوط عليه بماء الذهب من الخارج، والذي وجدته يومًا على المنضدة الكبيرة في المشرحة، كان

يخص أحد ضيوفه هناك، ولم يفارقه من يومها!!.

«وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات، أن الحي يرى الميت في منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحي فيصادف خبره كما أخبر فهذا هو الذي عليه السلف من أن أرواح الأموات باقية إلى ما شاء الله وتسمع، ولكن لم يثبت أنها تتصل بالأحياء في غير المنام» الإمام ابن القيم الجوزية

إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى - فلا تستعزن بعز يفنى. قوم تسبق أنوارهم وأذكارهم، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم. ابن عطاء الله السكندري.

أغلق كل الأنوار، فغرق المنزل في ظلام دامس لا يكسره في بعض الأحيان، سوى انعكاسات المصابيح المتلألأة في الشارع جلس على مكتبه العتيق ووضع الكتاب الأسود، وأخرج من العلبة قطعة كبيرة من الجبن الأبيض، ثم أخذ يتلو بصوت خفيض في الظلام

قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)
صدق الله العظيم، كررها عشرات المرات بقوة، وهو يدق بيده على المنضدة، عاد رأسه إلى الوراء، وأصاب الخدر جسده، وصل مرحلة (النيرفانا)، لاحظ تلك الكتلة الضوئية التي تتحرك فوقه على سقف الغرفة. بدت مهمة في أول الأمر، لكنها اتضحت له شيئاً فشيئاً، حتى أنه بدأ يميز ملامح صاحبها، شاب قوى، ضخم الجسد. مفتول العضلات، إنه (خضير) ذلك الشاب بطل المصارعة، الذي مات في حادث مأساوي، لا يعرف ما الذي علقه به، لكنه كان يزوره كثيراً، ويساعده في قضاء بعض أموره!!، انتفض جسده قليلاً وهو يطرق فوق منضدته مرتين، بطقطقات واضحة قائلاً في ثبات:

- رد على إجابتي بطريقة واضحة، جاءه رد الفعل طرفتين على المكتب كما فعل:

أخذ يتمتم وهو يشعربالبرودة، قد حلت على المكان، حتى تخيل أنه يكاد يتجمد. ظل يرسل إشارته اللاسلكية للهالة التي كانت ترد عليه بوضوح، حتى انتهت، تحركت في أنحاء المنزل، حتى وصلت إلى باب غرفة مشيرة المغلق، عبرته الهالة بسهولة، بينما كان عاصم يتابعها من مكانه، في غرفته، حيث لم يكن قادرًا على الحركة، لقد سيطر عليه الجاثوم⁽⁸⁾ تماماً، لكنه كان يرى كل شيء بوضوح، خارج الغرفة الباب، كان يرى العملاق وهو يتحرك داخل غرفة (مشيرة)، اتجه إلى الدولاب مباشرةً، ورفع حقيبة السفر الكبيرة، على الرغم من ثقلها الواضح، لكنه رفعها بيدٍ واحدة في الهواء كمن يرفع لعبة صغيرة،

أسقطها أرضاً، ثم فتحها بكل بساطة، على الرغم من كونها، كانت مغلقة بأرقام سرية!، مد يده، في نقطة عميقة حاكمتها مشيرة بين البطانة والجلد، وحصل على الخاتم المفقود، ثم أعاد كل شيء إلى مكانه، واتجه ناحية غرفة عاصم مرة أخرى، ووضع الخاتم فوق المنضدة. جلس عاصم يتأمل الخاتم في رضا، بينما جلس هو أمامه مجهدًا وكأنه كان يجرى خمسة كيلومترات، هداً قليلاً، وهويلتهم قطعة الجبن الكبيرة، ثم اختفى. فتح عاصم عينيه في فزع، ليجد خاتم زوجته فيروز على المنضدة، وقطعة الجبن قد اختفت من الطبق!! لا يدرى ماذا كان هذا؟ ولكن ما علمه له الشيخ هريدى، وما وجدته في الكتاب أتى بثماره؟! مد يده في دولاب ملابسه لقد وعد خميس أن يرتدى جلبابًا صعيديًا يوم عرس ابنته، ارتدى جلبابًا فاخرًا وزينه بعمامته الصعيدية البيضاء المرتفعة، تعطر جيداً ونزل إلى حفل الزفاف الذي كان قد صار على أشده.

(8) شلل النوم أو الجاثوم: هو حالة من الاختناق وعدم القدرة على الحركة أثناء النوم وتسمى أيضا بأبي لبيد أو شلل النوم واسمه العلمي بالإنجليزية Sleep Paralysis)

نفس التوقيت على بعد ثلاثة شوارع من حارة الغول منزل (حميدة أبو
النور)

كانت حميدة تجلس أمام آخر قطعة غسيل أمامها، وقد تصببت عرقاً وهي
تستمع لإذاعة الشرق الاوسط، من مدياعها العتيق، الذى لايفارقها كظلمها.

غمض عينك وامشى بخفه ودلع

الدنيا هى الشابة وأنت الجدع

تشوف رشاقت خطوتك تعبدك

لكن أنت لو بصيت لرجليك تقع

عجى.

لم تنتبه حميدة لتلك العيون الجميلة التى كانت تُراقبها من على ارتفاع
ثلاثة أمتار، من القبة الخضراء التى تعلو غية الحمام، كان صاحب العيون
يقبع فى صبرفهد، يتحين الفرصة لاقتناص فريسته، ساعدته إضاءة السطوح
الخافتة على الاختفاء جيداً، تابع حميدة وهى تُنهى أكوام الملابس المُتسخة،
التي أمامها، كان الإرهاق واضحاً عليها، فأطفأت المواقد، ووضعت كل أدواتها
فى أحد الأركان، ثم دخلت إلى الحمام، وصبت الماء الساخن فوق جسدها
الهزيل، فى محاولة يائسة لإزالة ذلك الإرهاق الرهيب، الذى حل بجسدها،

خرجت من الحمام مُرتدية جلبابًا قصيرًا كشف عن ساقها العجفاوين اللتين ذابتا من الشقاء، أغلقت باب الغرفة عليها، وجلست على "كرسى تسريحة مُتهالك، كانت قد ابتاعته من سوق الجمعة، وهي تُمشط شعرها في المرآة الكبيرة المشروخة، تتهددت في يأس عندما نظرت إلى نفسها، لم تعد "حميدة بدر البدارى"، كما كان يُطلق عليها شباب (مركز البدارى) بأسيوط، لقد صارت حميدة "الغسالة المسكينة"، لو كان الأموات يسرون بعد بعثهم، لن يكون لهم أفضل من هذه الهيئة، جسد نحيل، شعر أبيض متساقط، أسنان مكسورة وعيون حمراء! علقت على شكلها البائس بالجُملة الشهيرة الأكثر بؤسًا:

- نهايته، مش ها ناخذ زمانا وزمن غيرنا، الحمد لله على كل حال. نامت على سريرها الصغير، دقائق معدودة وعلاشخيرها، هكذا هم أبناء الشقاء، يدخلون في غيبوبة مفاجئة، وينهار جسدهم فجأة من فرط التعب. لم تشعر حميدة بتلك الأقدام التي عالجت كالون الباب المُهترئ بمنتهى البساطة، وتحركت في الظلام برشاقة، وكأنها تعرف خطواتها داخل المكان جيدًا، أشعلت كشافًا خفيفًا، واقتربت من حميدة النائمة في سلام. مدت يدها الأخرى بخفة، وهي ترتدى قفازًا طبيًا مطاطيًا، وغرست إبرة رفيعة في رقبة حميدة النحيلة التي فتحت عينها في ألم، لترى ذلك المثلث الذى قد غرز الإبرة في ثبات.

- آه .. ليه كده؟ عملت لك آيه، أنا غلبانة وما عملتش حاجة. جاءها صوته

الرصين الخالى من الرحمة.

- عملتى حاجات كتير، تستاهلى عليها الموت، وكان لازم تموتى. نظرت حميدة في عيني المثلث بتمعن، ساعدتها الإضاءة الخافتة، المنبعثة من المصباح الصغير، ثم ابتسمت وهي تقول في استسلام.

- كنت عارفة إن نهايتي ها تكون على يدك، ابن الحرام ما يجيش من وراه
غير كده !! اختلجت عضلات وجه المثلث وهو يسمع تلك الجملة، قبل أن تبدأ
حميدة بالتشنج، والالتفاف بأقدامها بعنف، ولسانها يتدلى، خارج فمها، ظلت
ترفرف بيديها وساقها، كطائر تم ذبحه، بينما المثلث يراقبها في هدوء حتى أسلمت
روحها إلى بارئها. فأغلق الباب، وخرج في هدوء.

أعوام طويلة لم تنعم فيها حارة الغول، بمثل هذا السلام النفسى، وتلك السعادة الغامرة، احتفاء بزفاف (نجوى) ابنة خميس الحلوانى ونورا، على الأستاذ (أمجد)، مدرس التاريخ بمدرسة محمد كُريم الإعدادية . الشارع والمقهى والمنطقة المحيطة، كانت تستعد للمناسبة السعيدة، فالشادر الكبير، قد امتد على طول الشارع، وامتدت الموائد، عليها ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات، أطباق الفاكهة الكبيرة، على شكل قوارب، أكواب الشربات، وأطباق الحلوى تملأ المكان، كل ذلك أقامه معلمين الحارة احتفاء بابنة صديقهم، وبالطبع أبدع خميس كصانع حلويات محترف، فى عمل (تورته فرح) عظيمة. أكل منها كل أبناء الحارة، بالإضافة إلى الحلويات الشرقية والغربية الرائعة. كان صوت الموسيقى يُغطى على كل شيء، فقد قرر الجميع قضاء ليلة استثنائية، كلٌّ ترك همومه ومشاكله على عتبة داره، وهبط إلى الحفل بنفسٍ راضية! حتى نصر اليهودى وأسرته، وعاصم وفيروز اللذان لم يفرحا منذ مُدة طويلة، فقد ارتديا أجمل ثيابهما، وجلسا فى الحفل فرحان. ظلا يصفقان ويضحكان، عندما صعد بيومى فوق المسرح الخشب، قاطعًا فقرات الحفل الراقص، ليُقدم تحيته (ونقوطة) .

- خمسين شمعة ووردة لأخويا وحبيبى المعلم خميس الحلوانى بمناسبة زفاف عروستنا الحلوة نوجا على عريسها الأستاذ (أمجد) . واسمع سلام صعيدى . لهاتف بعدها "نوبتجى" المسرح

- سلاااام صعيدى ...ياجد ااااع.

قذف أحدهم عصا غليظة لبيومي الذي رقص بمهارة على أنغام الموالم
الصعيدى :

كل عيشك بملحك وفجلك
وعيش عيشة جدودك
واتمد على قد رجلك
بلا تزيد عن حدودك

ظل يرقص بخفة على صوت المطرب الصعيدى ذو الصوت الرائع، قطع
الموالم مرة أخرى وهو يمد يده لعاصم قائلاً:

- وقف ... وقف .عمنا وعم الرهاينة الحاج عاصم الغول، أسمع سلام
صعيدى . وقف عاصم بخفة وتلقف العصا بمهارة من بيومي وهو يرتدى
جلبابه الصعيدى الثقيل، وفوقه عمامة البيضاء الجميلة، وفي بنصره خاتم
من الفضة، أذهل الجميع برقصه، حتى فيروز قد أصابها الغيرة من إعجاب
سيدات الحارة به، بدا رشيقيًا وطائرًا في سعادة، بينما تجمع أصدقاءه حوله
يشجعونه، ويطربون لرقصه، وكلما قرر أن يغادر استوقفوه وطلبوا منه أن
يُكمل، بينما (مُشيرة)، قد انتبذت لنفسها مكانًا بعيدًا في آخر السرادق، كي
لا تتحدث مع أحد. كانت تنظر للجميع، وعلى وجهها علامات جامدة، وكأنها لا
تنتهى لأحد، وكأن الأمر لا يعنهما، بينما كان (حسين) سعيدًا، وهو يرقص لأول
مرة مع والده، لقد كان اليوم استثنائيًا بالفعل.

الجود ماهواش بمال ولا بلبس القماشى دا طبع في الشخص. سلسال دا
طبع في الشخص سلسال لا هو بماله ولاشي

- أنهى رقصته فوق المسرح، وسط إعجاب وذهول الجميع، كانت صيحات
الإعجاب تنهال عليه من كل مكان .

- بسم الله ماشاء الله عليك يا عمنا، والله أحسن من أى شاب. نزل من فوق المسرح الخشبي، واقترب من (فيروز) التى كانت تجلس بجوار (نورا)، التى رحبت به بشكل إستثنائى.

- أياه الحلاوة دى بس ياعم عاصم، ماشاء الله عليك، إحنا والله لازم نبخرك. تعالى أقعد جنب القمر، كانت (فيروز) تنظر له فى حب مازحة:

- يموت الزمار وصوابعه بتلعب، ضحك فى سعادة:

- هو أنت ما بتنسيش أبدا؟!!

- وأنا مالى؟! أنت اللى بتفكرنى أهه

ضحك فى وجهها، ثم مد يده فى جيب صديريته وأخرج الخاتم المفقود، أمسك يدها فى حب، ثم وضعه فى بنصرها الأيمن، وكأنه يقوم بخطبتها من جديد

صباح اليوم التالى .

لم تعتد فيروز تلك الطرقات المبكرة على باب المنزل، فالיום جمعة. والحارة سهرت حتى الصباح فى فرح (ابنة خميس الحلوانى) ونورا جارتها. الساعة التاسعة صباحًا، والحارة كلها تغط فى نوم عميق لا يقطع السكون، سوى مزمار (متولى) بائع الفول، الذى يستيقظ باكراً منذ ثلاثين عامًا، كقطار الصحافة، لا يجيد عن مواعده أبداً، ولا يعرف أعياد أو مناسبات، فهو منذ السابعة صباحًا، تجده مُرابضًا، بجوار عامود الإنارة الواقف كالحارس على مدخل الحارة . وجدت شابًا، شارف على العشرين، يقف مُترددًا خائفًا على الباب، ونظره إلى الأرض. أول مرة تراه. لكنها بادرتة قائلة:

- خير يا بنى، فيه أياه؟!!

- أنا أسف يا حاجة، بس مش ده بيت الست (مُشيرة) . ردت فيروز فى قلق:

- أيوة يا بنى، خير، عاوزها فى أيه؟

- والدتها توفيت.

انفجر الدمع من عين فيروز، وهى تجلس على أقرب أريكة، من هول الصدمة

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. إمتى ده حصل؟

- أمى جت تصحىها الصبح .. حوالى الساعة سبعة، علشان شغل، لقيتها

ما بتتحركش

- كانت مُشيرة قد خرجت، ومعها حسين وعاصم. صرخت (مُشيرة) وسقطت

أرضاً، ومألت الحارة ضجيجًا.

لم تكن فيروز تشعر براحة. لموت حميدة المُفاجئ. كانت تدرع المنزل ذهابًا وإيابًا، سألت جيرانها في العزاء عن سبب وفاتها، قلن لها: إن الطبيب عندما جاء، أكد أن المرحومة، قد أصيبت بجلطة في المُخ، أثناء نومها، هزت رأسها غير مُصدقة، لا بُد أن هناك خطأ ما!! فحميدة كانت بحالة جيدة
- هي أعمار... لا إله إلا الله .

لكنها كانت مُتخوفة من شيء ما ... (مُشيئة). تلك الحية الرقطاء، لكن هل من الممكن؟! هزت رأسها، بالنفث هامة وهي ترتشف فنجان قهوتها .
- مش للدرجة دى؟!!

انتهت على وقع أقدام مُشيئة القادمة من غرفتها . قائلة:
- مساء الخير .

ابتسمت فيروز على مضض قائلة:
- مساء النور. اقعدى .

اتخذت مجلسها على الأريكة المُقابلة لأريكتها الملكية التي كانت تجلس عليها طوال الوقت، أمام (سبرتاية القهوة)، دعتهما إلى فنجان قهوة، فوافقت مُشيئة على الفور. أخرجت فيروز برطمان بُن فاتح اللون، أخذت منه ملعقة كبيرة، ووضعتها على القهوة، ظلت تتابع القهوة وهي تنضج، بينما مشيئة تستمع بهدوء لصوت هسهسة القهوة فوق الموقد السيبرتو الصغير. قطعت فيروز الصمت قائلة.

- طالبت غيببتكم .. ثلاثة أسابيع أنت وحسين بعيدين عن الدار، كنتوا فين؟
ردت مُشيرة بتحفظ:

- كنت لازم أقعد هناك في بيتها، لتلقى العزاء، وتخليص أوراق. مصمصت
فيروز شفتها في حزن

- الله يرحمها .. ويحسن إلها . كانت تُتابع وجه (مشيرة) الذي لم يعط أي
إشارة للتأثر، لكنها قالت وهي تشير للقهوة .

مشيرة- أيه سبب حبك للقهوة ؟

فيروز: أهو كيف زى باقى الكيوف .. لكنه أرحم من غيره .

تناولت مُشيرة منها الفنجان وهي تشرذ بذهنها إلى نقطة في الفراغ قائلة .

- كانت أمى، تحكى لى عن قهوتك، ذرفت من عينها دمعة، لم تنطلى على
(فيروز)!! لكنها أخرجت علبة معدنية من مادة الاستانليس، وأعدت لنفسها،
فنجانًا آخر من قهوة سوداء اللون. لاحظت مُشيرة ذلك فبادرتها قائلة بشك:

- ليه مش بتشربى من نفس البرطمان؟

ابتسمت فيروز بذكاء، وهي تنظر في وجهها، إنها تعتقد أن كل الناس غدارين
مثلها؟! لكنها ردت عليها ببساطة:

- علشان أنا بشرب (بُنْ غامق)، وعليه (هيل)⁽⁹⁾ عربى، طعمه مُر جدًا، وما
حدش بيشرّبوا من أصدقائى، علشان كده، أنا عملتلك بُنْ فاتح زيهم. ابتسمت
مشيرة وهي تقول:

- ممكن أدوقه؟.

فيروز: اتفضلى ... أعطتها فيروز الفنجان رغم دهشتها. تذوقته مُشيرة وكأنها
تختبر شيئًا ما!! لم يعجبها طعمه، فقالت لها:

(9) الهال أو الهيل في الجزيرة العربية والشام أو الحبهان في مصر

- ياه، طعمه مر جداً فعلاً، صعب على.

فيروز: قلت لك، أنه صعب، كملى قهوتك الفاتحة، أمك كانت تشربها من إيدى . كانت تتابع حركات مشيرة، وهى تود أن تسألها السؤال الذى سيقتلها، لكنها تظاهرت بعدم الاهتمام، حتى قالت لها مشيرة:

- الله يرحمها .. كان سرها كله معك . تظاهرت فيروز بعدم الاهتمام وهى تقول:

- سر أياه؟، أمك كانت ست طيبة، وما عندهاش أسرار. لكن مشيرة لم تمهلها قائلة .

- لا كان عندها؟! ردت عليها فيروز فى هدؤ

فيروز: ده مش وقته الكلام ده، وبعدين أنا مراعية ظروفك، وبحاول أنسى الخلافات، علشان خاطر المرحومة أمك، لكن مشيرة ضغطت عليها مرة أخرى: - فين المظروف الأصفر اللى خبتيه فى صدرك، يوم ما دخلت عليكيم؟ لم تهتز (فيروز)، تعلم أن هذا السؤال قادم. فردت ببرود:

- دى حاجة ماتخصكيش يا (مشيرة)، الست أمنتى على شىء، وما طلبت بش منى، اسلمه لك.

مشيرة: أنا بنتها الوحيدة، وحقى شرعاً، قاطعتها فيروز:

- المظروف مفهوش فلوس ولا شىء .

مشيرة: وأنا أعرف منين؟! إنقلب وجه فيروز وحاولت لطم مشيرة على وجهها قائلة:

- هى حصلت تهمينى بالسرقة يا بنت (...)، لم تكمل الجملة، حيث تحولت مشيرة، إلى نمرة غاضبة جداً، احتقن وجهها، وقفزت فوق فيروز، ووضعت يدها حول عنقها:

- إياكى تمدى، إيدك علىّ تانى، لو عملتها أنا هاموتك . أنتِ ما تعرفينيش كويس؟!

- حاولت فيروز التملص برقبتها، يمينًا ويسارًا، إلا أن يد مشيرة، كانت تضغط عليها بقوة رهيبة، كادت تحطم حنجرتها صرخت فيروز من الألم، فأفلتتها الأخرى خشية من الفضيحة . لكن فيروز فقدت عقلها، من هول ما رأت من زوجة ابنها، لقد كادت تقتلها.

فيروز: أعرف للأسف أنك مجرمة!! ولو كان بيدي، كنت بلغت عنك حالًا، لكن للأسف ابني مشارك معاكى فى الجريمة، وهاضبع هو كمان .. وخلص مفيش غيره! . كانت (مُشيرة) تحاول التماسك أمام (فيروز)، نفس الوجه الشمعى المخيف الأبيض الذى لا يخفى خلفه أية مشاعر. ردت على فيروز بهدوء: - كلام فارغ!. أمى ماتت موتة طبيعية، والدكتور أكد ده، واندفنت خلاص! - الكلام ده ممكن يكون دخل على البوليس والنيابة، علشان مالهمش غير الورق، لكن مادخلش عليّ أنا! ولو عاوزه نفتحوا التحقيق، هانفتحوه. مشيرة: مفيش دليل على كلامك .

فيروز - عندى دليل يحط حبل المشنقة فى رقبتك، لو سلمته للبوليس والنيابة، لكن المُجرم (حسين) هو اللى ما نعى. بدأت مشيرة هادئة وهى تكشف أوراقها

- كويس إنك عارفة المعلومة دى، نظرت لها فى تحدٍ قائلة:

- واضح أن العجوزة الخرفانة دى حكتلك على حاجات كتير.. هزت فيروز رأسها فى اشمئزاز، وهى تسمع (مشيرة) تنعت أمها بتلك الألفاظ، فقالت لها فى غضب:

فيروز: هى فعلاً قالت لى على حاجات كتير.. أقلها أنك بنت حرام!!

امتقع وجه مشيرة، لقد سمعت تلك الجملة من قبل، لكنها ردت بصفاقة .
- أنا هاخذ الظرف ده بأى تمن .

فيروز: إطمئنى، مش هاتلاقيه فى البيت خالص، ومش ها يظهر إلا على جتتى.

- خرجت مشيرة، وأغلقت وراءها الباب فى غضب. ثم نظرت خلفها لثانية

قائلة، وهى تبتسم ابتسامة مُخيفة. قائلة

- آمين !!

.. معامل السلام للتحاليل، د: محمد الشحات

كانت مشيرة تسحب بمهارة عينة دم من ذراع مريضة سميئة، ترتدى ملابس ريفية . سحبت العينة في ثوانٍ معدودة . كانت ترتدى ملابس سوداء، تحت معطف التمريض الأبيض.وقفت تنتظر المريض التالى فى ميكانيكية شديدة لمحت شخصًا يُراقبها، يتفرس جسدها فى تمعن، عرفته جيداً، بوجهه، الذى يشبه قرص الجبنة، وابتسامته السخيفة التى تسحب الأكسجين من الجو، كان (لمعى) صاحب المنزل، الذى كانت تسكنه مع أمها حميدة. قطبت حاجبها فى قلق، كيف عرف مكانها وما الذى أتى به إلى هنا؟! لا تعتقد أنه رأهما؟، لقد كان بير السلم حالك الظلام، وهو كان مسطولاً، ربما جاء يعزيها فى وفاة أمها فقط.

- مساء الفل يا قمر: قالها فى فضاظة .. لم ترد عليه بل أكملت كتابة، اسم (بهيجة على)، بقلم أزرق فلوماستر، على عينة الدم التى سحبتها من المريضة، ودون أن تنظرله قالت:

- خير – عاوز أيه يا معلم (لمعى)، نظريمينًا ويسارًا قائلًا بلزوجة مقبئة، تعودت عليها وهو يتفقد بعض المناطق من جسدها:

- الصلاة على النبي! ده القمربقى اتنين بعد الجواز يا جدعان! كانت فى حالة مزاجية مُعتلة، من جراء مشاكلها، التى لا تنتهى مع أهل حسين، فردت عليه بامتعاض:

- عاوز أيه يالمعى .. قصّر، رد عليها في برود:

- أبدأ، عرفنا أن الست الوالدة قابلت رب كريم، فقولنا نيجوا نعملوا
الواجب، ابتسمت في سخرية:

- لا فيك الخير، وأديك عملته .. عاوز حاجة تانية؟! كانت تتمنى لو أُلقت
بسكيناً في صلعته اللامعة، حتى تتخلص من هذا الكم الرهيب من الثقل الذى
يجثم على صدرها، تخيلت زوجته (مدام حنفى)، كيف تنام بجوار جوال البيض
الفاسد هذا؟ لكن من قال إن الطيور على أشكالها تقع لم يُخطئ أبداً، خصوصاً
مع هذه الحالة الفريدة .

لمعى: هو أنا بصراحة كُنت عاوز حاجات كتبيير!، بص خلاص بقى، أنتِ
الى اخترتى (سحس)، وربنا يهئ سعيد بسعيدة، بس أنا لى طلب تانى؟ زفرت في
غضب عندما رأت مُشرفها المُباشِر الأُستاذ عبد الله الأُسمرانى، وهو ينظر لها في
ضجر.

- بقولك أيه يا لمعى، أنا ماعنديش وقت للكلام ده، خلص علشان هنا مكان
شغل. انقلب وجهه، وهو يقول:

- لأ أنى مش جاى نشحتوا منك، من الآخر كده عاوزك تفضيلي المُطرح،
الى فوق السطوح.

مشيرة: ليه إن شاء الله .

- أظن بعدما أُمك المرحومة، ما اتكلت على الله، وجوزها (سبع الليل)، ثم
ابتسم في وجهها بوقاحة وهو ينظر في عينها ويغمز قائلاً... الى ما حدش عارفله
طريق جُرة... ، وأنتِ ربنا فتحها عليك واتسترتى. يبقى المُطرح الى فوق ده من
حقى، وعاوزه، علشان نعملوا فيه مصلحة.

مشيرة: حقك منيين، كسر حقك يا بعيد، حافظ على هدوئه، وهو يُخرج
كارتًا بلاستيكيًا، به صورة أحد الأشخاص، بصرها لم يكن من القوة الكافية،

لتلمح الصورة، لكنه فاجأها وهو ينظر في الصورة والإسم:

(حسين عاصم الغول)، ٢ حارة الغول - محرم بك، صممت وهي ترى

بطاقة حسين بين يديه. فقالت بهدوء:

- جبت دى مين؟

- مفيش فايده منه الكلام ده، المهم تتنازلى عن المطرح، ها نسكتوا ويا دارما

دخلك شر، مش ها تتنازلى، يبقى كل حى يدور على حقه، ها قلتي أيه

كان عقلها صافياً ومُرتباً !!، لقد اكتشفت بداخلها قُدرة غير عادية، على

الاحتفاظ بهدوءها في الأوقات الحالكة، نفس الحالة التي انتابتها عندما جثم

عليها سبع الليل وهي نائمة، شعرت بقوة رهيبة تجتاح كيائها، وبأنها تُحطم

عشرة ألواح ثلجية بيديها، قوة عقلية رهيبة، لاتدرى من أين تأتي، لكنها

تجتاحها كزلزال رغبة عارمة في القتل، تتعطش لرائحة دماء من يمتنها، أو

يستغل ضعفها، اتخذت قرارها في جزء من الثانية، كانت صامته، تنظر له في

إغراء، جعله يلهث كالكلب، وهي تبتسم في دلال، كانت تهمس في عقلها:

- أنت ابن كلب وعمرك ما ها تشبع، النهاردة ها تطلب المطرح، وبُكرة ها

تطلب اللى بقالك سنين بتحفا وراه!، فعلاً مفيش فايده منه الكلام؟!، قالت له

في إغراء:

- فيه كافتيريا على الترام اسمها عُمر الخيام، استناني هناك الساعة

التاسعة مساءً.

مقهى عمر الخيام... محطة الرمل

جلست إلى منضدة قريبة من الشارع تنتظر ظهوره، وهى تتلفت حولها كل عدة دقائق، وكأنها ستمرر صفقة من المخدرات . لمحته، يركن سيارته الفيات ١٣٢ الصفراء أمام مقهى عمر الخيام، عادةً ما تكون الإسكندرية مدينة رحيمة فى الشتاء، اقترب منها وهى تُدخن رابع سيجارة فى شراهة، وهى تضع ساقاً فوق الأخرى، تأملها ولعابه يجرى ككلبٍ جائع، ابتسم وهو يسحب كُرسياً :

لمعى: مساء الفل يا قمر، بصراحة اختيارك ممتاز، المكان ده بيقدموا فيه جاتوه زى الفل، أنا جربتة قبل كده . نظرت له باستخفاف، وهى تتأمل كرشه المتهدل، لاحظ نظراتها المُستخفة، فتعمد إخراج محفظته المُنتفخة، ووضعها بجوار يديها الناعمتين على المنضدة قائلاً:

- فيه حاجات مهمة، أهم من اللى بتبصى عليه؟! عموماً براحتك . نفتت سيجاراتها فى ضجر.

- عاوز أيه يا لمعى خالصنى، أنا ما فهمتش منك حاجة العصر، بطاقة أيه، ومُطرح أيه اللى أنت عاوز تاخده . ابتسم فى خُبثٍ قائلاً:

- أه بدأنا الاستهبال والدروشة؟! علشان ما نضيعش وقت بعض، فيه راجل من مُدة، جالى المحل، وقال لى إن اسمه .. مميم صمت قليلاً وكأنه يُحاول تذكر الاسم... اسمه (هريدى مناع) . امتقع وجهها عندما سمعت الاسم، لكنها

لم تُعقب، بل كانت تطلق نظرات مُتججرة تجاهه. أكمل (لمعى) حوارهُ المُشوق قائلاً: جالى وكان يبسأل على (سبع الليل) أخوه، اللى هوزوج الست والدتك!! - طيب وأنا مالى بالقصة دى؟! نظر لها من خلف نظارته الساقطة فوق أنفه:

- أنا جبلك فى الكلام، الخُلاصة، (هريدى) قال لى: إنه دور على أخوه فى كل حتة، وإنه عمل محضر فى قسم العطارين باختفائه، وإدانى صورة من رقم المحضر، علشان لو لقيته. قاطعهما الجرسون، فطلب شايًا وقطعتين جاتوه. استطرد، بينما هى تتابعه فى ضجر.

- كنت عاوز أحكى لك حكاية كده، فى ليلة من كام شهر، كانت الدنيا شتاء، رجعت من القهوة متأخر ودخلت من باب العُمارة، حسيت بحركة فى بير السلم، أتارى كان فيه اثنين وولاد حرام مستخبين، واحد وواحدة غالبًا، علشان ريحة البارفان الحريمى اللى بتحطه، أنا عارفها وبنشمها على طول، كان عقلها يعمل فى هدوء كعادتها عندما تقع فى ورطة، قالت لنفسها

- آه يا بن الكلب .. شكلك بيان غبى جدًا!، لكنك بصراحة طلعت أذكى من توقعاتى!! بدأت تنصت إليه بشكل أكبر وهو يكمل قصته المُفزعَة ويُجمع الأحداث كقطع البازل، وهى تمثل عليه الدهشة - وكأنها تُشاهد فيلمًا أمريكياً.

- حاولت أفضشهم، لكن التور اللى معاها ضربتى على دماغى بحاجة ثقيلة كانت معاها، وهربوا على مكنة حمرا قديمة...بس سريعة، الشتا كان جامد فمعرفةتش ناخذوا رقم المكنة، لكن سبحان الله حصلت حاجة غريبة . كانت عيناها ترمش بقوة، وتوترت ملامحها، وهى تستمع للمعى:

- كنت متعور فى دماغى، فرحت استقبال مستشفى الأمل اللى جنبينا، كان الموضوع بسيط، عُزرتين فى الراس، لكنى لما رجعت على البيت، كان النور

شقشقى، والأرض ظهرت، وأنا داخل البيت، قلت أشوف بير السلم، لقيت البطاقة دى - ولقيت اسم الواد التور عليها - وكمان لقيت دم كتير على الأرض - برضه مش فاهمة أنت عاوز إيه بالظبط؟!.. أخرج البطاقة من جيبه وقرها من نظر مشيرة .

- هى دى البطاقة اللى أنا لقيتها ! لقد كانت هى تلك البطاقة اللعينة التى سقطت من المعدول (حسين). كما تحب أن تسميه !!

لمعى : أنا بقى راجل جدع : لأنى كان مُمكن ناخدوا البطاقة، ونروحوا للحكومة، نحكولهم الموضوع، وهما بمعرفتهم، يحققوا، فىن سبع الليل؟ وبالمرة أمك اللى ماحدث سمعها صوت ولاحس؟!.. كانت تريد أن تبصق فى وجهه، لكنها تعلمت الهدوء.. إن هذا الحقير بيتزها، عادةً ما يحضر الأغبياء قبورهم بأيديهم، دون أن ينتبهوا لذلك. رسمت علامات التوتر والضعف على وجهها، لكن عقلها كان مُرتبًا وباردًا، وكأنه أحد جبال سيبيريا . تأملته مُبتسمة وهو يتناول الشاى والكيك، كحيوان جائع . ابتسمت مشيرة، تناولت علبة سجائرها، وسحبت منها سيجارة وأشعلتها بقداحتها الرخيصة . عبثت بخصلتها المُتسدلة على وجهها عدة مرات، وهى تنفذ دخان سيجارتها فى وجه لمعى بدلال غانية تتفاوض مع (زيون).
- كُل الكلام ده مش مظبوط؟... لكن ليه الشوشرة يا (لمعى) ما حنا طول عمرنا حبايب .توقف عن الأكل، فهولا يمكن أن يجمع ما بين رغبتين فى آن واحد فقال لها فى عتاب:

- أنا كان نفسى، لكنك تقلتى عليّ . ابتسمت فى دلال:

- إحنا لسة فيها، ما تستعجلش، كُل شىء له وقت، ثم استطردت وهى تنظر لعينيه بقوة... وليه كمان تمن؟! كانت الرغبة قد حولت وجهه وصلعته إلى لون أحمر قانى مُثير للضحك، هم أن يُبادلها الغزل، لكنه سمع ضجيجًا يأتى من خارج المقهى، نظر من الزجاج ليُشاهد سايس الجراج، وهو يشتبك بالضرب مع

رجل، ثم تطور الأمر. عندما ضربه ضربة بعصا غليظة كانت بحوزته، فلتت من فوق رأسه، لتصيب سيارة لمعى. نهض الأخير في فزع وهو يقول:
- يا ولاد الكلب، دول بيتعاركوا وهايكسروا العربية، هأخرج أشوف أيه الحكاية، وارجعلك .

ابتسمت وهي تأخذ بطاقة حسين من أمامه على المنضدة، لتدسها في حقيبتها وهي تهز ساقيها في دلال، نفثت دخان سيجارتها في الهواء، وهي تتابع لمعى من الزجاج وهو يحاول فض المشاجرة، ويتحدث مع السائس الذي كان يعتذر له، عاد بعد عدة دقائق إلى الطاولة وهو يلهث
- معلش، كانوا هايكسروا العربية، لكن ربنا ستر .. أجيبك حاجة تانية تشربها .

مشيرة: لأ أنا مُتشكرة جداً ...

لمعى: طيب هاشوفك تانى إمتى

- مشيرة: الإسبوع ده، حسين مسافر .. وأنا قلت له هاروح نبات عند خالتي، هابقى أسبيلك باب المطرح مفتوح. ابتسم في فرح وهو يلتهم قطعة الجاتوه مع الشاي بنهم وهو يقول :

- الجاتوه ده يجنن لازم تدوقيه نظرت له في نعومة قائلة :

- مشيرة: بالهنا والشفا يا حبيبي!

شهر كامل، وهو يزداد شحوبًا، لم يعد الطعام يستقر في جوفه أبدًا، صار ينسى مكان دكانه و سيارته، ينسى اسم زوجته وأحيانًا أبناءه، كل الألوان المبهجة قد اختفت فجأة، وتحولت الدنيا إلى تلفزيون ملون تعطلت فيه مسطرة الألوان، فصاريبُ لونًا واحدًا رتيبًا .. اللون الرمادي، ولا شيء غير ذلك !!، شعره الذى يتساقط بغزارة من رأسه وسائر جسده كشجرة عتيقة تتساقط أوراقها شيئًا فشيئًا؟! هل هجم عليه خريف العمر فجأة، أم أن هناك شيئًا ما حدث؟! ذهب إلى جهايزة الطب في الإسكندرية والقاهرة، محملًا بعشرات الفحوصات والتحليل، التي لم يحصل منها على إجابة شافية! كلهم قدموا له إجابة واحدة واهنة .

- للأسف عندك التهاب شديد في المعدة، نتيجة فيروس غامض؟! -

لم يقتنع بكلامهم؟! يعرف مكمّن بلاءه، ووقت الإصابة به أيضًا، السر عند تلك الحية الرقطاء (مشيرة)، ساءت حالته منذ ذلك اليوم الذى تناول فيه قطع الجاتوه اللعينة في نهم، يشعر بألم شديد يُمزق أحشاءه، قاد سيارته في غضب، إلى معمل التحاليل الذى يعرف مكانه جيدًا، فلقد ذهب إلى هناك منذ شهرٍ وهو بكامل صحته، لكنه لم يعد الآن كذلك، كانت الساعة قد قاربت على الثامنة، صعد على السلالم الحجرية الضخمة بصعوبة واقترّب من الباب الزجاجى الأنيق، وجدها في المعمل، تدون بعض الأشياء، آخر من يغادر

المعمل بعد رحيل الأطباء والفنيين، هي و(سيده) العاملة، لمحتة يدخل من الباب، تظاهرت بانشغالها، لاحظت كل شيء في لحظة خاطفة، هزاله الواضح، شحوبه، كرشه الذى اختفى، شعره الذى يتساقط، قالت لنفسها بتشف وهي تلمح الانكسار في عينيه .

- إنه الآن في المرحلة الثالثة والأخيرة، ألف رحمة ونور.

طرق على الزجاج الذى أمامها بعنف، لكنها كانت باردة كعادتها، فتحت له الباب، وهو يبدو كالثور الأعشى، نظرت له سيده العاملة في خوف، بعدما رأت الغضب بادياً على وجهه . لكن مشيرة طمأنتها قائلة:

- ماتخافيش يا سيده المعلم (لمعى) جارنا، جاى ياخذ نتيجة التحاليل، ثم مصمبصت شفيتها في تشفِ قائلة، أصله عيان ربنا يشفيه. أخرج لمعى سكيناً كبيراً وهو يقول:

- وعرفتى منين أنى عيان يا بنت الكلب، أنتِ اللى موتينى ووضعتى السم في الجاتوه ابتسمت مشيرة في برود قائلة أمام سيده التى فرت من رؤية لمعى وهو يشهر سكينه .

- أنت اتجننت يا لمعى، الكلام ده كان من شهر، هو فيه عاقل يا حبيبي ها يصدق أن اللى عمل فيك كده حتتين جاتوه؟!!

حاول لمعى الانقضاض على مشيرة، لكنها لم تشعر بالخوف، وهو يهاجمها شاهراً سكينه الكبير، كانت حركته بطيئة، ويده المرتعشة لاتقبض جيداً على السكين، وهو يصوبه تجاه صدرها، فانحرفت هي جانباً بسرعة وثبات، ودفعت يده إلى الخلف، فسقط منها السكين، واختل توازنه، فحاول أن يتشبث بالمنضدة الكبيرة، التى تحمل عددًا كبيراً من زجاجيات المعامل، فسقط أرضاً وبجواره سقطت بعض الزجاجيات مُتهشمة، لتحدث ضجيجاً متوسطاً، وقليلاً من الفوضى في المكان كان يلهث في ضعف وهو يجلس على ركبتيه صاغراً أمامها،

بينما وقفت هي أمامه تمامًا في جبروت مُروضة أسود، تُسيطر على أسدٍ غاضب.
قالت له بصوت حازم :

- عاوز أيه يا غبي، أنا مُمكن أبلغ عنك دلوقتي، وأقول إنك اعتديت على
المعمل، وأضيعك. لم يجد لمعى سوى حذاءها الشمواة الأنيق أمامه، فسقط
فوقه يُقبله قائلاً في استعطاف :

- أبوس رجلك، أنا مش عاوز أموت، أنتِ حطيتي أيه في الجاتوه؟ لو عندك
علاج خلصيني من العذاب ده، وأنا هاعيش خدامك طول العمر، وهاكتبلك
المطرح باسمك كمان! بس ماتسيبينيش كدة. ضحكت مُشير في عصبية. وهي
تدهس رقبته بحذاءها في شراسة.

- أنتِ آخر واحد يتكلم عن الرحمة، ما رحمتينيش ليه وأنا طفلة عندها
عشر سنين؟! كنت باستعطفك ترحمني، لكنك كنت حيوان قذر!!..نظر لها لمعى
في ذعر، فأكملت وهي تزداد ضغطاً على رقبته بحذاءها .

- افتكرت أنى صغيرة وهانسى، لكن أنا عمري ما نسيت؟! فاكر أمى اللى
كنت بتذلها وتجبرها تغسلك هدمك الوسخة، في الفجروفي عز البرد علشان ما
دفعتش إيجار الأوضة!!.... الحُكم صدريا لمعى ..وما لكش عندي حاجة، اطلع
برة بهدوء علشان أقفل المعمل.

خرج لمعى من المعمل باكياً، قاد سيارته بحذر، شعر أن أمعاءه تكاد تخرج
من فمه، وجد سيارته قريبة من مستشفى الراهبات، نزل بأقدامٍ مُرتعشة، وهو
يصرخ :

- الحقونى، أنا بموت، أندفع فريق من الأطباء والتمريض، يتابعون حالته
بعناية، أجروا له الفحوص اللازمة، واهتموا به، لم يجدوا شيئاً، سوى التهاب
في المعدة والأمعاء، من النوع المتوسط، ردوا عليه بنفس الإجابة المُتكررة التى
سئمها.

- حالتك مش خطيرة.

كتبوا له عددًا من أدوية المعدة، التي حفظها عن ظهر قلب، خرج من المستشفى يائسًا ومعدته تكاد تنفجر، دلف إلى المنزل في يأس، وجلس على أول كرسي قابله في الصالة. كانت عيونه غائمة، وهو ينظر لابنته ذات الثمانية أعوام التي كانت تلعب بدميتها البلاستيكية. عاد أعوامًا طويلة إلى الوراء، تذكرتلك الطفلة التي كانت تلهو بعروسة قماشية فقيرة، بجوار أمها (حميدة) الغسالة!! لا يدري أى شيطانٍ رجيم سيطر عليه، في تلك الساعة المشؤمة، وزين له فعل ذلك؟! استدرجها مُستغلاً حينها للحلوى، كتم أنفاسها بشبق حيوانٍ جائع، وقضى على براءتها!! . "وما كان ربك نسيا"، صوت الآية الكريمة من المذياع القريب، جلد روحه، وأصابه بالقشعريرة، فدمعت عيناه، وابتسم في استسلام. إنه وقت تنفيذ الحكم، لقد انتقم الله منه.. وأخذت الطفلة حقيها. شعر (لمعى) برغبة عارمة في القئ، فنهض مُسرعًا إلى الحمام، وجثى على ركبتيه أمام قاعدة (التواليبت) البيضاء، وصرخ صرخةً رهيبية، وهو يتقيأ دمًا، وحش مُخيف يلتهم معدته وأمعائه، لم ينتبه لتلك المرأة السمينة، شعثناء الشعر، التي كانت تُراقبه في هدوء، وكأنها تُشاهدُ فيلمًا رومانسيًا، نظر لها مُستغيثًا، وأنفاسه تتسارع، وحدقاته تتسعان في رُعب :

- إلحقيني يا (أزهار) .

نظرت له، وهي تمط شففتها في تشفٍ، قائلة:

- مالك يا خويا، سلامتِك؟! خرج صوته بصعوبة :

- اتصلى بالدكتور بسرعة ..أنا بموتمُشيرة، مُشيرة سممتنى!

نظرت له وهي تبكى في قهر:

- والله برافو عليها!! صعيدية بنت صعايدة بصحيح، عملت إالى ماقدرتش

عليه، وخذت بتارها؟! نظر لها برعب، إنها تعلم كل شىء !!

- أوعى تكون فاكرنى مُغفلة؟! سنين وأنا مستحيلة قذارتك مع الستات، حتى الأطفال ماسلموش منك!، ليه .. علشان أنا وحشة، بيعتنى أرض أبويا والمقلة، وضحكت عليّ باسم الحُب، وللأسف صدقتك، علشان كنت عاوزة أصدقك، برضه علشان أنا وحشة؟! علشان تتكرم وتعيش معايا، وفي النهاية بتقولى مشيرة سممتى، مش دى اللى حفيت وراها سنين، اشرب بقى !! حاول النهوض، لكنه لم يتمكن، فقال لها وهو يلهث :

- آه يا بنت الكلب، ياواطية ..كلُّكم أوساخ. غربت عيناه، وعاد يقئ دمًا غزيرًا، وهو ينتفض كحيوانٍ مذبوح، ثم سقط رأسه الغارقة في الدماء، داخل قاعدة (التواليات) التى اكتست باللون الأحمر القانى، لون الدم.
كانت (أزهار) تتابعه بامتعاض حتى سكن جسده تمامًا، وعندما تأكدت من موته، بصقت عليه وهى تقول:

- مقرف حتى وأنت بتموت، فى ستين داهية، ثم أطلقت بعدها وابلًا من الصُراخ، حتى تجمع عليها الجيران.

عزاء المغفور له الحاج، (لمعى عبد العاطى)...تاجر الحبوب

إعلان كبير، تم كتابته على مدخل سرداق العزاء الكبير، بينما جلس رجال مقهى بيومى، ومعهم عاصم، وابنه حسين، والحزن يُسيطر عليهم، بينما جلست مُشييرة بلامح جامدة داخل ركن السيدات بالسُرادق، تستمتع بقهوتها فى هدوء شديد، محاولة تجاهل نظرات (أزهار) زوجة لمعى التى كانت ترقبها ملياً، لم تصدق أنها كانت تلمح فى بعض الأحيان، ابتسامة خفية من أزهار! لا بد أن هذا من تأثير الإضاءة الخافتة. ظل الجميع فى حالة صمت يستمعون للشيخ (عبد المنعم الشحات) صبييت الناحية، حتى أنهى ربهه الأخير، بكلمته المُباركة المنغمة.

- الفاتحة.

قرأ الجميع الفاتحة فى خشوع، ونهضت مشيرة تسلم على (أزهار) التى حضنتها بؤدٍ شديد، أدهش مشيرة، التى بادلتها بضع كلماتٍ طيبة. ثم انصرفت إلى المنزل، بينما وقف أشقاء لمعى كفرقة عسكرية يتلقون التعازى فى معسكر الرجال، ويختمونها بكلمات سابقة التجهيز، من نوعية، "شكر الله سعيكم". أنهى الجميع واجب العزاء، وعادوا إلى مقهاهم. كانوا فى حالة صمت، فلمعى كان يتحرك كالقرد بينهم ولا يكف عن الحركة. وكعادتهم طرحوا السؤال التقليدى الأشهر، بعد كل عزاء، والذى يضمن لهم إكمال باقى سهرتهم فى المقهى، فى جو من الإثارة والغموض. كيف مات الحاج لمعى؟! بدأ الرجال يلعبون لعبة الخبراء

العالمين ببواطن الأمور، ونقل الأخبار المغلوطة على أنها حقائق لا ريب فيها، حصلوا عليها من مصادرهم الموثوقة. كانت الإجابة الأقرب عند بيومي الذى قال:

- أخوه متولى قال لى، إن قرحة المعدة زادت عليه، دخل الحمام ورجع دم، وبعدين السر الإلهى طلع، والدكتور قال: إن الوفاة نتيجة نزيف فى البطن!!
- مصمص الجميع شفاهم. بينما تهتد حسين فى هدوء، وأطلق بيومي جملته التى يستخدمها بشكل يومى عندما يرى جنازة، أو يحضر عزاء:
- دنيا غدارة، مالهاش أمان؟! ابتسم عاصم ابتسامة خفية، وهو يودعهم .
- السلام عليكم علشان عندى مشوار.

تركهم فى سلام، اقترب من المبنى القصير، ذا الدور الواحد، والحديقة الكبيرة، الملاصق لمبنى المستشفى الضخم، وضع حقيبةته، وارتدى ملابسه الرسمية، سلم له (عبودة التمرجى) الورد ومعه التقرير، كانت جثة واحدة ضئيلة الحجم جدًا ولا تكاد تظهر من ملاءتها، حتى تخيل أنها فارغة، وهو يقول له فى تقرير نشرته الأثرية الليلية.

- أنت عارف دى مين يا عم عاصم . أحياناً يكون عبودة مُسلياً فى تلك الليالى المظلمة الكئيبة، وكثيراً ما يأتى إليه خلسة يتعشى ويشرب معه الشاى فى الحديقة المزهرة، ليس كل ما هنا كئيب فالله يرزق الناس بعض الملاحه فى أقصى درجات الشدة، حتى يتحملوا شظف العيش وقسوة الأيام . رد عليه عاصم، وبصره يشخص بعيداً:

- عارفها يا عبودة .. ميتة بنت أموات، جت غريبة ورحلت غريبة .. فزع عبودة قائلاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم، وعرفت منين إنها (غريبة) .. ابتسم عاصم:

- عادى يا عبودة؟! ... لكن عبودة قال فى فزع

- لأمش عادى!؟

- علشان الولية دى غريبة فعلاً ومالهش حد. وهاتدفن في مدافن الصدقة، أحياناً يندهش هو من نفسه!، أضاف (عبودة).

- دى (س، س) الرقاصة المشهورة أيام الملك (فاروق). دى كانت معاها الباشاوية، وكانت ضيفة على الملوك والرؤساء في الدنيا كلها، وكان عندها قصر عظيم في (بولكلى)، وفي النهاية، رموها في القسم المجانى، وماتت غريبة يايعنى، مالهش حد. نظرلها (عاصم) في إشفاق. بينما (عبودة) يسأله

- يبقى إزاي عرفت إنها غريبة .. بسم الله الرحمن الرحيم، كان جبينه يتفصد عرقاً، فقرر عاصم ألا تفوت الفرصة، دون أن يضحك قليلاً، لا يعرف كيف يحمل عبودة التُمرجى، كل هذا الكم الهائل من جينات الفزع والجبن داخل بصمته الوراثية، على الرغم من خبرته في المستشفى، وخبرته في المستشفى التي تجاوزت الخمسة عشرة عاماً، فهو يتعامل مع الموت كل يوم تقريباً، ومع ذلك يشعر أنه يزداد جبناً! أحياناً يتسلى عليه في صبيانية تبدو غريبة على من في مثل ظروف حياته وعمله، فقال له وهو يدفع أسنانه للأمام ويقلب عينيه في طفولة.

- أنت ما تعرفش إن أنى مريوح يا (عبودة) ... شهق عبودة عدة شهقات، اهتزمعها جسده النحيل، واتسعت حدقاته وهو يجفف عرقه بمنديل أخضر، من قماش الدبلان قانلاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم ... والمصحف الناس في المستشفى، كلهم قالوا لى كده وقالوا إنك بتتكلم معاهم، لكنى ما صدقتهمش أنا ماشى. ضحك عاصم بصوت مرتفع، حتى أغرورقت عيناه، وهو يتابع عبودة الذى كان يهرول في فزع نحو بوابة المستشفى الأبرى الكبير. دفع عاصم جثة (س.س) المتكومة فوق الترولى القديم. تردد في أذنه كلمة بيومى التي سمعها عشرات المرات في عزاء (لمعى).

- دُنيا ... المتغطى بيها عريان

إنهم يقولون كلامًا، مُجرد كلام! هو الوحيد الذى يرى ويشعر بذلك المعنى كل يوم. أجسادٌ قوية، ووجوه نضرة، تركض فى الدنيا، ركض الوحوشِ فى البرية. تبحث عن السعادة، والمال، والحُب، والإشباع. والرغبة، ثم تأتى إلى هنا فجأة، وبدون سابق إنذار! يقابلونه وجهًا لوجه، لا ينسى أبدًا ذلك البطل الرياضى الهائل الجسد الذى مات من أجل صديقه الراقصة! احتاج ثلاثة رجال كي يعاونوه فى رفعه فوق المنضدة!! ورجل الأعمال الذى قتله صديقه فى صالة القمار، كانت النقود تسقط من جيوبه على أرض المشرحة. وهى ملوثة بالدماء، بينما رائحة الخمر تفوح من فمه. وها هى (س.س)، كم حطمت قلوبًا فى زمنها، وكم تهافت عليها الأمراء والملوك، ثم انتهى بها المطاف، مريضة بالقسم المجانى بالمستشفى الأميرى!! ماتت غريبة. لم يجدوا ثمنًا لكفنها ولا مقبرة لها، وكعادته هو سيتطوع ويتكفل بكل شيء، تسلمها، وسار بها فى طرقات المشرحة المظلمة، بدت كشجرة عجفاء تداعت عليها عوامل الزمن. كان يسمعها تئن بوضوح لدرجة أنه تخيل أن الطبيب قد أخطأ! لكن، إذن التسليم الذى أمامه مكتوب فيه كل شيء، ساعة الوفاة وتاريخها، تهد فى حزن وهو يعلم أن وقت المساعدة قد انتهى، لكنه يتكلم على أية حال.

- اثبتى عند السؤال، ربنا يقويكى ويساعدك، كانت تئن فقط، ورائحة عفنة تخرج من جسدها، على الرغم من أنها حديثة الوفاة. كان يتحدث معها، كما يتحدث معهم جميعًا. ويصمت قليلاً وكأنه يتلقى إشاراتٍ ما!

- أتمنى أن تكونى قد أعدتى له شيئًا عندما تقابلينه وجهًا لوجه!! لم تكن تلك ليلة عادية، كاد يُغشى عليه، عندما انطفأت أضواء المشرحة. وأضواء الحوائط وكأنها إحدي قاعات السينما الترسو، أو هكذا تخيل! هو لا يدرى؟!، كانت تعرض كل الرقصات، وكل الجوائز، وكل المشاهد الساخنة، يُقسم أنه

رأها رأى العين. خرج مذعورًا إلى الحديقة وهو يرتجف باكياً. نادى على عبودة، لكنه لم يرد، يبدو أنه نام بعد عشاء يومٍ طويل. كان الفجر قد لاح، وأضواء المسجد الخضراء تشع نورًا في المنطقة، أنهى عمله وأغلق الثلاجة على الوارد الجديد، ارتدى جلبابه الأبيض النظيف، واقترب من المسجد.

كُل المنطقة تتحدث عن ذلك الوحش الذى عقر عشرة أطفال فى مدارس مختلفة، كانت سيارة وزارة الصحة تُحذر المواطنين من ذلك الوحش الذى ينشط ليلاً، ولم يحدد أحد شكله، وكالعادة صارمادة خصبة للشائعات على المقاهى، وفى الأسواق.

- ده مش كلب، أنا شفته ده ديب لأن عينه حمرا. رد أحدهم قائلاً

- ده ضبع هريان من جنينة الحيوان

- لا ده مش ضبع ده كلب هجين على ذئب .

ثلاث أيام متواصلة، والكل يلزم داره بعد العشاء، حتى الرجال قد صاروا لا يجلسون على المقاهى، ولا يخرجون ليلاً، إلا للضرورة القصوى خوفاً من أن يقابلهم ذلك الوحش المجهول فى أحد الطرقات. كان (عاصم) يستمع باهتمام من حسونة صبي المقهى عن (كريم) ابن جارتة (صباح) العاملة بمدرسة العروى الوثقى، حيث نهشه الوحش المخيف فى قدمه، بينما هو عائداً إلى المنزل مساءً، بعد شراءه وجبة العشاء .

- ولولا سترالله أن الولد جري بسرعة، كان زمانه فى خبركان.

كان الليل قد أقبل والناس قد بدأوا يغادرون المقهى إلى منازلهم، صرخة مُدوية، أطلقها طفل تبعها صراخ عنيف من أمه فى الحارة المُقابلة للمقهى، التف الجميع حول الصبي الذى أُصيب فى ظهره بأخاديد طولية وثقوب مُخيفة

بدأت أنها عضت من أنياب حادة، تبعوا الطفل في حزن، وهم يحملونه إلى سيارة الإسعاف.

فجر اليوم التالي.

حمل حقيبته على كتفه وانطلق عائداً، من عمله بعد ليلة حافلة، قضاها مع الراقصة (س.س)، كان شريط حياتها الذى بثته جدران المشرحة، كفيلاً بإثارة رعب العالم بأسره، لم يغادر شيئاً!! أه لورأوه، لما كان فى الدنيا كل هذا الضجيج!! الليل غادر الشارع، والهدوء يُخيم على المنطقة استعداداً ليوم عناء طويل، لا يقطع الصمت الممل، سوى نباح كلاب الشوارع، أو طقطقات حوافر الدواب التى تجر العربات (الكارو)، مُتجهة إلى محطة القطار الشهيرة ب(محطة مصر)، انتظاراً للفاكهة والخُضر القادمة مع (قطار الأرياف)، والتى يتم توزيعها باكراً على أسواق الإسكندرية، رائحة المعسل الثقيلة المُنبعثه من المقهى العالية ذات السلالم، ورائحة السمن البلدى المُنبعثه من حلوانى العصافيرى، كُلها أشياء كانت تُضفى على رحلة (عاصم) الصباحية، سحرًا وغموضًا، فهو يشعر أنه يقطع ثمار اليوم، يرتشف النهار طازجًا، والهواء بكرًا، دائماً ما تكون أول (قطفة) وأول ثمرة، وأول مشاعر صادقة، أشياء لا تُنسى !! سار من شارع إلى شارع، اقترب بمحاذاة الأرض الفضاء المُجاورة للمدرسة. شعر بثقل فى قدميه، وبشيء ما يزوم خلف ظهره. استدار فى ثبات، باحثاً عن مصدر الصوت، فاجأه زوج من العيون الحمراء تجرى بسرعة فى اتجاهه. وضع حقيبته على الأرض واعتدل، وفمه لا يكاد يتوقف عن التمتمة، فى انتظار الوحش المُنتلق بأقصى سرعة، حدد ملامحه سريعاً، كلب ضخم جداً، أصغر من الحمار قليلاً وله أنياب حادة، وقوائمه الأمامية أقصر من قوائمه الخلفية، همس فى رجاء وهو ينظر بسرعة إلى السماء، كان عقله مُرتباً ويعمل فى كفاءة، فلقد تعلم من عمله الكثير، لم يعد يخشى شيئاً، قد يكون الوحش مُخيفاً، لكنه أبداً لن يكون مُخيفاً، مثل الموت. نظر فى عينيه بقوة، حتى هدأت سرعته

تدريجياً إلى أن صار في مواجهته، شيئاً ما منعه من مهاجمته وقف يزوم وهو يفتح فمه بوحشية، بينما عاصم ينظر في عينيه، ويتمتم حتى بدأ الوحش في التراجع، وكأنه قد تعرض لتنويم. لكنه بعد ثوانٍ بدأ في الدوران بقوة حول نفسه، عندما شعر بأشياء تطوف حوله وتمهش جسده، كان يلتف حول نفسه ويعض الهواء، والدماء تسيل منه، تناقلت خطواته وهويين، إلى أن سقط على الأرض، وهو يصدر حشرجة مُزعجة. تركه عاصم حتى خارت قواه تماماً وسكتت أنفاسه. تلفت يميناً ويساراً، وأخرج حبلاً غليظاً من حقيبته، ليربط به قوائمه الأمامية، حتى يواريه بعيداً عن الأعين، لاحظ أحدهم يراقبه من بعيد، فترك الوحش، وفر سريعاً حتى لا يكشف أحدهم أمره!! واستيقظ سكان المنطقة ليشاهدوا كلباً ضخماً جداً يشبه الحمار وهو مكبل الأقدام بحبال سميقة، التفت الناس حوله في فزع، وهم ينظرون له في ذهول!! لكن بعد فترة، تساءل الناس عن ذلك البطل الخارق الذي انتصر على ذلك الحيوان الشرس وقهره، انطلق هو إلى منزله، خائر القوى، وهاهى الليلة المُرعبة، تأبى أن تنقضى، دون أن يظهر له فيما.. الوحش، لا يعرف من أين أتى بتلك القوة الغريبة، ولا بتلك الأشياء التي كانت تمهش الوحش وتسيل الدماء من جسده!! يبدو أن أصدقاءه قد أعانوه كثيراً هذه الليلة. دلف إلى المنزل، سمع صوت موسيقى راقصة. تأتي من غرفة (حسين) و(مُشيرة) فهز رأسه في أسى، إنهم لا يُراعون حُرمة لأى شيء. وجد (فيروز) تنهض من فراشها في وهن. وهى تستند على الحائط القريب، وبمجرد أن رأته، قالت له في راحة:

- ساعدنى يا عاصم، عlishان أروح الحمام. تسندت عليه، وسارت ببطئ حتى وصلت للحمام، نظر لها بشفقة وهى تحاول جاهدة دخول الحمام، ما الذى حدث لها فى الأسبوعين الفائتين، فقدت نصف وزنها، وازدادت هُزالاً، وحر الأطباء فيها، تحاليل وفحوصات، شخصه معظمهم بأنه قرحة فى المعدة بسبب شربها المُستمر للقهوة!!، نظرت له وابتسمت قائلة: طول عمرى بشرى قهوة،

ولم يحدث شيء! شرد كثيراً، خرجت فيروز من الحمام، فساعدتها على العودة لفراسها، قائلاً في إشفاق :

- ألف سلامة عليك يا أم فضيل، عاوزينك تقومي، وتنوري مجلسك كل يوم الصبح .. لكن من غير قهوة !!، زى ما قال الحكماء. تستند بظهرها على السرير في محاولة صعبة للجلوس. وهي تقول له بنفس مُتهدج :

- كلام الحكماء، لابيودي، ولا بيحبيب. نظر لها في استنكار.

- إزاي بس؟! لازم نسمع كلامهم، علشان التزيف ده يقف. نظرت له في خوف

- أكثر من أسبوعين روحنا لعشرين واحد، ولا واحد بيحبيب نتيجة !!

- الصبر.. يا أم فضيل، لازم الصبر.

- أنا معدتي مش بتوجعني، ودي مش قرحة. الموضوع أكبر من كدة!!

عاصم: يعني تكديهم ونصدقك؟!

فيروز: أيوه أنا صاحبة العلة، وأنا قتلهم إن بطني فيها حاجة لعينة؟! عاملة زى الحجر، كل يوم بتكبر، لغاية ما تخلص على. هز عاصم رأسه في عجز.
- لا إله إلا الله، عملوك أشعة وتحاليل أورام، والنتيجة إن عندك إلتهاب في جدار المعدة. نظرت له في يأس:

- حاسة إن نهايتي قربت؟!

عاصم: بعد الشر عليكى، ما تقوليش الكلام ده يا شيخة. دول شوية مرض، ويروحوا لحالهم.

أغلق الباب خلفه حزناً، وهو يدعو لها بالشفاء، حاول أن يستشف ما بها، لكنه عجز!!، فلا حيلة في الموت، ولا شفاة في الرزق، ولا يملك لها سوى الدُعاء بشفاء قريب.

وبينما الجميع فى المنطقة يشربون (الشربات)، من مقهى بيومى الذى وزعه عليهم بالمجان، والزغاريد تملأ الحى، احتفالاً بالقضاء على الوحش ورجوع الحياة إلى طبيعتها. كان عاصم نائمًا وعلى المنضدة طبق به قطعة كبيرة من الجبن، تتناقص تدريجياً، دون أن يأكل منها !!

المستشفى العام - عنبر المَخ والأعصاب

كيلو واحد من الموز، وآخر من البرتقال وضعهم (نصر اليهودي)، على الكومود الصحاحى الصدى، المجاور لسرير (يعقوب الصائغ)، قشر له برتقالة، حاول أن يحركه، لكنه وجد صعوبة بالغة، فلقد أصيب بالشلل فى الجانب الأيمن من جسده ! فاستعان بإحدى الممرضات، لتُعدّل جلسته على فراش المرض، قرب قطعة البرتقال من فمه، لكنه أشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى، ووجهه مُبلل بالدموع. حاول نصر مواساته قائلاً:

- مجد سيد ياعم (يعقوب)، مش كده ...، أغمض يعقوب عينيه فى ألم وهو يتمتم ببعض الكلمات، فقال له نصر مواسياً، وهو يضع يده فوق يدي يعقوب.
- غأغمض يعقوب عينيه

بكرة تبقى كويس، وترجع لتجارتك ومالك . نظري يعقوب إلى النافذة الكبيرة المطلّة على الإسكندرية القديمة والشمس تغرب رويداً رويداً من فوق مدافن الأرمن بصلبانها الطويلة البيضاء، والملجأ اليونانى، والبحر الهادئ، وحديقة الشلالات الجميلة، ابتسم فى حزن قائلاً:

- تجارتى ومالى؟! عشت طول عمرى علشانهم، حبيتهم أكثر من أى شىء، رفضت إنى أتزوج، وأجيب زوجة وأطفال يشاركونى فيهم.أيده نصر قائلاً:

- يا عم، بلا عيال، بلا زوجة، بلا، هم؟!... كل اللي بيقولوه في الدنيا ... هات، هات، عاوزين فلوس مدارس، وكتب، وأكل وشرب، وكسوة، دى حاجة تجيب الفقر والمرض . ابتسم يعقوب في وهن .

- مش لو كان فيه زوجة، كانت سندننى معاك، بدل الممرضة اللي شحتها بالعافية ! ولو كان فيه ابن كان وقف معايا، وشدنى في مرضى، وخذ عزايا لما أموت. زم نصر شفتيه في عتابٍ قائلاً:

- هو أنا قصرت معاك، في حاجة يا (عم يعقوب). أنت زى أبويا تمام، أنا ركبت عربية الإسعاف مكان ابنك، وهاسندك لأخر لحظة في عمرى .

يعقوب: أنا عارف يا نصر، لكن في حاجات تانية يا بنى غير كدة؟! أنت بتزورنى كل يوم وانا معطلك؟! مش عاوز أكون تقيل

نصر: أنا بزورك كل يوم، وبتابع المحل، وهافضل معاك لحد ما تخف.

يعقوب: أخف لمين؟!!

نصر: تخف للناس اللي أنت بتساعدهم، وبتفك زنقتهم، تخف لشغلك ومالك، تخف علشانى .

يعقوب: عارف إني ربيتك على كده. لكن إحنا مش بنفك زنقتهم، الربا مش مساعدة، الربا بيزنقهم أكثر، بيخلص عليهم . صمت نصر للحظات، تذكر ذلك الحوار البائس الذى دار بينه وبين (عاصم) فى ذلك اليوم الذى تشاجرا فيه، لايدرى لماذا تذكر تلك الآية التى قالها :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ) . لكنه ردد كلماته التى حفظها منه

نصر: إزاي ياعم يعقوب . المال هو كل شىء فى الدنيا!! هو السلطة والقوة والسند، من غيره نبقى ضعاف، ويتجرأ الرعاع علينا. طلب منه يعقوب كوب الماء الذى أمامه، قدمه نصر إليه، فقال له وهو يتطلع للشمس التى تغطس تدريجياً فى البحر الهادئ، مُخلفة خلفها نصف برتقالة هائلة الحجم .

يعقوب: ده كلام أهل دنيا ! لكن المسافر له كلام آخر. نظر له نصر في
استفهام! فاستطرد يعقوب

- علمتني محنتي الأخيرة، درس مُهم، في حاجات مش ممكن نشتريها
بالفلوس، حاجات ما كناش بنشوفها لا أنا ولا أنت: الصحة، الأسرة، الحب،
الأمان

نصر: كل دول، ممكن شراؤهم بالفلوس؟!

يعقوب: ممكن فعلاً، تأجر واحدة تقعد معاك كام يوم، أو تمر بعلاقة
عابرة، لكنها مش هاتحك، ومش هاتقلق عليك وتسهر على راحتك كزوجتك!!.
وممكن تشتري أحسن أكل في الدُّنيا، وماتقدرش تدوق منه لقمة واحدة، بسبب
علة في معدتك؟! المال مش كل شيء!. والدليل أنا!، دلوقتي بموت وحيد،
غريب، زى الكلب الجريان فوق سرير قذر، في مستشفى حكومي مافكرتش حتى
أنى اتنقل مستشفى استثماري نظيف، علشان أحافظ على الفلوس . شفت
بقي إن إحنا اللي عبيد عنده، مش هو اللي بيخدمنا؟ رد نصر والدموع في عينيه:
- كانت رغبتك يا عم (يعقوب)، لكن ممكن أنقلك إلى مستشفى خاص، من
بكرة إن شاء الله . ابتسم يعقوب في يأس .

- خلاص .. الوقت فات؟! قاطعها شخص مُربع، حاد القسمات، يشبه
(شجيع السيماء) في أوبريت الليلة الكبيرة بشاربه الكث، وجسمه العريض،
وكرشه المتمدل، يرتدى جاكيت كاروهات ماتت صحته من سبعينيات القرن
الماضي، وكرافطة عتيقة لها نفس الطراز، اقترب من سرير يعقوب قائلاً.

- مساء الخير، أسف تأخرت قليلاً يا خواجه يعقوب، نظر يعقوب له في
جدية، دون أن يرد السلام، والتفت لنصر قائلاً وهو يشير للرجل المربع قائلاً

- ده الأستاذ (عادل شمس) المحامى، سيعطيك بعض الأوراق، وقعها

حالا. صمت نصر ويعقوب، بينما طغى صوت حفيف أوراق (المحامي)، وهو يخرجها من الحقيبة، ويقدمها لهما، كي يوقعانها. حتى انتهى الرجل من جميع الأوراق فقال:

- أنا أنهيت جميع الإجراءات، وإن شاء الله من باكر، سأنتهي باقى التسجيل، فى الشهر العقارى . كان نصر مذهولاً، فقد تأكد له أن يعقوب يحتضر، إنه يعرفه جيداً، لا يأمن أى إنسان على هذه الأرض، حتى ولو كان ولده الذى أنجبه، فمالذى حدث؟! كيف كتب لتوه توكيلاً عاماً له، بإدارة جميع أملاكه والتصرف بها. انتبه على يد يعقوب الباردة وهى تُربت على يديه فى حثو قائلاً.

- نصف مليون جنيهه كُلى ما جمعته من الدنيا!!!، خُذ نصفها لك، وتاجر شريطة، ألا تُتاجر فى الذهب مرة أخرى!. أما النصف الآخر، فتبرع به للمُجا الأيتام اليونانى، الذى تربيت فيه!! . شحب وجهه، وغامت عينيه وهو يقول .

دنيا بنت كلب!! المتغطى بيها عريان، خد بالك من زوجتك وأولادك، هما دول الكنز الحقيقى!! . إلحق نفسك، وحافظ عليهم، بدل ما تموت وحيد زى كلب فى خرابة؟! ولن تأخذ معك أى شىء، خلاص .. روح يا نصر.. عاوز أن أنام . قَبَل نصر جبينه فى تأثر، سار عبر الممر الطويل ببطء، كان شارداً، يستعيد كل كلمة قالها له (يعقوب). انتبه على صوت أنثوى غليظ، ينادى عليه

- يا أستاذ .. يا أستاذ ... إلحق قريبك.

هرول عائداً إلى غرفة يعقوب، فوجده مُحاطاً بمجموعة من المعاطف البيضاء، وعلى وجوههم علامات الأسف، اقترب أكثر ليتحقق منه، فوجدوهم قد وضعوا على وجهه ملاءة بيضاء، تلك العلامة الفارقة بين الحياة .. ونهايتها .

جلس عاصم، أمام سرير (جابر العريف)، مساعده المريض، الذي كان نائمًا بلا حرك، بينما كانت زوجته (سماح)، تجلس بجواره في انكسار. وعلى الأرض ثلاثة أطفال صغار، يفتحون أكياس الفاكهة التي أحضرها عاصم، ويأكلون منها في نهم، اعتاد عاصم تلك الزيارة نصف الشهرية لأسرة جابر، تابع الأطفال في ألم، ثم قال لزوجته وهو يشير إلى جابر النائم بلا حراك .

- عامل أيه دلوقتي . قالت بصوت واهن في يأس :

- الحمد لله، بس مفيش تحسن، رد عليها

- الدكاترة قالوا أيه .

سماح : أنت عارف، بيقولوا إن عنده اكتئاب حاد!! وحالته صعب، ربنا موجود يا عم عاصم. أشار للأطفال قائلاً:

عاصم: طيب يا بنتي ناقصك أو ناقصهم حاجة، رفعت يديها الى السماء قائلة:

- ربنا يسترك، أنت مش بتسيبنا أبداً، بس هو في حد عارف العنوان غيرك؟

عاصم: ليه يا بنتي السؤال ده، ترددت سماح قليلاً ثم قالت:

- فيه حد ببيعت مظروف فلوس كل شهر، فيه مبلغ محترم . تهلل وجه

عاصم في فرح قائلاً:

- الحمد لله يا بنتي .

- بس كنت عاوزة أعرف، مين بيبيع الفلوس دى، قطب عاصم حاجبيه
فى دهشة قائلاً:

- مش مهم، المهم إن ده رزق وربنا باعته ليكى ولهم، جابر كان جدع وابن
حلال، ويستاهل كل خير، فماتسألش يا بنتى. غادر المستشفى، وسارشاردًا فى
الشارع، يشعر بذنب تجاه جابر، فهو يتحمل جزءًا من الخطأ، كان يجب منعه
من الاستمرار. لم يكن جابر مُهينًا لذلك العمل، ولذلك هو يخشى على عبودة
بالفعل! يدعو الله من قلبه أن يبعث له من يساعده، بحب لأن يؤدى وظيفة،
فالحب، والحب فقط، هو جواز المرور من تلك البوابة. بوابة المشرحة!! تذكر
تلك الليلة المشنومة، التى راح ضحيتها مساعده (جابر العريف).

حريق مصنع الأسمدة.....ليلة الميت الحى

الدخان الكثيف يغطى سماء الإسكندرية، عشرات الجثث تصطف داخل
الثلاجة وعلى الأرض، دوى سيارات الإسعاف، والمطافئ لم ينقطع لحظة واحدة،
يوم رهيب لم ينم فيه أحد بالمستشفى الأميرى، لم يكن عبودة التومرجى قد تم
نقله إلى هنا، كان فقط هو، ومساعدته جابر، وثلاثة رجال متطوعين. كان عاصم
مريضًا، ويأخذ الكثير من المسكنات، لم يكن مسموحًا لهم فى مثل تلك الكوارث
بكلمة إجازة، عمل مع الدكتور سامح أكثر من اثنتى عشرة ساعة متواصلة رغم
مرضه الشديد، وتساقط رجاله واحدًا تلو الآخر.

فى المساء، امتلأت الأدرج بالعمال الشهداء الذين احترقوا وهم يؤدون
واجبهم، اضطروا لصف البعض منهم فوق المنضدة الكبيرة الباردة، حتى يأتى
الصباح. كان الليل حالًا، والشوارع قد تحولت إلى سُرّادق كبير، لا تسمع فيه
سوى صوت القرآن الكريم، فى الشوارع والمقاهى، فهناك وجع فى كل شارع أو
حارة. كان (جابر العريف)، مُنك القوى، قليل الخبرة، يلتصق دومًا بعاصم،

ويحاول أن يتعلم منه شيئاً، كان يخاف أحياناً، مثل عبودة، ويبدو أنه اضطر لقبول تلك الوظيفة الصعبة، نصحه عاصم قائلاً

- يا بنى لومش قادر عليها، سيبها، كان يرد في حزن

- نعملوا أيه يا عم عاصم، أكل العيش مر، وفي رقبتى كوم لحم !! جلس عاصم معه في الحديقة، يشربان الشاي، كان الخدر قد تسلل إلى بدنه، بينما عينا (جابر العريف) مُعلقة على المبنى، كان متوتراً بشدة، بسبب تلك المشاهد البشعة التي رآها اليوم، لن يتذوق اللحم المشوى، ما بقى حياً!! ضربت الحمى عاصم، وأخذ يهذى، سقط في بئرٍ سحيقة، وهو نائم في فراشه تحت شجرة الجميز، حاول (جابر) إعطائه مشروباً ينعشه، إلا أن عاصم لم يستجب، سمع صوتاً مكتوماً يأتي من داخل الثلاجة، حركة غير طبيعية!! اصطكت أسنان جابر العريف، وهو يسمع بعض الطرقات على زجاج المشرحة من الداخل، بحث عن الكشاف الذي يحمله عاصم، للحالات الطارئة، وجده داخل حقيبته، حمله بيدٍ مُرتعشة، وهو ينادى على عاصم بصوتٍ متهتج.

- إصحي يا عم عاصم، فيه حد بيخبط على القزاز من جوا، لم يتذكر عاصم

سوى يد ابنه فضيل وهي تمتد إليه فأخذ يهذى

- فضيل... فضيل

كان (جابر العريف)، في موقف لا يحسد عليه، فالطرقات تزداد على النافذة من الداخل، اقترب بأقدام مرتعدة، نحو الزجاج القريب من النافذة، الأصابع واضحة على النوافذ، والأنين المكتوم يرتفع، اقترب جابر من النافذة، فصرخ ساقطاً أرضاً، عندما وجد وجهاً مُحترقاً، له عين واحدة بينما طُمست الأخرى تماماً بفعل النيران، وأسنانه بارزة، يفتح فمه أمام النافذة. صرخ (جابر) في هستيريا، وهو يبحث عن مفتاح البوابة لهرب، حاول تسلق السور إلا أن ساقه لم تتمكن من حمله، فلقد كان خائر القوى، ازداد صراخه،

عندما حطمت الجثة المحترقة الزجاج بألة، حادة، وعبرت الزجاج، غير عابئة بالدماء التي سالت من جسدها العارى، بينما انكمش جابر العريف بجوار عاصم، منبطحاً أرضاً، وهو يهزه بيدٍ واهنة، وعاصم لا يقوى على النهوض من شدة الحمى،؟ سقطت الجثة أرضاً ثم وقفت عارية تماماً، كانت لرجل متوسط الطول، يتألم، ويصرخ مُتجهًا نحو جابر بخطوات سريعة وهو يصرخ

- النار في كل حنة، النار. أصيب بعدها، جابر بنوبة عصبية، أخذ يضرب رأسه في الحائط، بينما الجثة تحاول القفز من فوق السور، وهي تصرخ:

- ميتين كثير، ميتين كثير. نهض عاصم على ذلك المشهد البشع، بعدما تجمع عدد من المارة، وبعض مرضى المستشفى بسبب ذلك الصراخ المستمر القادم من المشرحة.

جريدة المساء

ويرجع سبب الحادث الذى حدث بالمشرحة أمس، إلى الضغط العصبى الذى وقع فيه أحد الاطباء، وتسبب ذلك فى تشخيص خاطئ لوفاة أحد العمال الذى استيقظ بعد عدة ساعات، بسبب برودة منضدة المشرحة، وتلامسها مع جسده المحترق، ليفيق فى حالة فزع رهيبه، بسبب الجثث التى شاهدها حوله، وتسبب الحادث، فى إصابة أحد عمال المشرحة، بصدمة عصبية حادة، بسبب ظنه أن الميت المحترق قد استيقظ؟!، هذا وقد تم إجراء التحقيق مع العامل الآخر، وتبين أنه كان نائمًا، من شدة مرضه، ومن فرط العمل.

سار عاصم شاردًا عبر الطريق الطويل حتى وصل إلى المبنى القصير، دلف من البوابة الكبيرة للمشرحة، وعبر إلى الحديقة، كان يشعر بذنبٍ فظيع تجاه (جابر)، هو الذى تسبب فى إيذائه، بهذا الشكل المخيف، لقد كان مريضاً واهناً، أنهكه التعب، ندت منه دمعة وهو ينظر إلى السماء

- يارب اغفرلى، مكتوب عليّ، أتسبب فى أذى كل اللى بيحبونى، وثقوا فىّ.

سمع نداء عبودة، وهو يضع أمامه وارداً جديداً على الترولى، قائلاً:

- يا عم عاصم، تعالى استلم، اقترب عاصم من البوابة، كان متجهماً وهو يفتح لعبودة. تسلم منه الوارد، قرأ اسم المتوفى (يعقوب أرميا مزراحي)، إنه هو، جار آخر ينضم للقائمة، كان حزيناً جداً ولا يضحك كعادته. سأله عبودة، وهو يحاول الدخول للحديقة

- مالك يا عم عاصم، منعه عاصم بيده قائلاً:

- إمشى يا عبودة، وماتجيش هنا تانى، وأنا هابلغ الدكتور سامح أنك اعتذرت، تغير وجه عبودة قائلاً

- ليه هو أنا عملت حاجة، رد عاصم فى غضب

- لأبس ما تستغسل حاجة مش على مزاجك، رد عليه نفس الرد القديم، الذى قاله (جابر):

- أنا مضطر علشان لقمة العيش، صرخ عاصم فى وجهه:

- تغور لقمة العيش يا أخى، لو هاتضرك، ربنا اللى بيرزق، مش عاوزك تحصل (جابر العريف)، زى أنت ما بتقول، توتر عبودة بعدما سمع جملته الأخيرة، ورد عليه فى قائلاً فى عصبية:

- يبقى كلام الناس اللى بيقولوه، إن المشرحة هى اللى جننته صح؟! صمت عاصم فى حزن قائلاً

- المشرحة مش السبب. قطب عبودة حاجبيه وهو ينظر إلى عاصم فى فضول، فقال عاصم فى أسف

- الحقيقة، أنا السبب؟! اتسعت حدقتا عبودة رعباً قائلاً فى غضب:

- أنا قلت كدة والله، أنت هاتكون سبب فى جنانى. هز عاصم رأسه فى حزن

- أنا يومها كنت عيان، وأخذت دوا خدرنى من غير ما عرف، وما عرفش أن ها يحصل كده، غضب عبودة وتركه، وهو يقول جملته المعتادة:

- الله يلعن دى شغلانة على يلعن اليوم اللى شفتك فيه .. ربنا يتوب علينا.

لم ينتبه عاصم لتلك العيون التى تتابعه من خلف القضبان الحديدية للمشرفة، وصاحبها يبتسم فى شماته .

- هى دى التجارة اللى بتشتغل فيها يا عاصم، بتشتغل فى المشرفة. باغتت المفاجأة عاصم، آخر شخص تمنى أن يراه.

عاصم: نصر اليهودى !!! أيه اللى جابك هنا.

نصر: أنت أيه اللى وصلك لهناء؟ مش معقولة من تاجر قماش ومنى فاتورة كبير، وتوصل لكده. كان ينظر له باشمئزاز، بينما عاصم يبتسم له فى سلام، وكأن العمر قد عاد به خمسة عشرة عامًا كاملة إلى الوراء.

الإسكندرية عام ١٩٨٥

وكالة عاصم الغول وأبنائه

وقفت النسوة، بأعدادٍ كبيرة، داخل وخارج الوكالة، ومعهن بناتهن المُقبلات على الزواج، يُقلبن البضاعة، ويقمن بمحاولات فصال مُستميتة مع البائعين، بينما جلس رجل قوى البُنْيَان على مكتب كبير بداخل الوكالة، مُمتلئ الجسد يلبس جلبابًا حريريًا فاخرًا، وحوله أصناف البضاعة المُختلفة، ملابس للعرائس، وأقمشة من كل نوع حرير هندي، قطن مصرى نمره واحد، دانتييل وساتان وصوف إنجليزي. كل الباعة مشغولين، بينما الرجل يُمسك سماعة الهاتف الأسود العتيق أمرًا أحد رجاله على الطرف الآخر:

- البضاعة تأخرت في المينا، ومش لازم تبات، عندنا طلبات للعملاء لازم نوفيها ... اتصرف يا (على)، نفث في ضجر وهو يسمع تبريرًا قادمًا من الطرف الآخر، فقاطعه في صلف .

- ماليش دعوة بالكلام ده ... أنا بدفع كويس علشان رجالتك تخلصني الأول .. ومفيش كلام بعد كده .. اللواري تكون عندي قبل الساعة تسعة مساء، وإلا المعاملة هتختلف بعد كده !!! لم يمهله فرصة للحديث، بل أغلق الهاتف في وجهه وهو في قمة الضجر مُغمغمًا

- أعوذ بالله ..شوية حرامية؟! قاطعته سيده نحيلة بجوارها فتاة يافعة،
مبتسمة للحياة.

- أرجوك يا معلم عاصم، إكرمنا في القماش، رجالتك شادين حيلهم علينا،
واحننا ناس غلابة . لكنه رد عليها في غرور.

- والله يا حاجة، دى أسعارنا، وأنت عارفة، إن بضاعتنا أحسن بضاعة في
السوق، ردت في عجز

- بس إنتوا كده بتدبحونا، ابتسم في برود

- والله السوق مليون قدامك!! زفرت في غضب وهي تشد ابنتها التي اختفت
إشراقتها، واكتسى وجهها النضر، بملامح انكسار مُفاجئ قائلة:

- ياما الحرير الهندي ده، مالوش زى في إسكندرية كُلمها، معلش ياما!. نظرت
له السيدة الصلبة في تحد ناهرة ابنتها

- لأ، خلاص .. مش هانجيبيوا من عندوا .. حسبي الله ونعم الوكيل !!..
الناس انسعرت !!، تغير وجهه في غضب بينما سحبت السيدة فتاتها وهما يجران
أذيال الخيبة. حاول عاصم أن يُغطى على نظرات التعاطف التي كست ملامح
بائعى المحل قائلاً:

- عالم فقيرة ..وأنتوا مالكوا ومال الحرير الهندي، أنتوا تلبسوا كستور
أوضمور أحسن؟! ضحك الجميع على نُكتة سيدهم السخيفة، حفاظاً على
لُقمة العيش . اقتربت الساعة من السادسة، ترك مكتبه الخاص، ودلف إلى
غُرْفة جانبية، عاد بعدها مُرتديًا حُلَّة إنجليزية فاخرة، وحذاء لميغًا، وفي يده
عصا أبنوسية فاخرة، وكأنها صولجان .

- هات يا محروس الدفاتر وتعالى. جلس محروس بجواره، ليطلعه على
الحسابات قبل انطلاقه إلى عالمه الخاص . لكنهما توقفا بمُجرد دخول شاب
أسمر قوى، حليق الرأس طويل القامة، حلو القسمات، يرتدى ملابس

عسكرية، وعلى كتفه نجمة واحدة فقط. وقف (عاصم) يُرحب به ويحتضنه، ترك رجال الوكالة ما في أيديهم للحظات للاحتفاء بالشاب. قائلين - حمدالله على السلامة يا كابتن (فُضيل). جذبته عاصم من يده وهو يحتضنه بحرارة قائلاً

- حمدالله على السلامة، يا (فُضيل)؟ أنت لسة واصل؟ رد فُضيل بهدوء - أنا في إجازة عشر ساعات يا حاج، عديت على الحاجة، وانغديت معاها، وقلت آحى أسلم عليك. اكفهروجه عاصم قائلاً: .
- يابنى أنت بقالك أكثر من شهرين غايب، وتيجى عشر ساعات بس؟! - أعمل أيه بس يا حاج! ظروف شُغلى كده؟!
- ما قُلتلك، نكلموك واسطة كبيرة، تنقلك حته مستريحة جنبنا. وتنزل مُبببت (كُل يوم)

- أنت عارف رأي في الموضوع ده.
- ما البلد كلها ماشية كده، وماجتش عليك؟!
- أنت عارف، أنا ما بحبش الكلمة دى. زفر عاصم في ضيق - زهقتنى، أنت ماشى بدماعك وراكها، صمت فُضيل في هدوء بينما احتد عاصم قائلاً:

- أخذت إيه من اللى بتعمله ده!! مش كان وكالتك وبيتك أولى بيك، إحنا مش محتاجين والحمدلله

ابتسم فُضيل في هدوء قائلاً

- كُلتنا محتاجين يا حاج؟؟ غنى وفقير محتاجين!! وبعدين دى طبيعة شغلى، أمرالله .

كان عاصم غير مُقتنع

- لأمش كلنا محتاجين!!، وسيبك من الدروشة اللى أنت فيها دى، وبعدين
يا بنى أنت على طول تاعبنا، لا عارفينلك (مُعسكر) نسألوا عليك فيه، ولا
بتسافرتروح فين؟!

فضيل: أنت عارف إحنا فى حالة طوارئ، وجيت أسلم عليك قبل ما أسافر
علشان ممكن السفرية تطول. لم يُمهله عاصم قائلاً:

- خلاص أقعد اتغدى، نادى على محروس مساعده

- يا محروس، اقترب محروس مُسرِعاً، وهو يتأمل ذلك الشاب فارع الطول
ذو البزة العسكرية ويحتضنه قائلاً

- حمد الله على السلامة يا بنى عى .

فضيل: الله يسلمك محروس، إزاي مرات عى

محروس: والله بخير، قاطعهم عاصم فى ضجر متحدثاً لمحروس

- خلاص يا محروس، علشان وقت الكابتين!!، ابعت هات كيلو مشكل
بالسلطات، علشان نغديه، قاطعه فُضيل فى أدب :

- والله لسة الحاجة مغديانى، مانت عارفها مش هاتسيبنى وكانت عاوزة
تديلى أكل لزمائلى كمان

عاصم: خلاص خليها عندى

- لأمش ها ينفع علشان، عندى ميعاد طيارة

- أنت مسافر فى مُهمة؟!

- ابتسم فُضيل فى أدب ولم يُعلق، إن نطق أبا الهول .. هو سينطق!! نظر
عاصم فى يأس، مُتفهِماً ظروفه، لكنه كان مُزعجاً من حياته بشدة، فهو منذ
إلتحاقه بذلك السلاح وهو لا يعرف عنه شيئاً، ولا يراه تقريباً سوى عدة مرات،

لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة في العام كله؟ هو حبيبته، وابنه الأثير إلى قلبه، أما الصغير حسين، فمزعج وكثير المشاكل، ولا يُمكنه أن يتحمل مسئولية وكالة كبيرة كهذه. ضغط الجرس مرة أخرى فجاءه محروس أشار له فاقرب منه، فقال له هامساً:

- خلمهم خمسة كيلو بسرعة، علشان حضرات الضباط يتعشوا، لما يرجع الوحدة، وبسرعة جداً علشان يلحق يرجع. وافق فضيل على مضد، بينما مدّ عاصم يده في الدُرج وأخرج رُزمة كبيرة من النقود، مد بها يده إلى فضيل .

- خُد الفلوس دى، ابتسم فضيل فى هدوء وهو يُخرج مبلغاً، قائلاً

- والله معايا، فلوس ... وكثير كمان، اندهش عاصم، لم يكن المبلغ الذى معه يزيد على مائتى جنيه! ومع ذلك يُسممهم . كتيبيير!! يُنفق هو فى حانة سبيد فاير ضعف هذا المبلغ فى ليلة واحدة! بينما يُنفق المحروس (حسين) أكثر من مائة جنيه فى اليوم الواحد!. قال له مُستنكراً

- يابنى عيب؟! بتقول على المائتى جنيه كتير، أنت ابن الحاج (عاصم الغول)، أكبر مستورد فُماش فى إسكندرية؟! ابتسم فضيل وهو ينظر شارداً فى السماء قائلاً:

- من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك... ابن عطاء الله

ما الذى جرى لهذا الولد، هل صار درويشاً؟!، من الذى علمه هذا الكلام. هو فى أوج فتوته وشبابه، فلم هذا الزهد؟! كان مُعترضاً على أسلوب حياته الذى يتسم بالجدية الشديدة والتقشف، ويعلم أن فضيل غير راضٍ عن أسلوب حياته منذ أن كان طفلاً صغيراً، وقد يكون ذلك أحد الأسباب التى جعلته ينخرط فى الحياة العسكرية! ربما؟!

- يا بنى أية لازمة الحياة، من غير ما تستمتع بيها وأنت صغير؟ عيش حياتك.
قال له في حزم

- كلُّ يُسر لما خُلِق له وأنا اخترت طريقى، وادع لى ينهيه الله لى كما تمنيته.
حضر الطعام، فلم يتذوق منه شيئاً وإنما حملة داخل حقيبته الكبيرة، التى
تُشبه المخلاة العسكرية .

عاصم: يا بنى فى حاجات أهم من أنك تموت صغير، و(الشهادة) والكلام
الى أنت بتوجع بيه قلوبنا، من وأنت فى ثانوى . نظر فضيل لأبيه فى عتاب قائلاً:

- وما فائدة الحياة إن عاش الإنسان فيها بلا قيمة، يتمتع ويأكل كما تأكل
الأنعام؟! شعر عاصم بوخز كلماته الأخيرة، بالطبع هو يعنيه . كان صوت
المدنياع الدائر فى الوكالة يُذيع خبراً هاماً

(هذا ولا تزال الجهود مبذولة، للتفاوض مع خاطفى الطائرة، للحفاظ على
سلامة الركاب).. انتفض (فضيل) بعد سماعه الخبر مباشرة قائلاً:

- أنا لازم أمشى علشان تأخرت، تأمله عاصم بحب، بينما فضيل يكبح
شيئاً تلاً فى عينيه، تعلم فى العسكرية أنها من رابع المستحيلات. فلامجال هناك
للدموع، حولها إلى ابتسامة كبيرة قائلاً لعاصم.

- أشوف وشك بخير؟! بكى عاصم وهو يحتضنه بقوة قائلاً
- اوعدى الإجازة الجاية، تكون طويلة، ونقضها مع بعض، ابتسم فضيل
- إن شاء الله .. والمهم إنك تكون بخير... انطلق حاملاً جعبته الكبيرة خلف
ظهره، بينما عاصم يُراقبه حتى اختفى فى الشارع الكبير، بعدها شعر برغبة فى
نسيان كل شىء، فانطلق إلى (سبيت فاير)

حانة سبيت فاير - شارع البورصة القديمة بالمنشية

جلس شاردًا يُدخن سيجارته، يُحملك في الجدران ويراقب صديقته (أماليا) الجريجية. صاحبة الحانة، وهي تعطي تعليماتها من أجل سهرة الليلة، فليلة الخميس ذات طابع خاص داخل (سبيت فاير)، إنه يعيش هذا المكان العريق، مُلتقى البحارة من كل العالم، ومُلتقى فلول الأجنب، التي عشقت الإسكندرية حتى النخاع، وقرروا أن يكملوا ما تبقى من حياتهم على رمالها مهما كلفهم ذلك من ثمن، يونانيون، أتراك، يهود مصريين، وأرمن، الكل هنا واحد، فالإسكندرية قد صارت تجرى في دماءهم، مجرى الدم في العروق، ولن يتوقف حينها إلا بتوقف عجلة الحياة عن الدوران.

المكان أنيق وإن بدا صغيرًا، مرقص متوسط الحجم، صُفِّط حوله المناضد بطريقة دائرية بارعة. ذكرته جدران الحانة بابنه فُضيل، فهو يُشبه هؤلاء البحارة المجانين، الذين لا يستقرون أبدًا، تأمل الجدران في حزن، فجدران سبيت فاير ليست كأية جدران، فلقد حولها البحارة حائطًا لذكرياتهم، وعلقوا عليها كل شيء يُذكر المكان بهم. منهم من ترك شارته العسكرية، أو صورة حبيبته التي فقدوها، ومعها كلمة صغيرة على الحائط، تقول إنه مر من هنا، ومنهم من علق علم دولته، أو علم فريق الكُرة الذي يُشجعه، بعضهم ترك منديلًا به كلمة وداع من حبيبته، والبعض الآخر ترك زجاجة فارغة بها رسالة وجدها في البحر، لم تصل إلى بغيتها ولن تصل أبدًا!، نماذج صغيرة للسفن التي يعملون عليها،

علب التبغ الفارغة والغليونات. كان يتأمل كل تلك التفاصيل، وهو يستمع إلى الموسيقى اليونانية الحاملة. انتبه لتلك اليد الناعمة التي تُداعب ذقنه، (أماليا) اليونانية العجربة المجنونة بحب الإسكندرية، ورثت المكان من أجدادها، آخر ما تبقى من سلالة اليونانيين بالإسكندرية، امرأة أريينية فاتنة، تتكلم كأهل الإسكندرية، عشقها وتزوجها سرًا. لا أحد عرف به سوى مساعده (محروس)، جلست أمامه في دلال قائلة بلغة عربية (مكسرة)

- مالك يا عاصم، شكلك حزين الليلة

عاصم: آه، الولد ابني الكبير، أنا قلق عليه جدًّا، عارف إني مش بهتم بحد من فترة، ولكن الولد ده مُختلف .

أماليا: هو دلوقتي راجل عسكري، مش لازم تقلق عليه .

عاصم: السبب ده، هو مصدر خوفي عليه، زارني النهاردة، كان هادئ وغامض، حسيت فيه بحكمة وخبرة تفوق سنين عمره القليلة، تهتدت أماليا في حكمة قائلة:

- الحروب يا عزيزي، تجعل الوليد يشيب قبل أوانه. فلا تندهبش. هزّ عاصم رأسه في أسى تأكيدًا على كلامها قائلاً وهو يتناول كأسًا قدمته له .

- عارف ده كويس، لكننه كان بيعاتبني المرة دى بحُب!! شعرت أن الأدوار تبدلت، وأنه لعب دور أبي الذي كان يوبخني، سقطت دمعة من عينيه وهو يقول:

- أكثر ما كان يؤلمني، أنه كان يوبخني بأدب، أنا ظلمته كثير أنا أب سئ، وضع راسه فوق المنضدة وكأنه يُخَيِّ وجهه من شيء ما، وانخرط في البكاء، وبينما هي تحاول أن تُخفف عنه بمداعبة شعره، كان (بني) عازف (البوزوكي)⁽¹⁰⁾. قد بدأ

(10) (البوزوكي) هي آلة موسيقية يونانية شهيرة، وهي من الوتريات، تشبه العود قليلاً، إلا أنها تختلف عنه، في طول عنقها، وصغر بطنها، وهي تبدو أرشق من العود في الشكل . وكانت تسمى عند العرب قديمًا باسم ”الطنبور“.

في العزف، واصطف حوله رواد الحانة صفيين متقابلين، عزف موسيقى (زوربا) الساحرة، فانتابت رواد الحانة حُى الرقص المجنون على أنغامها، فجذبتته من يده قائلة

- هون عليك يا عزيزى .. انس همومك وتعالى نرقص . جذبتته دون تردد إلى المرقص، دخل متردداً، لكن سرعان ما نسى كل شىء بفعل أماليا، وكئوس الخمر. استمروا يرقصون قرابة النصف ساعة حتى توقف (بنى) عن العزف، وعاد الجميع إلى طاولاتهم، بينما عاد هو ثملاً، لا يقوى على شىء . كان المذيع من المقهى القريب يذيع خبراً عاجلاً.

- هذا وقد نجحت القوات الخاصة المصرية، من تحرير الطائرة المختطفة في مطار (لوكا) الدولى بمالطا من أيدي الخاطفين، التابعين لجماعة (أبونضال) الفلسطينية، وقد أسفر الحادث عن وقوع عدد من القتلى والجرحى، وإصابة الطائرة، وهى من طراز بوينج ٧٣٧

صباح اليوم التالي، يوم الجمعة...الساعة التاسعة صباحاً

اقترب شخصٌ سمين من شاطئ (الشاطبي)، عبر الكورنيش، وسار في اتجاه الكبائن حتى ظهر له منزل خشبي جميل، لفحه هواء البحر الطيب في ذلك الوقت الهادئ من اليوم فوقف قليلاً، يستنشقه ويراقب مراكب الصيد الصغيرة وهي تبحث عن رزقها، والسفن العملاقة التي تلوح في الأفق البعيد، أشعل سيجارة وجلس فوق صخرة قريبة يفكر:

- ماذا سأقول له !! إن روحه في هذا الولد، لكن يجب أن أخبره، ولا أحد يعرف مكان تلك العشة غري. استجمع شجاعته واقترب من الباب الخشي وطرقه بقوة، كان الوقت لا يزال مبكراً، ولذلك فقد انتظر لفترة، وعاود الطرق مرة أخرى. خرج (عاصم الغول) وهو لا يكاد يفتح عينيه، لكنه انتبه لرؤية مساعده (محروس)، فهو لا يأتي هنا إلا إذا حدث مكروه! استدار بسرعة، وتطلع إلى أماليا التي لازالت نائمة فوق سريرها، ثم خرج صامتاً، وسار بجوار محروس على شاطئ البحر. أشعل سيجارة في توتر، وكأنه يريد أن يؤجل الكلام. فأحياناً تبدأ المتاعب، بعد كلمة صغيرة، وبالفعل قالها:

- خيراً محروس .. أيه اللي جايبك الساعة دي!؟

- والله ما أنا عارف أقولك أيه .. لكن (عاصم) قاطعه قائلاً والدموع في

عينيه

- فضيل !!! مش كدة . استبدت الدهشة بمحروس، لكنه هزرأسه في إيجاب قائلاً

- وعرفت إزاي!! . جلس على الصخرة وهو ينظر للبحر، وجسده ينتفض قائلاً

- طول الليل كان بيزورنى مُبتسمًا، زى عادته، رد عليه محروس باكيًا:

- الله يرحمه ... مات شهيد . مزقت الكلمة قلب (عاصم)، فجلس على الشاطئ يبكي، بينما أماليا، التي استيقظت على الحركة الخافتة، كانت تتابع حركاته، من خلال النافذة الدائرية للمنزل الخشبي، شعرت أن هناك مصيبة، فطلت تراقبه من خلف ستار النافذة، بينما هو يقول لمحروس، وصوته مختنق بالدموع.

- مات في المهمة اللي كان رايعها بالطيارة؟

محروس: راحوا عند الطيارة المخطوفة، اللي كنا بنسمعوا أخبارها من يومين في الراديو، في بلد اسمها مالطة⁽¹⁾

- سبحان الله ! هو كان عاوز كده .. عارف يا محروس، الولد ده طول عمره ابن موت، ومش عادى، عمره ما كان بيلعب، زى الولاد الصغيرين، كنت دايماً تلاقيه ماسك كتاب، أو بيلعب رياضة في المركز القريب، عمره ما أرهقنى بطلبات ولا زعل أمه ... كان ماشى في الدنيا خفيف . تذكر مشهد المائتى جنيه،

والتي كان يعتبرهم ثروة، وهو الذى أنفق في سهرة أمس فقط قرابة أربعمائة. بكي بحرقه فحاول محروس التخفيف عنه

(1) في 23 نوفمبر 1985 أفلعت طائرة مصر للطيران الرحلة 648 في اتجاهها من مطار أثينا إلى مطار القاهرة الدولي، وبعد 10 دقائق من الاقلاع قام ثلاثة أشخاص تابعين لمنظمة أبو نضال باختطاف الطائرة وكانوا مسلحين بأسلحة ثقيلة، وأجبروا قائد الطائرة على الهبوط بها في مطار لوكا الدولي بمالطا، وبعد فشل المفاوضات مع المختطفين، قامت قوة عسكرية مصرية خاصة بعملية اقتحام للطائرة، وقامت بالاشتباك مع الخاطفين ونتج عن ذلك مقتل 56 شخص ممن كانوا داخل الطائرة.

- فضيل بطل يا عمى، والبلد كلها بتتكلم عنه.

عاصم: هو فين دلوقتى..وهايجبوه إمتى؟!

محروس: بكرة إن شاء الله، علشان ها يتعمله جنازة عسكرية هو وزملاؤه

الشهداء .

- عاوز أشوفه بأى تمن، كلم الناس بتوعنا، وشوف ممكن يعملوا لى أيه

ورد علىّ .

محروس: حاضر

عاصم: خلاص رَوح، وأنا جاى حالاً. عاد ولملم أشياءه على عجل، نظر فى عين أماليا طويلاً دون أن يتكلم، ثم رحل. لم يكن يومه التالى سهلاً، خاصة عندما قابله وجهاً لوجه، كان واقفاً على غسله. لأول مرة يرى ميتاً، كان يخشى الموت بطريقة رهيبية، وكان يترك لشقيقه (عوض) رحمه الله تلك المهام الثقيلة، أما هو فقد كان مُحبباً للحياة، لدرجة أنه لم يتذكر الموت قبل ذلك. كان يبكى فى انهيار، بينما الشيخ (هريدى) يضع فى يده قفازاً خشناً، وفضيل مسحى ونصفه العلوى عارى بينما، غطى الباقي بملاءة بيضاء. كان هريدى يتمتم ويغسل الجسد وكأنه يعتنى بطفل. لم يتوقف لحظة عن القراءة والتمتمة، وكأنه لعبة أطفال تعمل بالبطارية الجافة .

ظل يعمل حتى جهزه، كان شيخاً كبيراً تجاوز السبعين، لكنه كان قويًا، فى عينيه لمعة غريبة، وعلى وجهه صفاء عجيب. أزعجته نهبات عاصم التى لم تتوقف لحظة، فتوقف عن العمل وأدار وجهه لعاصم لأول مرة واقترب، كان قصير القامة ويسير ببطء، وكأن فى قدمه إصابة، اقترب منه بشدة ونظر فى عينيه..لاحظ يومها أن الشيخ هريدى، أخضر العينين . قال له جملة واحدة

- أنت بتعيط ليه !!كاد عاصم للوهلة الأولى أن يضربه غضبًا ولسان حاله

يقول، وهل خلق البكاء إلا لهذا الموقف أيها الشيخ الخرف؟! كانت الجملة تدور في رأسه لكنه لم يقلها. بل ظل صامتاً، وهو ينظر في غضب إلى هريدى، الذى جذبه من يديه مُبتسماً وهو يقول :

- عاوزك تشوف حاجة ! تجمد عاصم في مكانه، وكأنه قد صار قطعة من خشب، لا يقوى على السير ولا يريد أن ينظر بينما هريدى يسحبه في قوة شاب في العشرين.

- تعالى بس، هاوريك حاجة، هاتنسيك الحزن كله، أوقفه أمام وجه فضيل .. ظل مغمض العينين لثوان ثم فتحها، وهريدى يقول له في فرح:
- بص كده !!!

لأول وهلة لم يلحظ شيئاً . كانت دقات قلبه تتسارع حتى أنه ظن أنه سيموت، ثم بعد ذلك، رأى الشمس وكأنها تخرج من وجهه، حتى أن النور أذى عينيه، فخبأهما بكفيه، ثم بعد ذلك اعتاد عليه، شعر بالفرحة تدخل قلبه، لاحظ ابتسامته، أقسم أنها كانت تتسع أحياناً، وكأن فمه يتحرك. يا الله، أهذا حقيقى؟ أم أنه يحلم؟ لم يشعر بلذة ولا سعادة أكثر من ذلك، قبله على جبينه في هدوء، ثم وقف ينظر له وكأنه منومٌ مغناطيسيًا، إلا أن الشيخ هريدى غطى وجهه بسرعة وجذبه إلى الخلف قائلاً في حسم.

- خلاص كده ! قال له عاصم بتلقائية:

- طيب ثانية واحدة كمان!! لكن الشيخ هريدى قال، وهو ينظر له بعينه الخضراوين نظرة مُخيفة حازمة:

- لأ، خلاص؟! .. ده سر من أسرار الله، أنا عملت كده علشان هو طلب كده! اندهش عاصم قليلاً.

- تقصد أيه؟!، نهره الشيخ هريدى في عصبية

- ماقصدهش حاجة !!!، أنا عملت كده علشان أبشرك، وإياك تفتح بقك
باللى أنت شفته دلوقتي وإلا حياتك كلها هاتتلخبط. صمت عاصم في دهشة،
لكنه توقف عن البكاء، بل الأغرب أنه قد صار مسرورًا! خرج من ذلك المشهد
الرهييب، وقد شعر أنه قد دخل أحد أفران صهر الحديد، وتم إعادة تشكيله من
جديد، كما تُشكل قطعة المعدن بعد صهرها في النار. مرت طقوس الجنازة بعد
ذلك، ولم يشعر بشيء، زحام رهييب، من السادة المسئولين، بوجوههم الجامدة،
وملابسهم الرسمية، ومناصبهم التي أقسموا أن يحافظوا عليها مهما كلفهم
الأمر!. الصناديق الحزينة لُفت بعلم البلاد، النياشين، والكاميرات، فليذهب
كل ذلك إلى الجحيم، فالنور الذي رآه قد غطى على كل شيء. في سرادق العزاء
وقف صامتًا، اقترب منه رجل أربعيني قوى يرتدى ملابس عسكرية. سلم عليه
ثم قال له

- مقدم (حسام السيد)، أنا قائد الشهيد (فضيل)، وعاوز أكلم حضرتك
لوحدنا. قاده الرجل حيث غرفة مغلقة قائلًا:

- تفضل. جلس الرجل بجوار (عاصم) ووضع يده على ركبته قائلًا:

- طول مدة خدمتي بالصاعقة، مرعلى كثير من الرجال الأشداء. لكنني
أشهد بأنني ماخدمتش مع حد زى ابنك فضيل.هزّ الشاب العسكري رأسه
مُتأثرًا ومتخليًا عن اعتباراته العسكريه، ليلمح عاصم دموعًا في عينيه، وهو
يسترسل:

- كان بيصلى بينا كل فجر ويُذكرنا بالخير، وكان زاهد في الدنيا، وعمره
ماطلب حاجة لنفسه أبدًا، وهو اللي طلب أن يكون أول من يسقط فوق الطائرة
المخطوفة، ليبدأ عملية تحرير الرهائن، ورجاني أن أسمح له بالهجوم على
الانتحاريين. بعد انتهاء العملية، لقوه في المؤخرة، وهو بيحى بجسمه سيدات
وأطفال! وعندما تسلمت جثمانه، ما شفّتش أجمل من وجهه على الإطلاق.

كان (عاصم) يستمع وهو لا يقوى على النظر من كثرة البكاء، لكنه كان مُصدقًا لكل كلمة قالها، فلقد رأى ذلك بعينه، كان حزينًا وسعيدًا ولا يعرف كيف! أخرج الشاب من جيبه مُصحفًا صغيرًا تلوثت مقدمته بالدماء، وتحتة ورقة بيضاء مطوية، ومسبحة، وقرص نحاسي محفور عليه اسم ملازم أول (فضيل عاصم الغول)، قدمها له قائلاً

- أوصاني الشهيد (فضيل) بتوصيل الرسالة، وباقى الحاجة لك..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ
بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)^(١٢)

صدق الله العظيم.

والدى الحبيب، سامحنى على ارتعاشة خطى، فأنا أكتب إليك من طائرة
عسكرية تتأرجح مثل الكرة، ستصلك رسالتى فى حالة واحدة فقط، يوم
استشهادى! اعلم أنها ستكون لحظات ثقيلة على نفسك، ولكنه سيكون أسعد
يوم فى حياتى، أجل فى حياتى، فالشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، سامحنى
فقد كنت ابنًا مُرْعَجًا، لا يُطيعك كثيرًا، لكننى كنت أسمع صوتًا يأتي من قلبى،
صوتٌ أقوى من كل أصوات البشر! ولذلك لم أرضخ لكم كثيرًا. كل ما أرجوه
منك أن تُسامحنى، وتطلب لى الرحمة، وكل ما أرجوه منك أن تُعيد حساباتك فى
تلك الحياة التى لا تساوى شيئًا، فالله قد أعطاك الكثير من كل شىء ولكنك،
لم تقدم له شيئًا حتى الآن. فأرجوك راجع حساباتك قبل فوات الأوان !! .
أستودعك الله رب العالمين.

ابنك الشهيد باذن الله

فُضَيْلُ عَاصِمِ.

أكثر من مائة يوم قضاها لا يشعر بشىء إلا بوخزات الإبر والأدوية التى
يكتبها (الأطباء)، أشعة وتحليل، وزوجته المكلومة تحاول أن تعرف ما ألم به،

(12) سورة لقمان، آية:34.

ولم تجد إجابة شافية من الأطباء زوجك مصاب بمرض عضال وهو الآن في مرحلة متأخرة، فتندهش السيدة وهي تنكر ذلك

- كيف يا دكتور، لقد كان في صحة طيبة ويعيش جيدًا، ولم تتدهور حالته إلا بوفاة ابننا فضيل

- لا، عنده المرض منذ مدة ولكن مقاومته للحياة ضعفت فأظهرت المرض، أظهر لها مجموعة من التقارير البغيضة التي تؤكد كلامه، والتي لم تفهم منها شيئًا، وأنهاها بكلمة قاسية معلبة:

- التحاليل لا تكذب ويجب أن يستمر على العلاج، هو غالي شوية لكن لا بد منه، تعود به شبه جثة من عند الطبيب بمعاونة مساعده (محروس). تنظر لمحروس قائلة:

- اترك لي الأيراد يا محروس، الأشعة والأدوية مكلفة، تظهر علامات الأسى على وجهه قائلاً

- للأسف يا حاجة، المحل بيخسر كثير، بعد غياب (المعلم)، وده هو كل الإيراد، ينفحها جنينيات قليلة، فتهز رأسها في يأس قائلة.
- معلش - ربنا يفرجها .

راجع حساباتك قبل فوات الأوان، ما هي أولويات الحياة، السلطة، المال، النساء، أم السعادة، لقد ملك المال، والبنين فهل كان سعيدًا؟! هو الآن يرقد في هوة سحيقة، وجسده مُتخَنُّ بالحمى، والوهن، الضباب كثيف على عينيه وكأنه على أحد الطرق الزراعية في الصباح الباكر. بعد موت فضيل المُفاجئ، فقد الرغبة في كل شيء، وهو الذي كان ينهل من الدنيا بملء كفيه، إنه الآن يريد أن يُغادر، سيترك كل شيء وراء ظهره، التجارة والعقارات، سيترك أسرته، وأماليا التي يحبها، سيترك سبيت فاير، وسهراته الصباحية، حمل حقيبة خفيفة، وسار في طريق، مُقفر ليس به شيء، الصحراء تحيطه من كل الجوانب، والحرارة تشتد، كلما توغل فيه أكثر، لازرع ولا ثمر، فقط بعض النباتات الصحراوية الجافة، التي لا تُسمن ولا تُغنى من جوع، قال لنفسه:

- سأرحل مهما كلفني الأمر، استمر في السير حتى جف حلقه وخارت قواه، ولم يجد قوتًا ولا ماء، ظهرت له وحوش مُخيفة، نصفها السفلى له أقدام كالإنسان، ونصفها العلوى يقترب شيئًا من الضباع، والكلاب البرية، والفهود، بينما الغريان تنعق فوق رأسه، إنه بلا شك هالك لا محالة، حاول أن يدفع الأذى بيديه، لكن الوحوش اقتربت منه أكثر وحاولت نهشه. استسلم لمصيره. إلا أن يبدأ قوية امتد لتخنق أول وحش وتصرعه، وبسلاحها قتلت الآخر، ففرت بقية الوحوش تعوى في خوف. نام (عاصم) على الأرض الساخنة في وهن، شاهد ببصره المُشوش، ذلك الوجه القوي الذي يبتسم له في حنو بالغ، يبدو جُنديًا

نظاميًا يرتدى ملابس (كاكية) اللون، مد يده وأخرج من حوله وسطه (زمزية ماء كبيرة، فتحها وصب القليل من الماء في فم الرجل، لم يذق في حياته أروع من طعم ذلك الماء البارد، ماء رائق، له مذاق العسل. شعر(عاصم) بالعافية تسرى في بدنه، فأنهضه الشاب القوى وحمله إلى ظل شجرة قريبة. تساءل في نفسه، من أين أتت تلك الشجرة؟! لقد مسح المكان كله بعينه فلم يجد، فتح عينيه بقوة، لكن الضباب حجب عنه وجه الشاب، وإن كان يرى بعد التفاصيل العامة كملابسه العسكرية، وزمزية الماء الكبيرة. قال له الشاب :

- أنت بخير؟. هز عاصم رأسه، فقال له الشاب

- إزاي جيت هنا. رد عاصم في حيرة:

- مش عارف؟. قال له الشاب مبتسمًا

- الرحلة طويلة وزادك قليل، ولا يمكنك اجتياز وادى الهلاك إلا بزاد يكفيك

عاصم: ومن أين لى بالزاد، ابتسم الشاب في حكمة قائلاً

الشاب: عُد وتزود، فإن الطريق طويل.

عاصم: أنا عارف صوتك، لكن الضباب يمنعنى من الرؤية .

الشاب: عد إلى صوابك حتى ينقشع الضباب، وحينها سترانى بوضوح

عاصم: أنا عرفتك، أنت الشهيد فضيل، ابنى! غلبه البكاء فوضع رأسه بين

كفيه، ثم رفعها مرة أخرى قائلاً

- أنا صرت إنسان تانى يا بنى، أعذك بذلك، وهنا انقشع الضباب، ليراه،

كان كالبدرفى تمامه، مُبتسمًا وسعيدًا. احتضنه كثيرًا كثيرًا، لا يريد أن يتركه،

لكن الآخر قال له :

- أنا الآن سأرحل.

- خدنى معك يا بنى، مش ها قدر أعيش الحياة الصعبة دى من غيرك.

دمعت عينا (فضيل)، وهو يجذبه من يده. عدة أمتار حتى ظهر طريق آخر، ملئ بالخضرة والماء العذب. كانت الأشجار المثمرة تملأ المكان. وصوت خريرمياة العذبة، يريح النفس المتعبة، والطيور الملونة التي تطير في سمائه تُذهب العقل لدرجة جعلت عاصم مشدوهاً تماماً، ولا يقوى على الكلام. يا لله ما كل هذا الجمال، رد عليه فضيل في حزم

- سرفى هذا الطريق حتى نهايته ولا تمله أبداً، وإن وصلت إلى نهايته فسوف تلقانى، أستودعك الله.

حاول (عاصم) أن يجرى خلفه لكن فضيل نظرله بحزم قائلاً

- عد فتزود فإن الطريق طويل، ثم اختفى. وبدأ عاصم خطواته على الطريق .

فتح عينيه، القرآن يملأ الغرفة، وصوت بكاء النسوة بالخارج، لاحظ آخر نقطة من المحلول الوريدي تسقط من الزجاج، وأنفه مغطاة بقطنه ورأسه مربوطة من الخلف، وقف شاب طويل يضع سماعة طبية، ويكتب بجديّة شيئاً مُطوَّلاً في ورقة رسمية، بينما يتحرك بعض الغرباء في الغرفة بطريقة مُربّبة، فتح عينيه وهو يشعر بعافية، نهض وجلس في سريره صارخاً في انزعاج.

- بتعملوا أيه هنا، أخرجوا جميعاً .

لم يحتاج أن يكرر ذلك الأمر، فلقد هرب الجميع، حتى الطبيب، تبعه صراخ النسوة والجيران، والكل يفر من المنزل فزعاً وهم يقولون:

- لا إله إلا الله، الراجل الميت صحى، قبل مالدكتور يكتب شهادة وفاته؟!!

خرج عاصم بعدها من المنزل وهو لا يلوى على شيء، ترك كل شيء خلفه، وبحث عنه في كل مكان، وأخيراً وجده يجلس على الدكة الخشبية المُتهالكة أمام باب المشرحة. كان يشرب الشاي وهو يستمع إلى المذياع، وعندما رآه لم تبدو أية إمارات دهشة على وجهه بل قال له في بساطة.

- كُنت عارف إنك هاتيحي، تعالى يا عاصم.

ومن يومها لم يُفارق الشيخ (هريدى) حتى وافته المنية . أنهى عاصم قصته
قائلاً لنصر:

- دى مش قصتى كاملة، ولها بقية، وهاتعرفها فى اوانها !!

ما نفع القلب شيء مثل عزلة، يدخل بها ميدان فكرة ... ابن عطاء الله
السكندري

قد تكون تلك المرة الأولى التي جلس فيها (نصر اليهودي) يبكي . والشيخ
عاصم يُرَبِّت على كتفه، لم يكن مُصدِّقاً أن هذا الرجل غليظ القلب قد تأثر
بهذا الشكل، نظر نصرله والدُموع تطفُر من عينيه قائلاً:

- نفس الكلام اللى كان بيقوله (يعقوب الصايغ) قبل ما يموت. نظرله
عاصم مُستفسراً
- كان بيقول أيه .

نصر: كان بيقول دُنيا بنت كلب .. المتغطى بيها .. عريان .. استطرده قائلاً
- أيه ده يا عم عاصم .. ده لو كان جبل كان انهد ... لأول مرة يُناديه (بعم)
. تنهد عاصم فى هدوء وهو يُشير إلى براد الشاي الأسود العجوز، المُوقد فوق
سخان بدائي فى الحديدقة، بجوار شجرة الجميز العتيقة التى تُلقى بثمارها الطيبة
فى كل مكان. قائلاً فى مرح.

- تشرب شاي؟! تردد نصر اليهودي قليلاً. وهو ينظر ليد عاصم وإلى الأدوات
ضحك عاصم فى هدوء .

- ما تخافش يا بنى، هنا كل حاجة نظيفة، وزى مانت شايف، الحنفيه، والحوض بره خالص فى الجنينة... ومش بنستخدم الحوض الى جوا.. ضحك مرة أخرى بينما نصر يبدو واجمًا. وضع له الشاى والجميز فى طبق من الصاج الخفيف. وقال له

- أنت النهاردة ضيفى... أنا هاسيبك واصلى العصر قدامك هنا تحت الشجرة... ماتخافش من الميتين... الميتين ما بيخوفوش.. الأحياء فقط، هم من يجب أن نخشاهم!!.....، نظر له وهو يصلى فى سلام واستمتع كبير تحت شجرة الجميز التى تسقط ثمارها فوق رأسه وموضع سجوده. هو لم يعد خائفًا بل هو الآن فى سلام نفسى وسكون لم يشعر به فى حياته قط. وفى آخر مكان فى الدنيا قد يبعث على السكون! لكنه هنا بالفعل. كان ينظر له فى سعادة. ونفسه تحدثه.

- ما هذا الإنسان؟! كيف يعيش هكذا، لقد اتخذ من الموت سبيلاً للحياة، يبدو لغزاً مُحيراً، جبلاً صامداً لم ينحن لكل تلك العواصف التى كادت تقضى عليه. أيه يا نصر... مالك، ما هذا الزلزال الذى يجتاحك. نظر له وهو ساجد فوق السجادة الخضراء، والدموع تطفر من عينيه، نصف مليون جنيه، وبيوت وعدة أفدنة من أجود الأراضى فى المنوفية. ولازلت كحمار الرحى أبحث عن الراحة، لقد كان عاصم أغنى منى فى يوم من الأيام، وها هو ينتهى به المطاف وهو يرتدى ملابس فقيرة ويصلى تحت شجرة جميز. ويشرب الشاى من براد أسود صدئ، ويعقوب الذى انتهت حياته وحيداً مسكيناً على سرير أبيض بارد داخل مُستشفى حكومى!! كان يملك الكثير. لم ينتبه ليد عاصم التى ربتت عليه فى حنو وكأنه سمع مناجاته قائلاً.

ما من نفس تبديه - إلا وله قدر فيك يمضيه .

- ممكن أسألك سؤال

- تفضل يا نصر

- أنت ليه عاملتى كويس بالرغم أنى كنت بكرهك وبشوف أنك بتقطع على

فى رزقى؟

- علشان الدنيا مش مستاهلة، أشارالى المبني الذى أمامه والذى تنبعث منه مدخنة كبيرة، بص جوا وأنت تعرف، وعلشان أنا كنت زيك فى يوم من الأيام وجربت الغنى وكان عندى فلوس كتير، لكن ما فيش حاجة ريحت قلبى .

كان الليل قد حل بينما هما يتحدثان، انعكست أضواء المئذنة العالية الخضراء على الحديقة. وانطلق الأذان. ظل نصر مُطأطئ الرأس، باكياً وكأنه يسمعه لأول مرة . جذبه من يده وأغلق الباب الكبير جيداً، وتحرك به فى اتجاه المسجد بينما الآخر يسير خلفه كطفل يصطحبه والده أول مرة للصلاة . دخل بجواره للوضوء خجلاً، فهو لا يتذكر متى كانت آخر صلاة صلاها، لقد نسى الوضوء، تركه يُقلده دون أن يوجهه حتى لا يُشعره بالحر، شعر بالامتنان أكثر له، فهو لا يُريد أن يفضحه وسط الرجال الذين تزدهم بهم قاعة الوضوء، وهم مُنكبون على وضوءهم . ظل يتأمل المصابيح الأنيقة التى تُزين سقف المسجد، وهمهمات الرجال، حتى سمع الإقامة فاصطف بجوار الشيخ . كان الإمام يقرأ بخشوع من سورة الحديد، قوله تعالى:

” أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ” الآية: ١٦ ..

كان جسد (نصر) يغلى كالمرجل من كثرة البكاء، ما الذى حدث هو لا يدري، لكن يبدو أن دعاء أمه المسكينة قد أصابه ” ربنا يهديك ويفتح قلبك قبل ما

تواجه رب كريم وأنت بتشتغل الشغلانة دي“، كانت قد حرمت كل ملهم من ماله عليها، واكتفت بالمائة جنيه، معاش زوجها تعيش بهم، كانت تدعوله ليل نهار ويبدو أن دعاءها قد أصابه . ظل يبكي ويبكى، وهو يهمس:

بلى قد أن يارب ... بلى قد أن يارب. وفي الصباح الباكر، شاهد عاصم ونصرمن الداخل، رجال الحارة المخلصين، ومعهم بعض رجال الكنيسة، ينتظرون جثمان يعقوب الصائغ، ليحملوه إلى مثواه الأخير.

جلست (أمينة زين الدين)، زوجة نصرعبدالله الشهير(بنصراليهودى)، على كرسىها الخشبي المتهالك، تتطلع إلى الغرفة الداخلية، التي يجلس فيها نصر، أصابه منذ أن زار يعقوب في المستشفى، شهرًا كاملًا لم يخرج من غرفته إلا للوضوء، ثم يعود للصلاة، وينكب على كتبه التي أحضرها، لم يعد نقوده منذ شهر، ولم يزرها أحد من الناس الذين يطلبون قروضًا!.. كان هادئًا جدًا، لا يأكل إلا القليل، ولا يطلب شيئًا، على عكس ما سبق. كانت تشعر بدهشة لكنها كانت سعيدة، فلقد بدا أفضل كثيرًا، تهتت قائلة لنفسها:

- من يدري، لعل الله يصلح حاله وحالنا . اقتربت منها ابنتها الأكبر هدى،

قائلة

- هاه .. كلمتيه يا ماما ؟

أمينة: لسه والله يابنتي .. أدكي شايفة حاله . لا بيخرج ولا بيتكلم .

هدى: ياماما عاوزين، لبس للشتا، أدكي شايفة البلوفر اللي حيلتي داب، والبنات بيضحكوا علىّ في المدرسة. والولاد بيعايروا سمير ويقولوا له، (يا ابو جزمة مقطوعة).. أنا تعبت .

بكت هدى، بنشيج مكتوم، حتى لا يسمعها نصر ويضربها ككل مرة. كان بكاؤها يُمزق قلب (أمينة) قليلة الحيلة:

- والله وأنا كمان يا بنتي تعبت، لكن نعمل أيه.. أمر الله قدرنا كده . كان

الغضب وحماس الشباب قد تملكا من هدى، فقالت لها بصوت عال هذه المرة:

- لأ، ربنا ما أمرناش نسكت على الظلم؟!، إنتى ضيعتينا بسليبتيك دى، أنا

هاخش أكلمه واللى يحصل يحصل . بكت أمينة قائلة:

- هايضربك يا بنتى زى كل مرة .

- يضربنى .. أنا خلاص ما بقاش يهمنى!. اقتحمت الغرفة فوجدته جالساً

على الأرض يقرأ فى هدوء وقد طالت ذقنه، فى غرفة استقبال صغيرة بها مكتب

عتيق، فوقه لوحة خشبية كبيرة محفور عليها بيت شعر بخط كوفى أنيق. بيت

شعر عن المال!!، وكرسى جلدى، وأريكة وعشرات من الدفاتر السميقة، والتى

يُسجل فيها نصر حسابات العُملاء. ونظارة القراءة فوق أنفه، لقد صار أكثر هُزْأً

فهو لا يتناول سوى لُقيمات معدودة خلال اليوم . لم يكن مسموحاً لأحدهم

بدخول عُرفته السرية، ومن كان يتجاوز ذلك فيعلم أنه مُعرض للعقاب. وقفت

أمامه ترتجف كقطعة خائفة، أما هو فتركها واقفة لثوان وهو يُطالع الكتاب

الكبير.

أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة

ويقظة وعفة، عدم الرضا منك عنها ولأن تصحب جاهلاً، لا يرضى عن نفسه

خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأى علم لعالم، يرضى عن

نفسه؟ وأي جهل لجاهل، لا يرضى عن نفسه؟ ...ابن عطاء الله السكندرى

أغلق نصر الكتاب، ونظر إلى هدى قليلاً، هاله منظر ثيابها الرثة، وجسدها

الهزيل الذى تربى على سوء التغذية وحياة الشظف!!، كيف لم ينتبه لذلك

يوماً، هل حجبت شهوة المال عنه، كُل هذه النقائص . رق قلبه لها، وهو يراها

ترتجف كعصفور مذعور، ونظرات الخوف تملأ عينها، فتش فيهما فلم يجد

لمحة حُب واحدة، غالبه الدمع، وبدله بابتسامة خفيفة، من وراء كلماته

الحازمة قائلاً وهو ينظر إليها من طرف نظارته الطبية السميقة.

- مالك يا هدى .. صوتك عالٍ ليه، وإزاي تُدخلى علىّ كده .. انتفضت الفتاة
فزغاً!.. آخر مرة ضربها فيها، كسر لها ذراعها . فبكت في قهر قائلة:
- معلىش .. أصل ... قال لها مُبتسمًا في حنو .

- خلاص هانخرج كلنا دلوقتى، وأجييلكم اللى عاوزينه، بدا وقع الكلمة
غريبًا على الفتاة (هدى)، لم تُصدق ماسمعهه الآن!، نصر عبد الله الذى تعرفه
الحارة باسم (نصر اليهودى)، سيشتري كل ما يطلبونه !! اعتقدت أن فى الأمر
شيئًا ما، لكنها ارتمت فى أحضانه باكية . فبكى رغمًا عنه . لا حظت تلك اللوحة
الخشبية التى كان يحفرها بأدواته، كان بارعًا فى النقش على الخشب، ويُعلق
الكثير من اللوحات فى الغرفة، لكنه توقف عن ذلك الفن الرقيق، باعتباره عبثًا!
سألها فى هدوء، وهو يتأمل اللوحة فى إعجاب .
- ها .. أياه رأيك .. ابتسمت فى خجل قائلة:

- طول عمرك فنان! رفع اللوحة الكبيرة المنقوش عليها بيت الشعر بالخط
الكوفى

(والمال يرفع أقومًا، ويُلقى بقوم فى الحضيض الأسفل) . أزالها من فوق
حائط مكتبه ووضع مكانها الآية القرآنية التى نقشها بنفس الخط الكوفى .

بسم الله الرحمن الرحيم (يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ) !! هناك مُتْعٌ فى
الحياة، تبدو بسيطة وتافهة لمن لم يتذوقها بعد ولا يشعرها من عَشِقَ الماديات
فقط! . كان يتأمل فرحة الصغير (سمير) بالحذاء الجديد، وهو يقفز حولهم،
غير مُصدق، بينما ترك (هدى) تتجول، وتعوض كل ما فاتها، من كل شىء . لقد
ذاق المُتعة لأول مرة، عندما قبَلته ابنته فى محل الملابس بِحُب، ولأول مرة يرى
الرضا فى عين زوجته، وهى تشتري لوازمها دون تنغيص . كان يسير بجوارهم،
وهم يحملون ملابسهم الجديدة، وكل الأشياء التى طلبوها، وهوى يشعر لأول مرة
منذ زمنٍ بعيد بأنه يعيش! . لأول مرة لا يشعر برعشة فى جسده ولا بالعرق الغزير

يتصعب منه وهو يدفع المال، تلك النعمة والنعمة في آنٍ واحد!! كيف كانت تلك الحقيقة البسيطة غائبة عنه، لقد خلق الله المال لخدمنا لا لنخدمه. هو جُنْدَى من جنود الله يعمل على إسعادنا لا لنعمل نحن عبيدًا في بلاطه . بدأ الأطفال يتجرأون عليه أكثر، فقال الصغير سمير أنه جائع!! قالها وعيناه الصغيرتان تلمعان في اتجاه أصابع الكُفْتة المشوية التي تتزفوق الشواية الكبيرة لحاتي العائلات، والتي تفوح منها رائحة زكية تُصيب الأنوف المُتحرقة شوقًا على بُعد أميال. لم يتردد (نصر) لحظة، مد يده إلى الصغير وجذبه إلى المطعم، بينما أمينة تنظر له غير مُصدقة ذلك التغير الجذري الذي حدث له في شهرٍ واحد. كان لسان حالها يُحدثها .

- بالتأكيد ليس هو!! يبدو أن روحًا أخرى أكثر طيبة قد سكنته، فلقد فعلها مرة واحدة فقط، طوال الخمسة عشرة عامًا من الزواج. عندما قام بخطبتها؛ لينفى عن نفسه صفة البُخل، لكن كُل تصرفاته وقتها كانت توحى بعدم رضاه، تعرق وجهه، ومُراجعته الكميات التي طلبتها وقائمة الأسعار!! لكنه الآن يجلس في المطعم هدئًا، يأكل باستمتاع، ويُلبي طلباتهم بكُل بهجة، لم يسأل أحدهم عن الكميات، ولا الأسعار، كان يشعر برغبة عارمة في إسعادهم، فقط إسعادهم هي غايته المنشودة.

كانت ليلة خميس رائعة على تلك الأسرة المسكينة التي ألقاها حظها العاثر في قبضة أب بخيل، ولكنه استيقظ الآن وقرر التكفير عن خطئه في حقهم، لله في خلقه شئون!! نسوا كُل شيء، كانوا يضحكون ويلعبون، يُداعبونه بدلال، يطلبون منه، يجرون خلفه، وهو صبور، يُلاطفهم ولا يرد لهم طلبًا. تذكر كلمات (يعقوب) وهو يحتضر، "دول هما الثروة الحقيقية". انتهت ليلتهم السعيدة، كما ينتهى كُل شيء جميل في هذه الحياة، وأن للجميع الرحيل إلى المنزل. لم يتخل (نصر اليهودي)، عن نوبة الكرم الحاتمية التي داهمته الليلة، فأوقف (تاكسيًا)، استقلوه جميعًا، بينما أمينة تُمتع رثتها بالهواء البارد المنعش، لا وتدعو الله أن

تسكنه تلك الروح الطيبة للأبد، وأن يرحل الشيطان البشع من روحه وجسده
بلا رجعة!! ووصلت السيارة حيث منزلهم بحارة الغول، فقال للسائق:
- انتظرني دقيقة، هاحتاجك في مشوار قريب .سمعته أمينة فقالت له في
دلال.

- مش هاتطلع معانا، كانت تبتسم له بودٍ صافٍ؟! اندهش قليلاً، فلقد كانت
تهرب منه في السنوات الماضية، وتقبل دعوته على مضض!.أجابها في عذوبة وهو
يُمسك بيدها على مرأى من الناس، وهو شيء لم تعتده من قبل .
- عندي مشوار قريب، وسأعود حالاً بإذن الله.

انطلق التاكسى مرة أخرى إلى وجهته، توقف أمام ذلك المبنى الصغير ذو الحديقة الواسعة، والتي يُحيط بها السور الحديدي، من كُل جانب. وقف نصر في هدوء يبحث عنه من بين أسياخ الحديد الخضراء. سمع همهمات بسيطة قادمة من الجانب القبلى للحديقة، حيث كان يجلس على أريكته الخشبية، في المرة الماضية، بالفعل وجده هناك، جالسًا على نفس الأريكة، يقرأ القرآن في صفاء عجيب، وبصوت رائع، ونظراته الطيبة السمكية، تتدلى قليلاً فوق أرنبة أنفه، بينما براد الشاي الأسود، يغلى فوق السخان العتيق ناشراً شذا رائحته الجميلة التي اخترقت أنف (نصر) الذى ظل صامتاً يُراقب ذلك الرجل الذى باع الدنيا كُلها، وصادق الموت، إنه يتعايش معه بطريقة غريبة. كان شاردًا ينظر في هدوء في اتجاه عاصم، وكأنه يُشاهد أحد أفلام السينما الحاملة. انتبه عاصم لذلك الواقف في هدوء يُتابعه من بين قُضبان السور الحديدي، الذى يُحيط بالمبنى والحديقة. فقال في دهشة:

- نصر؟! خيراً بُنى !! أياه اللى جابك الساعة دي؟. لم يرد السؤال بل ظل مُحملًا فيه بدهشة، فهولا يعلم ما الذى أتى به إلى هنا، هو فقط يُريد أن يراه، وأن يشعر بتلك المُتعة التى شعر بها في المرة السابقة، لقد صار يحن إلى هنا، كما يحن الإنسان إلى مسقط رأسه!. على الرغم من أنه يعلم بشاعة المكان، فلا أحد أبدأً يُمكنه أن يعشق مشرحة الموتى!! لكنه حدث! فلقد ولد هنا بالفعل، رد عليه في رجاء قائلاً:

- عاوز أشرب شاى معاك؟! عاوز أصلى العشاء، فأنا لم أصل بعد.

تطلع عاصم فى عينيه، إنها عين الضال عندما يبحث عن طريق، لقد شاهد تلك العينين من قبل، شاهدهما فى المرأة، لهفته للراحة والسكينة، رغبته فى فهم حقيقة الدنيا التى يجهلها الجميع، إنه يرى ولادة نفس جديدة، تتوق للبحث عن الحقيقة، هل يُعيد التاريخ نفسه!، فما أشبه وقفة (نصر) أمامه بوقفته أمام الشيخ هريدى فى نفس المكان مُنذ خمسة عشرة عامًا، ابتسم (عاصم) قائلاً -
الباب مفتوح، ادفعه وادخل، تركه يدخل وحده عبر مبنى المشرحة، مارًا بثلاجة الموتى، دون أن يُساعده، أو يُضئ له الأنوار. كان ذلك بمثابة اختبار القبول؛ لدخول ذلك العالم الغريب. كان (نصر) يسير بثقة، وكأنه يسير فى طرقات منزله، لم يشعر بوحشة. ولم يعرف الخوف طريقًا إلى قلبه، كان يبحث عن ما هو أبعد من ذلك، باب الأنس بالله!!!

متى أوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به، ابن عطاء الله السكندرى .

قابله بترحاب:

- أهلاً وسهلاً...

نصر: أهلاً بيبك يا عم عاصم . أشار عاصم للصنبور المعلق فوق حوض عتيق فى الحديقة، وجواره فُرشت سجادة الصلاة، بجوار شجرة الجميز الكبيرة، التى ثبت بها مصباح صغير، ليُعينه على القراءة -
الماء هنا، توضأ وصلّى، وبعدها نشرب الشاى .

كان يُراقب جسده الذى ينتفض مع كل سجدة، كم أنت رحيم يارب، آخر شخص كان يتوقعه، هاهو يبكي مُبلاً الأرض بدموعه . ظل يُراقبه حتى انتهى .
جلس بجواره صامتاً . أخذ عدة رشفات من كوب الشاى . وهو يتأمل السكون من حوله . قال له عاصم مُشجعاً :

- مالك ؟ أنت بخير . ظل مُحملًا في الأشجار قائلًا

- صدقتي ، عمري ما كنت بخير ، زى النهاردة؟!!

- الحمد لله ، لكننى سألت عليك فى مقهى بيومى ، وفى منزلك ، أكد الجميع

أنك لا تخرج من غرفتك إلا قليلاً . وافتكروا إن ده حُزن على صديقك (يعقوب

الصائغ). ضحك نصر ، ضحكة تهكمية قائلاً:

- من مفارقات القدر أن يكون (يعقوب الصائغ) والذى كان سبباً فى احترافى

لربنا ، هو السبب أيضاً فى رجوعى !. ابتسم عاصم وكأنه يختبره

- كيف؟!!

نصر: شفت مصيرى زيه؟، امتقع وجه عاصم ، وكأنه رأى شيئاً مُخيفاً.

- عافانا الله ، أشاح بوجهه مرة أخرى فى صمت ، فقال له نصر فى فضول:

- شفته؟!!

. نظر عاصم فى عينيه بقوة، قائلاً فى حزم:

- ما دُمت جئت إلى هذا المكان فلا تسأل عنهم ، فكل شىء هُنا بإذن !. ازدرد

نصر لعابه مُعتذراً عما بدر منه قائلاً

- طيب ممكن أسألك سؤال:

عاصم: تفضل

- بتاخذ فلوس من عمالك هنا. قال له عاصم بحزم

- عملى هُنا لوجه الله فقط ، وقد ينوبنى مما رزقتى الله ، على هيئة مكافآت

نصر: طيب إزاي بتحصل على رزقك ، ومنين الفلوس اللى كنت بتديها

للناس؟! أشار لحقيبة الظهر الكبيرة ، الموجودة بجوار الأريكة .

- نسيت أننى تاجر أقمشة ، فأنا باسرح على باب الله ، أبيع الأقمشة للعرائس

والسيدات. لكن ، ليه بتسأل؟

نصر: خلاص. مش هاشتغل تانى فى الربا.

- الله أكبر، ده اللى قلته لك قبل كده، بس أنت مافهمتش.

- المشكلة، هاشتغل أيه دلوقتى؟! .أجابه عاصم فى هدوء

- افتح، ورشة الخشب التى كان يمتلكها والدك، فى المنشية، وارجع لمهنة

أجدادك. انتفض جسد نصر قائلاً:

- لا؟! إلا الورشة!! . ابتسم عاصم وهو يُمسك بذراعه اليُسرى الصناعية،

ويكشف قميصه قائلاً:

- الماكينة الكبيرة، قطعت ذراعك وأنت صغير؟! . انفعل نصر فى هيسستيريا،

ويده تتحرك فى عصبية

- ماحدث فى المنطقة، يعرف الحكاية دى ..عرفت إزاي؟! رد عليه عاصم

بهدوء

- والدك أحضرها إلينا هنا!! كانت أول شىء غسلته وكفنته فى حياتى،

و صلينا عليها أنا والشيخ هريدى ووالدك الحاج (عبد الله) الله يرحمه! كان

صديقًا للشيخ هريدى جدًا. أنا عرفتك من أول يوم شفتك فيه، كان بيتكلم

عنك كتير. وإزاي أنك تركت الورشة بعد الحادث الأليم، وانطلقت للعمل مع

(يعقوب الصائغ)، وصرت غريب الأطوار. لكن يظهر أن دُعاءه لك بالهداية قد

أتى ثماره .

عاد نصر برأسه للوراء، وكأنه يغترف ذكرياته، من بئرسحيق .

- لا زلت أتذكر صوت المُشار الألمانى العتيق وهو يجذب ذراعى كسمكة

قرش متوحشة، ثم يلتهمها بلا رحمة، مُخلفًا وراءه كمًا رهيبًا من الألم والدماء

والصراخ فى كُل مكان. عارف يا عم عاصم أنه يزورنى فى منامى مُنذ عشرين

عامًا، وإلى الآن أنا أشعر بالألم الرهيب !!، هذه الماكينة الوحش، هى أول سبب

فى ما وصلت إليه، فلقد جعلتنى أكثر جُبْنًا من غدر الزمان وتحول الأيام. ومن

الفقر، أكبر آفة في الوجود!! يومها أبويا ما لقيش ثمن علاجي، ولولا الخواجة (بآبادوبلوس)، سفرني أثينا، للعلاج في مستشفى شقيقه، جراح العظام العالمي آنذاك، لعشت مُتسولاً بعاهتي حتى الآن. ومن يومها عرفت قيمة المال، عملت في اليونان خمس سنوات، في كل المهن الحقيمة التي تتخيلها، كنت أجوع بالأيام لأوفر لنفسي نقوداً، أعيش منها، لقد كان هدفي أن أكون غنياً لأقصى حدٍ ممكن، ولما رجعت تلقفتني يد (يعقوب) ؟ اعتبرني ابنًا له، وتعلمت منه (الفايظ). وما عرفتش أبيع الورشة؛ لأنها إيجار قيمتها الحقيقية في دوران الماكينة العجوز اللعينة اللي حولتني إلى شخص عاجز، علشان كده كنت باخاف من الفقر، تذكر نصر شيئاً فخبط يده على رأسه قائلاً في مرج:

لحظة واحدة، عم (هريدي) التمرجي العجوز، اللي كان بيدينا الحقن في البيت؟! هو ده نفس الراجل؟ أو ما عاصم برأسه ضاحكاً-

- نعم هو من تلقفني هنا، مُنذ خمسة عشر عامًا، بعد وفاة فُضيل ابني، وكُنْتُ وقتها على مشارف الضياع، فكر نصر قليلاً

- يعقوب ساب لي المحل، واشترط على عدم بيع الذهب! هاحوله إلى بقالة، أرتزق منها. ابتسم عاصم في رضا قائلاً:

- على بركة الله. قطع كلامهم، صوت طرقات على الباب الخارجي. قطب نصر حاجبيه، لكن (عاصم)، استرق السمع على الباب. صوت شخص يناديه من على الباب.

- افتح يا عاصم، ضروري .. افتح، ميز صوت صديقه (فؤاد فواز). لا أحد يعرف عنوانه، إلا هو، والآن صار نصر هو الآخر يعرف السر. فتح الباب على عجل

- خيريا فؤاد فيه حاجة، لم ينتبه فؤاد لوجود (نصر اليهودي) بالداخل، لكنه قال في وجل

- لازم تيجى دلوقتى يا عاصم، الحاجة (فيروز) تعبانة قوى. ركب الجميع السيارة التى توقفت على باب الحارة، كان الجومتوتراً، القرآن يصدح من مأذنة المسجد القريبة، جاهد عاصم الزحام الذى ملأ الحارة والمنزل، كان جسده يرتعد ومعه فؤاد ونصريساندانه، لكن عاصم توقف فجأة وهو ينظر إلى المنزل فى دهشة، ثم قال لفؤاد

- لا إله إلا الله ... حصل إمتى؟!!

- من شوية!، والرجالة دوروا عليك، علشان كدة جيتلك، دلف إلى باب المنزل فى هدوء، عبر مجموعة النسوة المنتشحات بالسواد فى الصالة وعلى الأريكة وفى كل مكان، سيدات الحى لم يتركها لحظة، نظرن إليهن جميعاً، كان الطبيب خارجاً لتوهه من عندها بينما نورا زوجة خميس الحلوانى، تبكى بالباب، وبجوارها وقفت (مشيرة) تبكى هى الأخرى. اقترب من الطبيب وهو يقول

- خير يادكتور، ربت الطبيب على كتفه قائلاً

- البقاء لله

- أيه اللى جرالها؟.

- نزفت كتير من فمها، وأدى ذلك، لهبوط فى الدورة الدموية .. أمر الله يا حاج، أخذ حسين تصريح الدفن من الطبيب، ونزل إلى الشارع باكياً. قال عاصم لهن فى حزم:

- سبيونى معاها

خرجوا من العُرفة جميعاً، وقف ثابتاً أمام وجهها، ويديه معقودتان أمام صدره، كان يُتمتم فى خفوت. تغير وجهه بعدها، وضافت عينيه إلى أقصى درجة. جلس قرابة الساعة بالداخل وهو فى عالم آخر.

خرج بعدها، مُسرِعاً من باب المنزل، لكن يداً جذبتة من ذراعه قائلة .

- دقيقة واحدة يا عم عاصم، كانت نورا زوجة خميس، جذبتة من ذراعه
ودخلت به، إحدى الغرف المغلقة بمنزلها، وأخرجت مطروفًا كبيرًا، أصفر
اللون، أعطته إياه قاتلة:

- المطروف ده، خبته الحاجة فيروز عندي أمانة، وأوصتني إنى أسلمه ليك،
لوجرالها حاجة!

- فيه إيه المطروف ده؟

- الله أعلم، هو أمانة، وما عرفش فيه إيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

لمن يهمه الأمر

هذه حكايتي، أنا (حميدة أبو النور). أكتبها حتى أبرأ من ذنبي أمام خالقى. كنت أجمل بنات مركز البدارى، بمحافظة أسيوط، أرمح فى طرقات البلدة، كالفرسة الجامعة، لا أحد يستطيع اللحاق بى، كُنت حلم كُل شباب، وجدعان البلدة، لكننى كنت أحلم بواحد فقط، كنت أعيش من أجله، وأنتظر إشارة منه، كى أعيش، وأتنى، إنه (عبد الله العايق) ابن عمدة قريتنا (المحبوبة). كان عبدالله عائقًا، جميل الطلعة، ملون العينين، حلو الكلام، ويدرس فى الجامعة، يسير بفرسه العاجية فى طرقات البلدة، فتتخلع خلفه قلوب العذراوات وكنت أنا إحداهن، بل كنت أجملهن، لكننى كُنت فقيرة ويثيمة، كان والده يحسن علينا. اقترب عبدالله منى وأسمعنى حلو الكلام، وشيئًا فشيئًا، خارت قواى، عشت معه الوهم، بأننى سوف أكون زوجته، وبعدما وقعت الكارثة، ألقانى هو ووالده خارج القرية، وكتب لى قيراطين من الأرض، خارج زمام القرية، تعويضًا لى عما حدث، وحتى أسكت، لكنهما ظللا يهددانى حتى هربت. اضطررت للعمل (غازية) بالموالد ثلاثة سنوات كاملة، إلى أن شاهدنى (بدرى)، أحد لصوص الجبل. كان يريدنى بأية طريقة، هددنى، ثم خطف طفلى (مشيرة)، حتى أروض له. اضطرت أن أجاريه، حتى أحصل على طفلى، بعدما ماتت أمى كمدًا من

جاء ما سببته لها من عار. خدعت (بدرى) الذى كان يهددنى بقتل طفلى، هربت وهو نائم، وفررت إلى الإسكندرية.

دُرت في الشوارع، وعملت خادمة في المنازل، حتى تعلمت الكتابة والقراءة، والتحققت كعاملة بمدرسة (العروى الوثقى). حينها تعرفت على عم (نبيل الراوى)) الرجل الطيب، الذى كان يكبرنى بثلاثين عامًا، لكنه كان أبًا حنونًا، حكيت له قصتى. كان وحيدًا ومسكينًا، عرض على الزواج فوافقت، تزوجته وتمكن من إخراج شهادة ميلاد باسم مشيرة. ووضع اسمه في خانة الأب، بعدما سقط قيدها، هذا الرجل أنقذ حياتى، وجعلنى أبدأ من جديد. كبرت مشيرة في كنفه وتعلمت، كان يحنو عليها وكأنها من صلبه. ولذلك لم تشعر مشيرة بشيء، فهى لهذه اللحظة، تعرف أنها ابنة (نبيل الراوى)، لكن دائمًا ما تنتهى الأوقات الجميلة، فلقد عرفت إحدى بنات بلدتى، طريقى، وفضحتنى عند (نبيل)، ومن يومها ومعاملته تغيرت معى، ومع مشيرة صار يضربنى ويضربها، وهددنى بالطرده وبفضح أمرى وبحرمان مشيرة من نسبه، خفت كثيرًا، وهنا ظهر (سبع الليل مناع) في حياتى، أحد الذين أغرموا بى في شبابى، ظل يطاردنى ويوسوس فى أذنى كشيطنٍ رجيم!! وكانت النتيجة أنى ارتكبت أكبر جريمة فى حياتى. لقد دسست لنبيل السم فى الطعام، وأخفيته بمعاونة سبع الليل مناع!!، لم نجد حلاً أفضل من بناء (عشة الحمام)، ذات القبة الخضراء، لإخفاء عظامه بداخلها!!

نعم أنا قاتلة، وأدفع الآن ثمن ما اقترفته منذ زمن. مع الرجل الطيب الذى أكرمنى، ثم تغيرت معاملته بسبب الوشاة، نسيت الألم، وأكملت طريقى ولم أتوق. ربيت (مشيرة)، شقيت وتعبت، حتى تصبح فتاة صالحة. وتبتعد عن ميراث الدم، لكن الديان لا يموت، ولأن العرق دساس، شبت مثل أميها، نزقة مغرورة، شريرة، لا تشكر الله، تبحث دومًا عما ليس لديها وتنظر لما فى يد الآخرين، وتعزز بجمالها لأقصى حد.

وبعد وفاة (نبيل)، تزوجت من (سبع الليل مناع)، كنت أحتاج من يرعاني ويرعاها، لكنه كان قدرًا لأبعد الحدود، وكنت أكرهه، كان عكس نبيل في كل شيء، قوى كالثور، لكنه كان قدرًا وحقيراً، لم أتخيل نهايته هكذا، لقد قتلته مشيرة، وأخفت جثته في مكان ما!! بمعاونة صديقها (حسين عاصم)، لقد رأيتهما وهما يقطعان جثته، نفس الطريقة التي تخلصنا بها من نبيل!! فلقد أتيت مبكرة من عند أختي في بحري، وعندما وجدتهما اختبأت في برج الحمام حتى الصباح، للأسف لقد رأيت كل شيء، لكنني خشيت أن أبلغ، حتى لا يمثلان بجثتي كما فعلا، ولأنني قد أتهم أنا الأخرى بقتله، فأنا الوحيدة المستفيدة من موته، ومن يومها، ومشيرة تنظر لي نظرات قاتلة، أشعر أن نهايتي سوف تكون على يديها، لكنني قررت الاعتراف، حتى أبرئ ذمتي! وكفى ما اقترفته من ذنب!!

الإمضاء

حميدة سعيد أبو النور

انتهى عاصم من قراءة الرسالة القاتلة التي كانت تحتفظ بها فيروز. مد يده إلى ورقة صفراء قديمة، داخل المظروف. فتحها على مهل، كانت ورقة قديمة من أوراق الحيازات الزراعية، ورقة تملك القيراطين، باسم حميدة أبو النور. كان مُكبَّأ على مكتبه وظهره للباب. كان المنزل هادئاً بعد انصراف جموع المعزين، ولا أحد بالخارج، إنها مصيبة، جريمة قتل، اشترك فيها ابنه الضال، إذن بإشارات فيروز، رحمها الله كانت صحيحة، لم يكن موتها طبيعياً!! لقد أخطأت باخفائها ذلك السر، و قتلتها تلك الرسالة بالفعل نهض من مكانه، خرج إلى الصالة، كانت مظلمة تماماً، ولا أثر لحركة في المنزل، أضواء المصباح الصغير، حتى لا يجذب انتباه حسين ومشيرة، كان يبحث عن شيء بالقرب من منضدة فيروز، اقترب من أريكتها، منطقة القهوة، كما كان يسميها، بحث بجوار السبرتاية وعلى المنضدة، كان الضوء الخافت يساعده على البحث، جلس على

الأريكة، مد يده في الجيب السرى الذى كانت تخبئ فيه علبة القهوة، تحسس جيداً، لكنه لم يجدها.

- فىن علبة القهوة، كانت فىروز بتخبئها هنا. لازم أتأكد من المعلومة، قبل ما أبلغ البوليس. شعر بحفيف أقدام تتحرك خلفه، حاول أن يتحرك بسرعة، لكنه تلقى ضربة من آلة حادة أرسلته إلى المجهول .

بعد نصف ساعة

بلاغ إلى سيارة الإسعاف ٢٨٢

الرجاء التوجه إلى ٢ حارة الغول، شخص مُسن سقط على السُّلم، وينزف من رأسه وفى حالة غيبوبة كاملة !

غرفة العناية المركزة بالمستشفى العام

بعد الضربة، مررت بنفق طويل جداً ملتوى أوصلى إلى هنا، أعرف تلك المرحلة جيداً، فلقد حكى لي عنها أصدقائي الموتى، أو من هم على وشك ذلك، أشعر الآن بما كانوا يشعرون به. أنا الآن أفضل، أشعر بقوة وكأن جسدى قد شفى تماماً من كل الأوجاع التى حلت بى، الحديقة الوراثة التى سقيتها بيدي شجرة المانجو المثمرة التى كانت صغيرة كبرت وصارت تؤتى أكلها بإذن ربها كل عام، وشجرة الجميز العتيقة، زرعة الشيخ هريدى، نباتات النعناع والريحان والياسمين، تُرسل شذاها فى الفضاء، ليعم المنطقة بأسرها، كم سهر يُقلمها ويرعاها، ويرومها فى ليالى الصيف، والآن ها هو مساعدى الأمين (نصر) يرومها كما أوصيته، كان يسير معى كظلى، لقد تعلم كل شىء، صار ماهراً بالعمل، وكأنه قد خُلق له!! عجيبة هى تصاريف الله سبحانه وتعالى فى خلقه، آخر شخص فى العالم، كنت أتخيل أن يكون مكاني، (نصر اليهودى) سابقاً، الشيخ نصر حالياً، يجلس مكاني تحت شجرة الجميز العتيقة، يحتسى الشاي من برادى الأسود العتيق، ويقرأ القرآن من مصحفى المفتوح دائماً، فوق الحامل الخشبي الفاتح ذراعيه للسماء دوماً. لم يلحظ نصر وجودى وأنا أقف أمامه، أكبر دليل على أننى قد خرجت عن هيئتي البشرية، فربما الآن أنا على جناح فراشة، أوفى حويصلة طائر الله أعلم؟! ربع ساعة كاملة، وأنا أتأمل ملامحه التى تحولت إلى النقيض، من الغضب إلى الرضا، ومن الشقاء إلى الصفاء، ومن الجشع والموت على الدنيا

إلى القناعة. ومن القسوة إلى الرحمة، سبحانك يارب، تهدي من تشاء، وترزق من تشاء بغير حساب، ليس هذا نصر اليهودى عابس الوجه شره النظرات، القابض طوال اليوم على حقيبة نقوده. لقد كشفت له الدنيا عن وجهها الحقيقي، وجه ميدوزا بشع، يختفى خلف كل هذا الكم من المساحيق، لازال يردد كلمة، أستاذه ومعلمه الأول يعقوب الصائغ الذى مات وحيداً غربياً، على الرغم من كم تلك الكنوز التى كانت بحوزته

- دنيا بنت كلب .. المتغطى بيها عريان؟! . ألقيت على نصر نظرة أخرى وهو يقرأ القرآن بصوتٍ عذب، ثم تركته ورحلت، دخلت إلى الثلاثة حيث أصدقائي كنت أعرفهم واحداً واحداً أتذكرهم ويتذكروننى جيداً، يقفون بجوار أدراج الثلاثة الكبيرة الدُج الأول (ابنى فضيل)، والثانى (فيروز زوجتى)، الدرّج الثالث الفتاة البدوية (سليمة)، والدرّج الرابع (خضير) بطل المُصارعة الضخم، والخامس (أماليا بابا دبولوس) صديقتى القديمة، والسادس قائدهم الشيخ الصالح، صاحب الكتاب الأسود.

الدرّج الأول، فضيل

ابتسم له فى حُب كان واقفاً بيزته العسكرية، لايزال مُبتسماً قوياً، احتضنه فى حنان بالغ

عاصم: كيف حالك يا فضيل

فضيل: أنا بخير والحمد لله، اختلفت هيتك عن آخر مرة تقابلنا فيها

عاصم: نعم .. كثيراً .. لكننى تركت وادى الهلاك : لكى الحق بك فى تلك الحديقة الغناء التى وجدتك واقفاً بها .

فضيل: أنت أهل لها إن شاء الله .ولكن ليس الآن ..

عاصم: كيف وأنا معكم؟!

- عد وواجههم .

- كيف يابتي

- عد وواجههم وخذ بثأر أمي، أشار إليه، ليجدها هناك، كانت فيروز تجلس

على أريكتها في سلام وتمسك بمطحنة البن العتيقة

الدرج الثاني.. فيروز

بدأت جميلة جداً، عادت شابة صغيرة، ضفيريها الكبيرة مُسترسلة فوق ظهرها. كانت تجلس تحت شجرة كثيفة الخضرة بها ثمار صغيرة حمراء، تشبه العنب ولكنها أصغر في الحجم، كانت تأخذ منها حبات طازجة ثم تعرضها للشمس قليلاً لتتحول إلى حبيبات قهوة. أول مرة يرى تلك الشجرة، شجرة القهوة⁽¹³⁾ كانت جميلة ونضرة ومغسولة بماء المطر المنهمر. ناداها :

- لقد أحزنني فراقك جداً، نظرت له في عتاب، تألم له كثيراً

- لقد حذرتك منها مراراً، لقد قتلتني.

- ولكن كيف حدث هذا، أخرجت تلك العلبة التي كانت تخبئها طوال

الوقت، علبة القهوة المحوجة التي كانت تشرب منها .

- بنفس الطريقة التي كانت تقتل بها القطط والكلاب قديماً .. بالسّم

- لكن .. الطبيب أكد لنا أنها أزمة قلبية؟! ضحكت فيروز في ضجر.

- الطبيب؟! يا عزيزي، الطبيب له شواهد وعلاماته التي درسها، لقد

تعدت تلك القاتلة هذه المرحلة منذ زمن، فهي يُمكنها القتل دون ترك أي آثار!

لقد غدرت بي، وحن وقت الانتقام، أريد أن أراها ضيفة عندك !

- ولكن حسين؟!!

(13) تنمو شجرة البن طبيعياً في المناخ الاستوائي الذي يكون حاراً رطباً في موسم النمو، وحاراً جافاً في موسم القطف.

- فيروز: لقد حلت عليه اللعنة، وانتهى أمره. لقد ترك تلك القاتلة تفعل بنا ما تشاء؟! وقد حان وقت الانتقام. وقفوا أمام الشيخ الوقور، الواقف بجواري وهو يضع يده على كتفى، قال لهم:

الآن جاء وقت رد الجميل، جاء دورنا لنرد بعض الدين الذى طوقت به أعناقنا. سرت موجة مغناطيسية دفعت عاصم إلى الورا، بينما الشيخ يتلو بصوته الجهورى .

بأمر الله .. بأمر الله بسم الله الرحمن الرحيم « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ». سرت الدوامة القوية بينهم، تضاءلت أجسادهم تدريجياً، حتى تحولوا إلى أجسام مُضيئة تُشبه الفراشات، كان عاصم يُراقبهم فى دهشة، وهو يخرجون معه من بوابة الثلجة الكبيرة، إلى الحديقة الواسعة، حيث كان مُساعده الشيخ (نصر)، لا يزال يقرأ القرآن، تحت شجرة الجميز. التفوا حوله مرةً أخيرة ثم طاروا على ارتفاع شاهق، عابرين السور، ظهروا فى السماء، كسرب من الطائرات المنظمة لها قائد تسيير خلفه، ظلوا هادئين كنجوم مُتألئة فى السماء حتى طاركبيرهم وسقط بسرعة نيزك فضائى، فى اتجاه قط كان يسير فى سلام، فاخرقه، لينتفض القط وكأن صاعقة من السماء ضربته، وهو يتلوى حول نفسه ويصرخ فى ذعر، ثم خر على الأرض وكأن روحه قد فاضت إلى بارئها، لكنه بعد عدة ثوانٍ عاد ووقف على قوائمه مرةً أخرى، وهو ينظر إلى السماء، وكأن الهالة الضوئية الثانية، كانت تنتظر الأمر، فسقطت هى الأخرى بقوة فى اتجاه قط ثانٍ، ليتكرر ذلك الموقف مع باقى الهالات. ست هالات اختفين داخل ست قطط سوداء، كانت لهم جميعاً وجهة واحدة .

٢ حارة الغول

أشهر طويلة والرجل لا يزال يرقد في غيبوبة

كانت (مشيرة) تصعد السلم، الليل مظلم، والجو شديد الحرارة، الهواء الساخن يموّ بقوة مُعلنًا عن قدوم رياح خماسينية، الوقت لم يكن متأخرًا، لكن الجو كان شديد الحرارة، فخبأ كل شيء من مظاهر الحياة، شعرت أنها وحدها في المنطقة، كانت تفكر شاردة.

- مصيبة، لوفاق الراجل..هايحكي عن كل حاجة، ويضيع كل اللي خططنا له . ياريتة يموت ونستريح .!!، لمحت تلك العيون الحمراء التي تراقبها في صمت.
- آيه ده .. الققط كترت كده ليه اليومين اللي فاتوا؟!، داست بالخطأ على ذيل إحداهن، فخرج منها صوت حشجة مُزعجة، لا تشبه مواء الققط، فاقشعر جسدها رغماً عنها، فاندھشت من نفسها، تلك التي تقتل دون أن يظرف لها جفن. أسرع فتحت باب الشقة، حاولت إضاءة الأنوار لكن زر المصباح لم يستجب، قالت لنفسها في ضجر

- الكهرياء مقطوعة!! فين حسين... لسة مارجعش

جلست على الأريكة الموجودة بالصالة، والرياح تضرب الشباك القريب، وتملأ الجو بمواءها المرعب.. تشعر أن الرياح مُحملة بأرواح الققط السالفة، وأنها قد عادت جميعها لتنتقم في آنٍ واحد، زاد توترها، وهي تسمع صوت الققط

السوداء وهي تخمش باب الشقة بأظافرها القوية . همت بالجلوس على الأريكة، لكنها لمست بجسدها، جسم لدن لإنسان نائم، صرخت في فزع، تناولت عودًا من الثقب أشعلت به موقد الكحول القريب، واقتربت من الجسم الغريب. ندت منها شهقة فزع، فلقد كانت هي كما تركتها يوم الحادث، جثة (حميدة أبو النور) نائمة، والحقنة لم تزل مغروزة في عنقها، أجمتها المفاجأة تمامًا، لكنها لم تكن كل المفاجآت، فلقد فتحت حميدة عينها، وجلست وهي تمسك بجسد مشيرة التي احتبس صوتها، جذبتها بقوة من ملابسها وهي تقول لها في فحيح مُزعج، ولكنها الصعيدية:

- ولد الحرام، زرعت خايبة

صرخت مشيرة، وحاولت الهرب إلى الباب، لكنها اصطدمت بحسين الذي فتح الباب في نفس التوقيت، وأضاء الغرفة، فاخفى كل شيء . كان وجهها شاحبًا كالموتى، فاندھش حسين، أول مرة يرى فيها تلك الحية الرقطاء في حالة خوف، يُخيل إليه من قسوتها أنها ولدت بلا أعصاب! .

- أيه؟! مالك، سألتها في دهشة؟! حكمت له ما حدث، وأن جثة أمها كانت تُكلمها منذ قليل، ابتسم في بلاهة قائلاً:

- أمك ماتت واندفنت من زمان، ده بس من تأثير المورفين، ردت بعصبية وهي تصرخ في وجهه:

- بقولك شوفتها، وبعدين أنا ما ضربتس النهاردة؟! تنفست قليلاً، ثم قالت في جدية

- عندي خير مش كويس . قطب حاجبه في فزع:

- أبويا جواله حاجة؟! يبدو أن تأثير المخدر هو الذى أثر عليه بالفعل؟! قالت

له :

- أنتِ إتجننت يا حسين، الخبر الوحش أنه ما يجرالوش حاجة!! وهو ده
اللى حصل

حسين: مش فاهم؟!

مشيرة: أبوك لوفاق، هانتسجن؟

حسين: خلاص .. يفوق، أنا زهقت

مشيرة: لا يا بنى آدم كل اللى عملناه كده هايروح؟! عمومًا أنا مرتبة كل شىء
مع نعمة الممرضة هناك.

حسين: يعنى أيه؟

مشيرة: يعنى سيبنى وأنا هاتصرف.

حسين: تانى الله يخرب بيتك، هو أنتِ ما بتشبعيش دم؟، قالت له فى يأس:

- خلاص الكلام ده فات أوانه .

اليوم التالى .

استيقظ حسين فجرًا على صوت خريير الماء القوى، القادم من الحوض
الكبير، وسمع صوت القرآن الكريم قادم من حجرة الشيخ، هز رأسه فى عجب،
فلقد أغلق المذياع بنفسه ومع ذلك فالجيران يؤكدون أنهم يسمعونه كل يوم
فى نفس التوقيت!! كانت مشيرة لازالت تغط فى نوم عميق، بينما انتهت كل
حواسه، فلقد تذكر كلامها بالأمس، ما لذى فتح الصنبور وأدار المذياع؟! نهض
من فراشه وسار بحذر عبر الطريقة الطويلة، صدمته رائحة القهوة ارتعشت
قدماه عندما رآها على أريكتها المفضلة، ما هذا!! فيروز ماتت منذ زمن!! فهل
وصلا لمرحلة الجنون!! ومع صوت ابتهالات الفجر الناعمة، من المأذنة القريبة،
التفتت إليه فى غضب، قائلة:

- ليه سيبتها تعمل فينا كدة.. طول عمرك ضعيف؟! وماشى وراء شهواتك،

ياريتك أنت اللي مت مش فُضيل، كانت هيبتها مُخيفة، فالدماء كانت حول
فمها، وبطنها المنتفخة، تتناثر منها الدماء، جعلت حسين يلتصق رعبًا في الحائط
المواجه لها وقد سقط على ركبتيه، وابتل سرواله، وقلبه يكاد يقف وهي تقول
له. والدماء تنزف من فمها وبطنها، وعيناها تُشع غضبًا.

- خلاص، اللعنة حلت عليك، ملعونة البطن اللي شالتك !!!؟

كان صوت الابتهالات التي تشق السماء تعلو وقرقرة القهوة فوق موقد
السيرتو، تحطم أعصابه أكثر. فارت القهوة، واستمرت في الفوران، فاكتشف
أنها دماء غزيرة أغرقت المكان.

لقد زارتني أمى بالأمس كما زارتك أمك ! ردت عليه مُشيرة في توتر
- ماصدقتنيش لما قلت لك أن أمى زارتني بالفعل؟! وكلمتني
قال حسين في توتر:

- إزاي، الأموات ما يرجعوش للحياة تانى؟ ردت عليه بتلقائية

- ولكن الأشباح ممكن تعمل أكثر من كدة، البيت ده بقى مسكون ! ارتعدت
فرائص حسين، وهو يستعيد مشهد أمه التي كانت تنزف منها الدماء حتى قهوتها
قد صارت دمًا، رغب بشدة في حقنة مورفين، تلقى به في التهلكة! فقال لها في
يأس، مرددًا كلام أمه بالأمس:

- خلاص، إحنا حلت علينا اللعنة، زى ما قالت أمى، كانت مُشيرة تُفكر في
كلامه؟ يبدو أن كلامه صحيح هذه المرة، فلقد سمعت نفس الكلام من أمها
(حميدة أبو النور)، فقالت له في حزم.

- خلاص نمشى، ونسيب البيت؟!

حسين - إزاي، وهانروح فين؟

مُشيرة: مش مهم، المهم اتفق مع المعلم (حننا) المقاول الراجل طلب شراء
أكثر من مرة، وممكن نطلب منه يوفرلنا سكنًا آخر في أسرع وقت، وانقل الملكية،
لما نتخلص من إجراءات الميراث.

حسين: لكن الوالد لسة عايش! تجاهلت جُمَلته الأخيرة، وكأنها لم تسمعها،

وقالت

- حدد له موعد بكرة. قاطعها صوت القبط المُزعجة التي استوطنت سُلَم

المنزل، وصارت تتشاجر باستمرار. قالت مُشيرة في ضجر

- القبط كل يوم تزداد توحشًا؟! لازم نتخلص منها. ابتسم في تهكم قائلاً:

- وطبعًا أنتِ أستاذة في المجال ده! للمرة الثانية تجاهلت نبرة السخرية في

صوته، وكعادتها في المواقف الصعبة، كان عقلها يعمل في صفاء. أخرجت من

حقيبتها قفازًا مطاطيًا خفيفًا، ومعه علبة صفراء، صغيرة الحجم، تُشبه علب

التحاليل الطبية، ذهبت إلى المطبخ ثم عادت بقطع من الدجاج، فتحت العلبة،

وبدأت في دس حبيبات السم الخضراء بحرفية شديدة، تحت جلد الدجاج

النيئ.

قال لها حسين:

- القبط مش هاتموت بالطريقة دي؟ القبط بتشم السُم، ولها حاسة

قوية جدًا، ابتسمت من سذاجته، قائلة:

- مش معايا أنا الكلام ده؟! وترته نظراتها القاتلة، إنها تعشق القتل،

تُمارسه كما يعزف أحد الهواة على آلة الكمان الخاصة به، إنها موهوبة

بالفعل! ولكن ما أسوأها من موهبة!! انطلقت إلى السُلَم، جلست على ركبتيها

الجميلتين وهي تضع قطع الدجاج المسمومة في الأركان، وفي أماكن أخرى،

اختارتها بعناية شديدة، كانت ترتدى ملابس قصيرة كشفت جمالها الأخاذ، أراد

حسين أن يمسك بفرشاته، ويرسمها لوحة الجمال القاتل؟! كان يتأملها حائرًا،

وهي تتفنن في إيقاع القبط في فخ الطعام المسموم! كيف يخرج كل هذا القتل

من كل هذا الجمال والأنوثة؟! لم تتحرك القبط من أماكنها، بل كانت تنظر

لها شزراً، وكأنهم يعرفونها جيداً، ازدردت لُعابها عندما وجدت القلط تنظر لها ملياً في هدوء، تشعر أنها قد رأت تلك النظرات من قبل، وكأنها تعرفهم من عيونهم سألت نفسها

- هل من الممكن؟! لكن صوت القوة قد تغلب في النهاية فقالت:

- ممكن أم غير ممكن، يجب أن أتخلص من تلك الكائنات السخيفة، قبل أن يأتي المقاتل غداً. ابتسمت لهم في تحدٍ قائلة .

- بالهنا والشفا .

في الصباح كانت قد اطمأنت بأن جميع القلط قد اختفت، وأن قطع الدجاج قد اختفت أيضاً شعرت بارتياح، فالقطط قد التهمت الدجاج، ورحلت من هنا كي تموت بهدوء! . ذهبت إلى عملها، بينما ظل حسين نائماً، وعندما عادت في المساء، كان المعلم حنا يجلس على المقهى في انتظارها. نهض واقترب منها .

- مساء الخير، أنا مُنتظركم حسب المعاد، مع الأستاذ حسين .

- اتفضل يا معلم، هو في انتظارك في البيت. دلفا إلى باب المنزل، وصعدا على السلم، بدت درجات السلم كبيرة جداً ومُتباعدة، شعرا بمشقة رهيبية، على الرغم من أن المنزل في الدور الثاني فقط، علق المعلم حنا قائلاً:

- أياه ده .. السلم ده غريب ليه كده. أنا طلعتة زمان، ما كانش كده.

لم تعقب مُشيرة حتى لا يهرب الزبون . كان الهواء مُعيباً برائحة كريهة، أرجعتها مُشيرة لقطع الدجاج التي باتت على السلم منذ الأمس، لكنهما وصلا إلى الباب، طرقت الباب، بعدما وصلا إليه بشق الأنفس، ففتح لهما حسين قائلاً بترحاب:

- أهلاً معلم حنا .. اتفضل، بدا كل شيء هادئ، عاين المعلم حنا المنزل بعين خبيرة وهو يحسب صفقته الراجعة عندما يهدمه، ويبنى مكانه بُرجاً شاهقاً، حاول حنا التفاوض

- المنزل قديم ومتهالك والأرض محتاج شغل كثير، ردت عليه مشيرة بجمود.
- مالك انت والبيت، أنت هاتده وتبني مكانه برج، صفقة مش هاتكرر، سمعوا صوت القرآن القادم من عُرفة (عاصم). سمع حنا لمصدر الصوت ثم قال:

- ممكن أشوف الغرفة دى، أجابته مشيرة فى توتر
- حاضر، حاولوا فتح الباب، لكنهم فشلوا، قال لهم حنا فى ضجر
- القرآن شغال جوا، إزاي مش عارفين تفتحوها!! أجابه حسين فى استخفاف

- الباب قديم، وساعات بيعلق. إيدك معايا نفتحه. عاد الاثنان إلى الخلف، وضربا الباب بكل قوة، فانهار المزلاج، وفتُح الباب. فانقطعت الكهرباء فوراً!! وكان طاقة من الجحيم فتحت معه، وقف الثلاثة فى حالة ذهول لعدة ثوانٍ يشاهدون ستة أزواجٍ من العيون الحمراء، تُحدق بهم وتقرب منهم وهى تُصدر زوأمًا رهيبًا، صرخت مُشيرة فزعًا، بينما سقط حسين أرضًا، عندما طارت القطط المتوحشة فى اتجاههم، خمشت إحداهن وجه مشيرة، بينما سقطت الأخرى على كرش المعلم حنا فأخذ فى الصراخ:

- يا عذرا يا أم النعم .. غتيني، بينما تجمع عد أكبر فوق جسد حسين الساقط فوق الأرض يحاولون الفتك به، حاول حسين ومشيرة الخروج من الغرفة بصعوبة، بينما اتجه المعلم (حنا) إلى باب الشرفة المفتوحة، لكى يهرب من هذا الجحيم، هرب مسرعًا بجسده السمين إلى الباب، لكنه اكتشف بعد

فوات الأوان، أن الشرفة بلا سور. لمهوى من الدور الثانى إلى الشارع، وهو يصرخ
صرخة مدوية، وتحطمت عظامه مُحدثة دويًا رهيبًا. تبع سقوطه كمًا كبيرًا من
الحجارة، سقطت من البيت من كل اتجاه، وكأن المنزل يقذف الجميع بالحجارة،
مُحدثًا حالة من الفوضى العارمة فى الشارع، صوت فرامل السيارات القوية
التي تتفادى الارتطام، مع صراخ الناس فى المنطقة

- البيت مسكون ... البيت مسكون

استغل حسين ومشيرة حالة الهياج وهربا من المنطقة بأسرها.

- 41 -

غرفة العناية المركزة -المستشفى العام

وقف الدكتور سامح كبير الأطباء الشرعين بجوار زوجته الطيبة (سها)
أمام عاصم المسجى على سريريه فى الغرفة . كان الطبيب يتأمله فى ألم والدموع
تزور مقلتيه ، فُيدارها عن زوجته ، وهو يهمس له فى هدوء

- قوم يا عم عاصم ، أنت قوى وتحملت الكثير ، قوم إحنا لسة محتاجينك .
ربتت سها على يد زوجها فى تعاطف:

- عارفة أنك بتحبه ، ولكنها إرادة الله يا سامح تشجع .

سامح :هى حالته ميئوس منها؟

سها: حالته ثابتة ، مافيش مؤشرات بالتقدم حتى الآن!، لكن فى النهاية ، هو

أمر الله

- سامح: ونعم بالله ، أنا واثق بأن الله هايكتب له الخير ، ومش هايتهلى عنه

- عارفة أنك بتحبه جداً .

سامح: مش لوحدى ، المصلحة كلها بتحبه ، هو مُختلف بالفعل ، الرجل ده ،

فيه شىء لله !.

سها: إزاي ؟ صمت قليلاً ، ثم قال

- الى ها قوله مالوش تفسير علمى، لكن ثبت لى أنه يتواصل معهم بطريقة
ما، يعرفهم ويعرفونه، طبعاً هو لم يبح بالسرد ده لحد ولكنى لمستته بنفسى،
ابتسمت سها وهى تقول .

- كلكم هذا الرجل، ما حدش فيكم بيبوح بسر عمله أبداً !!

سامح :دى أمانة عظيمة ورسالة، لكن الى حصل فى اليوم ده كان شيء .
له العجب

سها: أيه الى حصل فى اليوم ده ؟ نظر سامح فى سقف الغرفة، وكأنه
يستحضر الحدث.

عثرت سرية من القوات المسلحة، على جثة مجهولة، تم دفنها فى الصحراء
الغربية، كانت تبدو قديمة وملفوفة بعدد كبير من طبقات الكتان، فظنوا فى
بداية الأمر أنها إحدى الموميאות، وأرسلوها إلينا ... وهنا بدأت الأحداث، حيث
حملها عاصم ووضعها فى الدرج رقم ٣

درج رقم ثلاثة.. سليمة حسن رحومة.

انهض يا عم عاصم، هل تتذكرني، أنا تلك الفتاة البدوية البائسة التي برأتها!! أنا سليمة حسن رحومة . هل تذكر ذلك اليوم، أوماً عاصم لها وهو يتذكر ذلك اليوم العجيب .

لقد وضع تلك الجثة البائسة في درج رقم ثلاثة، حتى يأتي الدكتور سامح ليقوم بتشريحها في الصباح، أنهى مهمته وأرهقه التعب، جلس تحت الشجرة الوارفة يشرب الشاي ويقرأ القرآن كعادته دوماً بعد إنهاء إجراءات الحفظ . بعد دقائق نام من فرط التعب فوجدها أمامه، تفض ذلك الشريط الكتاني القدر، وتظهر من تحته . كانت صبية مليحة ترتدى زناً بدوياً مُزركشاً، ألوانه زاهية، ويُزين ذقنها وشم أخضر خفيف، وفي قدمها اليُمْنى خلخال فضي سميك تحته حذاء بلاستيكي أحمر اللون. وقفت تبتسم له، لكنه كان وجلاً من هيئتها الأولى فسألها في دهشة .

من أنتِ؟ قالت له بلهجة صحراوية غريبة على أذنيه

- أنى سليمة حسن رحومة، راعية الغنم

عاصم: أيه اللي حصلك !؟

- كلام الناس قتلني ... أنا مظلومة.

عاصم: كيف !؟

- أبى وإخوتى شكوا فى بعدما أطلقت (نسوان النجع) ألسنتها علىّ بكلام
سىء، علشان كنت حلوة، وعايقة، لكن عمرى ما عرفت العيب؟! أخی (جبر)
تاوانى فى الصحراء، لكن ليس هذا هو المَهم الآن؟!

عاصم: ما المهم إذن؟

الفتاة:- خمسة عشرة عامًا وأنا أنام فى قلق، أشعرأن ألسنتهم لازالت
تلوكنى بسوء؟! لقد ساقنى الله إلى هنا لتُبرئى ساحتى؟! هز عاصم رأسه فى حيرة.
- ولكن يابنتى .. من خبرتى لا يمكن إثبات ذلك فى حالتك، فالوفاة حدثت
منذ زمن بعيد، ابتسمت فى هدوء

- أعرف هذا، ولكن فقط كل ما أطلبه منك، أن تذهب إلى أهلى وتخبرهم
بذلك، لا أحد يعرف بشخصيتى غيرك وغير أهلى، تبدو شخص مؤتمن؟! اذهب
فقط واخبرهم بالقصة، هم سيصدقونك، لأنك لا تكذب .

عاصم : وكيف سيعرفون ذلك .

الفتاة : إن كذبوك فقل لهم إن (البشعة بينى وبينكم بحق الله)!! كانت
الجملة غريبة عليه، أول مرة يسمعها .

- وماذا يعنى هذا؟

- اذهب فقط وقل لهم هذا الكلام؟!

وفى اليوم التالى، كان الدكتور سامح يقوم بمهمة شاقة داخل حوض
التشريح .بينما كان عاصم شارداً فى مكان آخر، قال الدكتور سامح:

- طلق نارى من خلف الرأس!! مين دى، ومين عمل فيها كدة، كان عاصم
شارداً ويهذى قائلاً:

- سليمة حسن رحومة، من (نجع الجلايلة) فى الصحراء الغربية، قتلها

أخوها) جبر) لشكه في سلوكها، كان يُذيع الخبر كمنذيع، في نشرة الأخبار؟! مما
أثار دهشة الدكتور سامح؟!

- أيه يا عم عاصم؟! الشرطة نفسها، لم تستدل على هويتها، كيف عرفت
أنت كل ده؟! قال عاصم في ثقة :

عاصم: الى عندى قلته، الفتاة بريئة واتقتلت غدر.

سامح: مستحيل إبلاغ الشرطة بالخرافات دى، دون دليل رسمى، فأنا لست
مُتأكدًا، وسأبقى الموضوع كما هو إلى أن يجد جديد جثة مجهولة الهوية؟!

عاصم : مش مهم الأوراق الرسمية .. المهم البراءة .أوماً الدكتور سامح
برأسه عجبًا من هذا الشخص المجنون !! . سافر عاصم إلى النجع، قطع
المسافات الطويلة على الرغم من اعتلال صحته، لم يسمع تحذيرات صديقه
الوحيد الأستاذ فؤاد، بأن هؤلاء البدولايتهاونون في مثل تلك الأشياء، وأن فتح
ذلك الموضوع قد يجرعليه الكثير من المتاعب. اقترب عاصم من مضارب قومٍ
بها عدد قليل من الخيام، مساحة خضراء جميلة، حول نبع ماء صافٍ ترعى
به الكثير من النوق والأغنام، مناخ صحراوى مثالى لحياة هادئة، بقعة مجهولة
بعيدة عن الصخب والتلوث البيئى، وإن كانت غير بعيدة عن تلوث الفكر!! سأل
عن الشيخ رحومة، هو شيخ القبيلة، رجلٌ جاوز الثمانين، حوله جلس العديد
من الرجال في خيمة واسعة، يتوسطها مستوقد فحم كبير داخل حفرة، وعليه
إناء نحاسى كبير يدا السواد من قاعه، ورائحة القهوة العربية تفوح من المكان
بأسره، وبجواره منضدة صفت عليها أطباق التمر. وقف (عاصم) أمام (رحومة)
الذى كان ينظر له بكثير من الريبة، ووجهه المُتغضن بالتجاعيد، يتفحصه مليًا،
فالغريب هنا مُتهم حتى تثبت براءته، دعاه للجلوس وشرب القهوة، ظل عاصم
صامتًا وهو يتناول القهوة والتمر، مال إلى الأمام بالقرب من رحومة قائلًا

- أريد الحديث معك بيني وبينك، أشار الشيخ رحومة بعدها بيديه، قائلاً
لرجل خمسيني أسمر ضخم الجثة شرس الملامح، لا ينم وجهه عن ذكاء
- يا جبر. فض المجلس؟! كان عاصم يتأمله في ذهول، لم يعد هناك مجال
للشك أن ما رآه أول أمس، ليس بأضغاث أحلام، إنها رسالة حقيقية أرادت
تلك المسكينة إيصالها، فجثتها التي تشبه المومياء، موجودة هناك بالمشرحة،
وهاهو النجع كما وصفته هي تمامًا، وهاهو (رحومة)، والآن (جبر) الأخ القاتل
؟! فرغ المجلس في دقيقة واحدة، وبدأت الخيمة خالية. فمال عاصم مرة أخرى
في هدوء وهو يقول.

- عندي رسالة، أردت توصيلها لك، فهي أمانة!

رحومة:رسالة مِنْ مَنْ!! بدأ وجه عاصم جامدًا وهو ينظر في عينيه بقوة
قائلاً:

- من سليمة حسن رحومة، تمكن عاصم بعدها من سماع دقات قلب
الشيخ رحومة على الرغم من تعابير وجهه المتجهمة، لكن عاصم الخبير بلغة
الأجساد شعر بانهبأه.

رحومة: إيش؟ أنا ما عندي بنات بهذا الإسم؟! لكن عاصم تجاهل كلامه
قائلاً.

عاصم: ياشيخ رحومة، أنا مش جهة تحقيق، والحكومة مش هاتأخذ بكلامى
دون دليل، ولكن الرسالة أمانة، وعلى تأديتها مهما كلفنى الأمر! جثة ابنتك الآن
فى المشرحة، وتم اكتشافها بعد موتها بخمسة عشرة عامًا.

- رحومة: أنت مجنون؟! أية جثة واية رسالة، أنا لا أفهم شيئًا. رد عليه
عاصم

- بنتك سليمة بريئة من سوء السمعة، وماتت وهى عذراء؟! احتقن وجه
(رحومة) غضبًا، وظهرت علامات الشر على وجهه، وقال بحدة:

رحومة: وكيف عرفت؟

عاصم: هي خبرتني!

رحومة: أنت كاذب، ما حدا يعرف بها الموضوع من الأساس، من وين جبت

هذا الكلام؟

عاصم: قلت لك هي أرسلت لي رسالة، وقالت لي أيضًا أن الذي قتلها هو جبر، أوسط إخوتها، لاحظ عاصم فتاة عند البئر تطعم الماعز أمام الخيمة، كانت هي!! فأشار بيده إليها قائلاً

- هذه الفتاة تشبه سليمة تمامًا، تقريبًا أختها. شرد رحومة للحظة، ثم قال

- هي ابنة أختها! ولكن كيف عرفت ملامحها، سليمة ماتت من زمن بعيد،

أنا مش فاهم غرضك، وأنا إيش يدريني أن سليمة بريئة، تذكر عاصم جملتها فقال له.

- أنا صادق و"البشعة بيني وبينكم بحق الله". قطب رحومة حاجبيه قائلاً:

- كيف عرفت البشعة بحق الله، وأنت لست من البدو!.

- سليمة هي التي طلبت البشعة لتبرئ نفسها. أطرق رحومة برأسه في

دهشة، ثم قام واستدعى كل الرجال وقص عليهم الأمر، وقال لعاصم:

- اليوم نستضيفك وفي المساء سنعقد جلسة البشعة، تحضرها كل

القبيلة، وإذا تم تبرئة سليمة، سنكرمك، وننزل ونستلمها من المشرحة، ندفنها

في مضاربنا، وإن كان هناك ملعوب، فلن تخرج من هنا حيًّا!!! جلس عاصم في

خيمته بعض الطعام شعر بتوتر شديد، فما الذي أتى به إلى هنا؟ لقد ورط

نفسه، بحرق لسانه بنار مستعرة رهيبه، قد تحرق لسانه، أو تقطعه فلا يتكلم

مرة أخرى، كما قال له (فوَاد)، وقد تأتي في غير صالحه، فيُصاب بأذى، لكنه

قال لنفسه مشجعًا.

- لا تخش شيئاً يا عاصم، لقد أرسلك الله لتبرئة فتاة مسكينة، فهل لن يضيعك أبداً .

انعقدت الجلسة في المساء، كل القبيلة تجلس في حلقة كبيرة في الساحة، بينما جلس عاصم على ركبته أمام المُبَشِّع، الذي سخن محماس ابن المعدنى لدرجة الإحمرار، كان منظره رهيباً، لدرجة أن عاصم خاف بشدة من هيئته، إلا أنه تحلى بالثبات من أجل تلك الفتاة المسكينة، أمره المُبَشِّع بإخراج لسانه قبل اللمس للحاضرين ففعل، وبعد ذلك أمره بإخراج لسانه، وقربه من محماس ابن المتوهج وهو يقول (بسم الله)، ولمس به لسان عاصم، الذي أغمض عينيه مُستسلماً هادئاً، فكرر المُبَشِّع هذا العمل ثلاث مرات، وبعدها أعطاه كوباً من الماء، بصقه على الأرض، ثم نظر إلى لسان عاصم، والصمت يسود القبيلة بأسرها انتظاراً لحُكم البشعة. كان صوت الرياح قوياً في الصحراء، عندما تأمل (المُبَشِّع) لسان عاصم ثم قال بصوتٍ مُرتفع، مُفعم بالبهجة:

- الرجل صادق، والفتاة بريئة، تصاعدت الزغاريد في مضارب القبيلة كلها، بينما جلس عاصم يقول: اللهم لك الحمد.

الدرج الرابع: خضير البطل الضخم، ذو العضلات المفتولة

أحببتك كما لم أحب أبى وأمى، فلقد سترت عيبي، وحافظت على آخر رفق تبقى من كرامتى المُهدرة. كانت الرياضة هى كل مقصدي، أعيش من أجل حلم البطولة، أعمل في الصباح حداً وفي المساء أتدرب بكثافة حتى أصل لمستوى عالمي يليق، وأتمكن من شراء اللحوم والبروتينات، كانت حياتي هادئة تسير وفق تخطيط مُنظم، ورغم فقرى إلا أنى لم أسع مثل شباب الحارة، وراء جلسات المقاهى، أو مواعدة الفتيات في الخفاء. كُنت أحلم بالوقوف فوق منصة التتويج في الأولمبيات، لم لا، والإسكندرية تحمل تاريخاً مُشرقاً

لحصد الميداليات الأولمبية⁽¹⁴⁾، وبالفعل بدأ إسعى يلمع، بعد حصدي للكثير من البطولات، وأنضمامي لمنتخب المصارعة لكن حظي العائراًلقاها في طريقى ... (هند) الفاتنة!!، تسكن إحدى الحارات القريبة من سكننا، بيضاء كالقمر، لها خصلات شعر كستنائى لامع، تظهر من تحت حجابها!، ولها جسد خرافي، لاحظت أن له قدرة عجيبة على إيقاف حركة الشارع أو إصابتها بالارتباك، بمجرد طلته، وتلك هى بداية المعاناة! كانت تهادى كغزال صغير بجوار نبع الماء، جميلة برينة فى الصباح وهى تسير مرتدية حجابها فى خجل، لفتت انتباهى، وهى تسير أمام ورشة الحدادة تراقب جسدى القوى النصف عارٍ صيفاً، وأنا أطرق على الحديد أمام الفرن، كانت تنظر لى فى إعجاب وترحل، ومن أول نظرة سقطتُ فى الشرك الذى نصبته لى! لم أكن خبيراً بالنساء، ولم أعرف منهن سوى أمى، فلقد حمتهى الرياضة من الرذيلة حتى ذلك اليوم الذى رأيتها فيه، وبعدها تغير كل شىء، وشيئاً فشيئاً تخلت عن حلم الرياضة، هربت من معسكر المنتخب المؤهل للأولمبياد وتوقفت عن العمل!!، وتعلمت كل شىء على يديها، وتمنيت أن أمتلكها وأن تصبح لى زوجة!!، بعد أن تأكدت من إحكام الفخ حولى، أخذت تتمنع على وتصدنى، وتتذرع بانشغالها، تطلب منى نقوداً!!، وقعت أسير هواها، وتتبع حركة سيرها صباحاً ومساءً.

وعرفت أن المساء عندها كان له شأنٌ آخر!! فهى تعمل راقصة فى أحد المحال الرخيصة فى وسط البلد، واجهتها بالأمر، فاعترفت لى بحبها، واعترفت أيضاً بعدم قدرتها على ترك تلك المهنة، إسطوانة قديمة محفوظة عن الأب الذى ترك لها تسعة أشقاء يعيشون جميعهم فى جُحر، وأم مريضة بالشلل؟! لم أتمكن من مقاومتها وسرت وراءها مُغيباً، وعملت عندها حارساً عرفت الخمر

(14) ويذكر ان مدينة الإسكندرية كان لها نصيب الأسد فى الميداليات الأولمبية التى حصلت عليها مصر حتى الآن حيث نجح أبطالها فى الحصول على 13 ميدالية من أصل 25 حتى الآن أى أكثر من نصف ما حصده مصر من الميداليات، كما حظيت ب- خمس ميداليات ذهبية من أصل سبع ميداليات حصلت عليها مصر فى الأولمبياد .

والمخدرات!! وسرت في طريق اللاعودة، حتى ذاع صيتها، وانتقلت إلى أحد المحال الفاخرة، وعملت بالسينما، صارت تعاملنى كالحشرة، تُهيننى وأحياناً تضربنى! وأنا خانع مُستسلم!، إلى أن جاء ذلك اليوم المشئوم، ورأيت ذلك اللعين في الصالة وهو يلقي بشباكه عليها، كان صديقى لكنه عاد من الخليج غنيًا يلعب بالنقود! خرج معها من الملهى، وركبا السيارة الفاخرة، حاولت الركوب معها فرفضت ونهرتنى، بينما ذلك الحقير، ينظر لى ضاحكًا باستخفاف، هربا بالسيارة، كنت أعلم المكان الذى تقصده لقضاء الليلة، تلك الشقة المظلة على البحر، والى اشتراها لها أحد الأثرياء العرب. قررت يومها أن أنهى كل شىء، انتظرتهما مُتخفيًا أمام العمارة، وبمجرد نزولهما من المبنى، أطلقت عليهما النار، فقتلتها. طاردنى بعض المارة، وشرطيًا من حراسة أحد البنوك القريبة، حاولت عبور الكورنيش، دهستنى سيارة مسرعة، لتنهى معاناتى وحكايتى. لم يُكرمى أحد في حياتى مثلما أكرمتنى، لم أنس إشفافك علىّ، وطرديك للصحفين، من حول المكان، الآن تذكرتنى الصحافة؟! بمانشيت ساخن «نهاية المُصارع القاتل»، أه لو تعلم الناس تلك الكلمة التى لقتها لى: (الستر)، تلك الكلمة السحرية التى لوكنت عرفت قيمتها في حياتى لما كنت وصلت لهذا المصير، ولما فضح الناس بعضهم بعضًا: ابتغاء لمنصب زائل، أو حفنة من النقود، رأيتك وأنت تصرخ في وجه الصحفين، بتركى وشأتى، حتى أظل البطل المُحترم في عيون الناس، وانصرفوا دون أن يحصلوا منك على كلمة! أعلم أنك قد رأيت أماكن غرز الحقن في ذراعى، ورأيت كل الأذى الذى أحدثته في جسدى، ومر الأمر بسلام!! لذلك أبدًا لن أوفيك حَقك!!

درج ٥... أماليا

إن الليل والنهار، يعملان فيك، فاعمل فيهما، وبأخذان منك، فخذ منهما
..الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه
جريدة أخبار اليوم ... العثور على جثة سيدة أجنبية مُسنة داخل شقتها
بالإسكندرية.

هذا وقد تبين أن السيدة العجوز من الطائفة الأرمنية، وكانت مالكة سابقة
لحانة (سبيت فاير) الشهيرة، وتُدعى (أماليا بابادوبلس)، وكعادته كل مساء،
تسلم عاصم الوارد الجديد من صديقه (عبودة) التمرجى الخائف دومًا، وضعها
على الترولى، قرأ اسمها في الورقة التي سلمها له (عبودة)، جلس بجوار الترولى
في الحديقة في حزن، كشف وجهها قبل أن ينادى على الحاجة (عائشة) المسنولة
عن النساء، وبعدها توقف كل شيء، ما الذى تفعله بنا الأيام! إنها تقضى علينا
كما يقضى النمل الأبيض على الأشجار الضخمة، دقيقة بعد دقيقة وساعة
بعد ساعة، ثم ينتهى كل شيء ولا يبقى سوى شيء واحد .. قلب سليم، هل هذه
هى أماليا الفراشة الراقصة؟ لم يبق لها شيء سوى مشاعرها الطيبة الفياضة،
لم تكن مجرد جسدًا جميلًا، بل كانت روحًا طيبة مُحلقة في الفضاء، كانت أختًا
وأحيانًا أمًا للجميع داخل (سبيت فاير)، لذلك أحبها وتزوجها، ثم تركها بعد
موت ابنه دون سابق إنذار، كانت تواسى البحارة، وتقترضهم المال، وترسل
الرسائل لحبيباتهن نيابةً عنهم، عندما يتعذر عليهم ذلك، أو تحتفظ برسائلهم

حينما يعودون، كانت تعرفهم واحدًا واحدًا، وتشاركهم قصصهم الشيقة. هذه قبعة "جونى" البحار الإيطالى المجنون، مات فى الحرب العالمية الثانية ودُفن فى مقابر الحلفاء والمحور بالصحراء الغربية فى مصر. وهذا غليون "باندرياس" البحار اليونانى العجوز الذى مات وهو يحاول إنقاذ ركاب السفينة التجارية قبل أن تغرق، وهذه عصاة "عبدون" الملاح النوبى الشاب صاحب الصوت النحاسى الرائع الذى هام فى البحر بعدما تخلت حبيبته عنه!! وهذا "مارك" الذى صار تاجرًا كبيرًا فى فرنسا، والكثير منهم!! جلس بجوارها والدموع فى عينيه، لقد كانت تحبه بصدق، ولذلك رفضت أن تترك الدنيا دون وداعه.

الدرج السادس: العابد

العثور على جثة رجل سبعينى، مصابة بعدة إصابات فى الجسد .

اقترب الدكتور سامح من ذلك الرجل العملاق أبيض البشرة نضر الوجه ذى اللحية البيضاء المُشذبة، كان عاصم يقف خلفه، مد يده بالمشروط ليحدث جرحًا طويلًا باليد، لكن المشروط سقط من يده أكثر من أربع مرات، مما أصاب الدكتور سامح بارتباك شديد. استخدم مشروط أكبر، وبمجرد أن قرب من جسد الشيخ الذى أمامه حتى انغرز فى إصبعه، وصرخ الطبيب بشدة، وقبل أن يضمده له زميله الجرح، زلزل المبني، انفجار مدوى، ورائحة حريق حيث احترق المحول الروسى الكبير فى الحديقة، هرول الجميع لمحاولة تفادى الكارثة فى الحديقة، لكنهم سمعوا صرخة مدوية من (عطيات الدبدوية) الممرضة التى انكسرت ساقها الغليظة، أثناء انزلاقها على أرضية المشرحة، خرج الجميع مشغولين بما حدث لهم من إصابات ولم يقترب أحد من جسده، انتهى رجال الإطفاء من إخماد الحريق، وعاد الهدوء إلى المكان، تركوه وحيدًا، ونائمًا فى سلام فوق المنضدة الكبيرة، بينما عاصم يقف مشدوهاً أمامه، رأى بالقرب منه على الطاولة كتابًا أسود كبيرًا، وقف مُبتسمًا فى فرح!! عملاق يقترب طوله من

المترين !! لحيته بيضاء، وشعره ناعم وعينه خضراوين، وكأن مصابيح إستاذ الإسكندرية قد ضربت في وجهه، من فرط النور، كان مُبتسماً ورائقاً وكأنه ذاهب إلى نُزْهة. جلس عاصم أمامه في فرح يهمس وعينه على اتساعها:

- المؤمنون... أولياء الله، قال له الشيخ هريدى معلمه، الذى كان يعمل قبله هنا.

- دول هاتحس بيهم بقلبك، وهاتعرفهم على طول، لكن إياك ثم إياك إهانتهم. لذلك ابتسم عندما رأى الجميع يفرون من أمامه . اقترب من إذنه في احترام قائلاً:

- عملت أيه علشان توصل لهنالك يا مولانا !! دلنى .. أنا تايه ومش لاقى الطريق قلب كفيه، ليجد ذلك الوشم الرهيب ينظر له!!، أسد ضخم له عينان قويتان . لا ينساهما أبداً، أخذته غفوة على الأريكة الخشبية، بعدما أودعه الثلاجة، ليجده يقف في مكان فسيح، يُشبه مدرج الطائرات، كان يقف في سعادة، ويشير إلى مركبة، ظلت تقترب من المدرج حتى توقفت، ما كل هذه الروعة، تبدو كطبق طائر بلورى يخطف البصر، كان واسعاً جداً وكأنه كون فسيح، به مقاعد وثيرة، وخُضرة، وماء رقرق به وجوه فرحة، وعيون ضاحكة، لا يكسوها شقاء، ولا يعلوها اكتئاب. وقف ثابتاً عندما مُد له سلم، فصعد عليه بثبات. فرح عاصم، واقترب هو الآخر ليركب معه، ومد ساقه على السلم، إلا أن الدرج ظل يبتعد، وجده عاليًا جداً، لم يتمكن من الارتقاء درجة واحدة! بينما الوجوه الفرحة، تنظر له في إشفاق، وتشجعه .

- لا تحزن، يوماً ما سترتقى، كل له مكانته ورزقه انطلق بهم الطبق وهم يمرحون كأطفال في رحلة مدرسية. نهض عاصم من فوق أريكته باكياً بحسرة قائلاً، حيا الرجل باحترام وأودعه درج رقم ستة . وهو يقول لنفسه

- ياه .. أنا لسة بعيد قوى!! لكن الدهشة أصابته عندما وجد الكتاب قريبًا منه، فهو لا يعرف من أين أتى ولا كيف أتى، وكأن الرجل قد تركه ليُدله على الطريق لا يفارقه أبدًا مع مصحفه الصغير.

فرغ قلبك من الأغيار، يملأه بالمعارف والأسرار... ابن عطاء الله

- كيف حالك يا عاصم، فزع عاصم وهو يراه واقفًا أمامه مُبتسمًا، ويناديه باسمه. لم يتكلم

- ألا زلت تبحث عن الطريق، ابتسم عاصم قائلاً

- نعم.

- إن شاء الله تسير في الطريق الصحيح، تلفت حول عاصم في هدوء وقال له وهو يشير بأصبعه حول دائرة:

- مُنذ متى وهم يطوفون معك، قطب عاصم حاجبيه في دهشة قائلاً

- ماذا تقصد، ابتسم الرجل في قوة، وهو يقول:

- أنت تعلم، ماذا أقصد جيدًا، سأقول لك أنا:

- مُنذ خمسة عشر عامًا. مُنذ أن فقدت ابنتك فضيل وغسلته بيديك،

وتعلمت مهنتك من الشيخ (هريدي)، يا (كاتم السر)، لا أحد يعرف هذه الكُنية

غير (الشيخ هريدي) والذي كان يكنيه بها. مسح الرجل بيديه البيضاء على

صدره قائلاً:

- كم سترت أجسادًا، وأخفيت عيوبًا، وصبرت على فراق أحب أبنائك،

حولت وجعك إلى خير للجميع، فسيؤتيك الله من فضله بإذنه.

بكي عاصم في تأثر، لقد عانى كثيرًا بالفعل ولكن الله كريم.

- من أنت قالها عاصم في فضول لكن الرجل تجاهل سؤاله. وقال له

- ابنتك فضيل، يُسلم عليك، اندهش كثيرًا قالًا

- كيف عرفت

- لا تندهش يا (كاتم السر)، كل شيء وله أسراره، اذهب إلى مسجد العابد،
اقرب واحضر الذكر مع الرجال، في غرة الشهر العربي، فهم في انتظارك.

- اذهب إلى هناك، سوف تعرفني جيداً!! لكنك الآن يجب أن تعود بإذن
الله، تجمع أصدقاءه، ووضعوا يدهم على صدره، وكأن صاعقاً كهربياً ضربه
وهم يكلمونه، كانت سليمة تمسك بيده وهو في الغيبوبة انهض يا عم عاصم
... سترك الله في الدنيا والآخرة كما سترتني، انهض يا عاصم فلازال الرجال في
الحضرة يتظرونك، كان فضيل مبتسماً وهو يعطيه ذلك الشراب حلو المذاق
قائلاً، اشرب يا أبي تبرأ من مرضك بإذن الله، بينما فيروز تقف بجواره تدفعه،
وخضير الضخم يدفعه في صدره انهض يا عاصم فلم يحن الوقت بعد ففتح
عينيه بقوة !!

هم سامح بمغادرة الغرفة بينما سها تتابع بعض الحالات، رآته يحرك
ذراعيه ويفتح عينيه، فهولت مبتسمة وهي تنادى على الدكتور سامح :
- تعالى يا دكتور سامح، مساعدك بيتحسن .عاد مرة أخرى ليجده فاتحاً
عينيه، والطبيبة تزيل جهاز التنفس الصناعي من على وجهه .

اقرب منه قائلاً:

- حمد الله على السلامة يا عم عاصم .. لقد نجاك الله . أوماً عاصم برأسه
في وهن وهو يقول بصوت ضعيف :

- الحمد لله، أشار للدكتور سامح أن يقرب فاقرب منه، همس له بشيء
بدت الجدية على وجه الطبيب
- كده، طيب أنا هاتصرف.

مُنذ هروبهم من ٢ حارة الغول، وانتقالهم إلى منزل حميدة أبو النور، وحسين لا يكاد يخرج من غرفته إلا نادرًا، بدأ أشعثًا، مُهملاً لنفسه بشكل مقزز، لا يكاد يفיק من المخدرات، حتى يطلب جرعة أخرى ينفصل بها عن الحياة مُجددًا، وكأنه يعيش على هامشها، عكس مشيرة التي تجاوزت ذلك الحادث المُروع بكل هدوء، تتمتع بصلاية غريبة أحيانًا ما يحسدها عليها، فلو كان قويا من البداية، لما انحدرت حياته بهذا الشكل. كان يُمكنه أن يكون إنسانًا آخر.. لكن لا فائدة الآن فكل شيء يسير من سىء إلى أسوأ، فهذا هو قانون الطريق؟، فالطريق المُستقيم دائمًا ما يسير بك من ضيق إلى أوسع، أما الطرق المُعوجة، فغالبًا ما تنحدر بك إلى طُرق أكثر اعوجاجًا حتى تقذف بك إلى هوةٍ سحيقة .

كان نائمًا عندما اندفعت مُشيرة كالإعصار، وهي توظفه بقوة.

- إصحي يا حسين... مصيبة، فتح حسين عينيه بسرعة وهو يتأفف.

حسين: فيه أيه ؟!

مشيرة: أبوك فاق النهاردة الصبح... وطلب الشرطة علشان عنده اعترافات مُهمة. لسة نعمة المُمرضة مبلغانى !! بدأ مُتبدلاً ولم يهتم وهو يحملق في سقف الغرفة

- مش مهم !!

- إزاي مش مهم؟! كدة هانضيع. خلاص السفر الأسبوع الجاي، حياة جديدة ودنيا جديدة. بدا مُخدرًا وهو ينظر لها باحتقار
ثم يعود ويُحملك في سقف الغرفة، وهو يهذي:
- نضيع، إحنا ضعننا خلاص! وحياة أيه اللي هنبنيها على دم أعز ناس لينا!..
ربنا ينتقم منك .

- أنا مش هاضيع كل ده علشان غبانك، أنا هاتصرف بالليل قبل ما يجي
الظابط الصباح
حسين: يعنى أيه .

مشيرة: يعنى اتفقت خلاص مع نعمة، إنها هاتسيبني بالليل أتصرف،
وها تاخذ مبلغ محترم، وبعدين نسا فربرا نبدأ حياة جديدة .

كانت تحدثه عن الحياة الجديدة، ونقود الخليج التي ستهمر عليهم،
وهي ترتدى ملابسها لتقابل نعمة، حتى ترتب لجريمة المساء، ارتدت خاتمها
الفضي، الذي لاتخلعه من يدها، وكعادتها تأنقت كثيرًا، وكأنها تستعد لمقابلة
غرامية، لا لتدبير جريمة قتل جديدة!! ظل صامتًا بينما هي تتحدث في هدوء،
سمعت صوتًا معدنيًا خلفها، وبشيء يمر بخفة شديدة فوق رقبتها، كان حسين
قد سحب مديته بسرعة خاطفة، ومررها ببراعة على رقبتها من الخلف، ثم
أعادها إلى جيبه في ثانيتين التفت له في ذهول، عندما انفجرت الدماء من رقبتها
وهي تصرخ .

- غدرت يا بن الكلب، أنا هاقنتك، تفادى ضرباتها الشرسة، حتى خارت
قواها، نظر لها في حسرة وهو يقول :

- أنت بالفعل قتلتيني، قتلتيني ألف مرة .. خلاص كل شيء راح .. كل شيء
راح . أخذ يضحك بشدة ثم خرج إلى الشارع، وملابسه مُلطخة بالدماء، وهو
يهذي قائلاً:

- خلاص كل شىء راح؟! لاحظته عدد من المارة، بهيئته الغريبة وقميصه الملوّث بالدم، لكن الأمر لم يفت على سيارة الدورية الراكبة التي مرت بجواره بالصدفة، حيث تجاوزته قليلاً، ثمّ عادت مُسرعة، بينما كان هو يسير مُرتعداً، وإمارات اللوثة بادية عليه! نزل من السيارة ثلاثة رجال أشداء، يرتدون ملابس مدنية، دفعوه إلى الحائط بسرعة، وكبلوا يديه خلفه، وهو يتسم دون مقاومة قائلاً

- خلاص كل شىء ضاع... كل شىء ضاع

مشروع تطوير المحجر القديم

كانت أدوات الحفر تعمل بقوة في أرض المحجر، والعمال مُهمكون في الحفر، ضرب أحدهم الأرض بفأسه، لكن الفأس توقفت! يبدو أن هناك حجرًا كبيرًا تحته! انحنى العامل ليُزيح الحجر، إلا أنه صرخ في رُعب.

- أعوذ بالله ..قتيل قتل، هرول العمال في فزع ليجدو هيكلًا عظيمًا ضخماً، وعلى الجانب الآخر من المحجر، وجدوا حقيبة كبيرة حمراء اللون...دقائق وانتشرت الشرطه في كل مكان، والكلاب البوليسية الضخمة تبحث عن جُثث أخرى بينما، وقف المُقدم (طارق الأغا) رئيس مباحث القسم ومعه مُساعده النقيب (على السليتي)، أمام الهيكل العظمى المُغطى بقماشه بيضاء اللون، والذي تجمهر حوله عشرات الأهالي والعمال، وأمامهم الحقيبة الحمراء الكبيرة. أخذ على السليتي يُقلبها يمينًا ويسارًا، لعل بها ما يُفيد في عملية البحث، لكن الحقيبة كانت فارغة تمامًا وليس بها أى شيء. قال النقيب على لرئيسه.

- الجثة بقالها سنة تقريبًا، وكل شيء اختفى بسبب الجير، الموضوع شكله صعب ابتسم طارق المُحنك قائلًا

- كُل شيء في أوله صعب، لكن القاعدة الأساسية التي تعلمتها، أن كُل جريمة، تُشير في النهاية إلى مرتكبها فما تستعجلش!. وأيه هي تقديراتك المبدئية؟ على: ممكن تكون نتيجة نأر، أو مشاجرة بين أشقياء.

طارق: الخطأ التانى يا على، الشنطة هنا بتعمل أيه؟ الراجل ده ماتقتلش هنا!! حك على أنفه فى خُدلان. دائماً ما يُظهر أستاذه تفوقاً عليه فأوماً قليلاً:
على: معك حق يا فندم، الجريمة تمت فى مكان ما وتم دفن الجُثة هُنا، وغالباً ما تم استخدام الحقيبة فى نقلها إلى هنا، كان طارق قد وضع الحقيبة على ظهر سيارة الشُرطة البيجو، واستخدم كشافاً قوياً وهو يفحص كل جزء فيها بدقة، أشار إليها وهو يقول لعلى

- البداية من هنا، شعر بإحباط شديد فلم يكن بها شىء على الإطلاق!!
قام بمحاولةٍ أخيرة، قبل أن يُرسلها إلى المعمل الجنائى، وضع يده على بطاناتها الحمراء المُطرزة من قُماش (الستان)، توقفت يده تحت شىء بارز صغير، ما بين البطانة والجلد، مد يده فى الجيب السرى الذى قلب فيه مئات المرات، ثُقب صغير مرر ذلك الشىء إلى بطانة الحقيبة، مد يده بمقص خفيف وسع الفتحة وغاص بأصابعه خلف الشىء، وخرج به، ورقة حكومية وردية مبرومة، بدت كإيصال، أو تعريفه مرور، فتحها فى شغف تحت الكشاف القوى، وإبتسم لعلى وهو يقرأ الورقة القديمة البالية التى طويت بعناية :

- منفذ السلوم البرى

الاسم : سبع الليل على مناع ١٢ ش راغب محطة مصر (منزل المعى).

انتشر رجال المباحث فوق سطح العقار، يبحثون عن أى خيط يدلهم على مقتل سبع الليل مناع، تفحص المُقدم طارق المكان جيداً، بدت العُرفة موصدة فاستدعى صاحبة المنزل، حتى يتمكن من فتحها. انتبه إلى ذلك البُرج الأخضر الكبير ذى السلالم الحديدية ، بينما جاءت مدام أزهار زوجة (المعى) ، وهى فزعنة من استدعائهم لها . سألتها المُقدم طارق وهو يتفحصها بحُكم عمله قائلاً:
- فىن صاحب البيت يا مدام، ردت عليه وهى تبكى بصوت عالٍ يحمل الكثير

من التصنع .

- مات يا سعادة البيه .. وأنا مراته

طارق : طيب فين أسرة سبع الليل مناع؟!

أزهار: هو اختفى من سنة تقريبًا، و(حميدة أبو النور) مراته ماتت من شهر، وساكن في الغرفة دلوقتى بنتها (مُشيرة) وزوجها حسين بعد ما بيتهم اتهد.

طارق: طيب .هما فين؟

أزهار: الله أعلم . لكن مفيش حد، شكلم خرجوا. انتبه طارق لذلك البرج الأخضر ذى السلالم الحديدية القوية، ودون تردد صعد إلى البرج الأخضر، أ صابه الدهول من هول ما رأى !! بواجير جاز قديمة، ومجموعة من الأواني النحاسية التي تستخدم في غسيل الملابس في المناطق الشعبية والملوثة بالدماء، جُثث مُحنطة لحيوانات، كلاب مُخيفة، وقطط وفئران وقنافذ، مشارط، وسكاكين من كل الأحجام ومناشير.. كتم طارق أنفاسه، وتهدت معدته.

- ماهذا الجنون !!، إنها سلخانة، سلخانة كاملة، لقتل وتوضيب الضحايا، وأى نوع من الضحايا، بشرًا كانوا، أم حيوانات، فلا فرق، هناك قاتل طليق يستعذب القتل ويرى فيه حياة . نزل من فوق السلم الخشى وهو فى حالة استنفار شديدة، فوجه سؤاله لأزهار

- عشة الحمام دى بتاعة مين، ومين بيخزن فيها الحاجات دى ؟

أزهار: دى بتاعة حميدة أبو النور، وجوزها (سبع الليل) هما اللى كانوا ييربوا فيها الحمام، وبيخزنوا فيها أدوات الغسيل . حميدة كانت بتغسل الهدوم للناس، واحنا كنا بنسيبها تسترزق ! هو فيه حاجة يابيه، لم يهتم طارق بالإجابة على سؤالها وإنما سألها وعقله يعمل فى مكانٍ آخر، ويمسك بجهاز اللاسلكى وهو يسألها:

اسمها مشيرة أيه؟

- مش عارفة والله يابيه، لكن أبوها كان اسمه الحاج نبيل. قاطعها طارق وهو يتحدث في اللاسلكي لمساعدته على السليتي أمراً بلهجة عسكرية

- النقيب على السليتي ... النقيب على السليتي

على : أوامرك يافندم

طارق : المحضر اللى قدمه الراجل المريض في المستشفى العام أمس، كان بيتهم مين بالقتل

على : واحدة اسمها مشيرة نبيل درويش؟! وزوجها حسين وهو ابنه، واحنا بدأنا التحقيقات

طارق : طيب هاتلى صورة من المحضر، وتعالى فوراً، فيه مُصيبة هنا!!

على : تمام سعادتك يا باشا.

نظر طارق إلى عُرفة حميدة المُغلقة، شعر بأنها تحمل بين جنباتها أسراراً، أخرج من جيبه ورقة أعطاها لأزهار قانلاً:

- هانكسر الباب، فأومأت أزهار برأسها في رعب. ليعطى أمراً لرجاله قانلاً

- اكسروا الباب!

ثوانٍ، وانهار المزلاج الصدئ من قوة ضربات الرجال، الذين انتشروا في الغرفة بطريقة منظمة وخبيرة، ولدهشة الجميع، وجدوا بركة من الدماء، ومشيرة مسجية على الأرض، اقترب أحدهم من وجهها قانلاً

- دى بترمش يا فندم .. لسة صاحية، استند طارق على ركبتيه في لهفة، ووضع رأسه على صدرها، كان نبضها ضعيفاً، فهول سريعاً مُستدعيًا سيارة الإسعاف.

شهر كامل بعد الحادث... غرفة بيضاء

أفاقتم مشيرة، نظرت حولها فانتهت إلى أنها ترتدى ملابس بيضاء، وعليها بطانية رمادية أميرية، وحول رقبته الكثيرمن الضمادات والدعامات، لقد تذكرت، فالحقير حسين ذبحها، ولاندرى لماذا لم تمت، إن الموت أهون؟! فى الآن فى قبضتهم، حاولت أن تنادى أحداً، لكن صوتها لم يخرج، حاوت مراراً وتكراراً، لكن فمها كان يتحرك دون أى صوت يخرج منه. انتهت لذلك الزر الأبيض المعلق بالقرب منها، ضغطت عليه، فجاءتها على الفور فتاة عشرينية جميلة ترتدى ملابس وردية. انتهت لها وهى تقول :

- حمد الله على سلامتكم . أشارت لها، تطلب كوباً من الماء، عادت الفتاة وقدمت لها الكوب، وهى تنظر لها بابتسامة مغلقة، لم ترتج لها مشيرة، عندما لاحظت تلك الأشرطة الأميركية التى تُعلقها على ذراعها الأيمن، كما انتهت لذلك الصغد الأميرى الذى يُكبل معصمها فى رأس السرير الإيدىال . إذن هى فى السجن، أو مستشفى تابع له. كانت الغرفة هادئة تماماً، فسمعتها وهى تتحدث فى التليفون قائلة:

- ألو. هنا المستشفى يا فندم. صمتمت قليلاً وهى تقول :

- الحالة اللى فى غرفة ٢٢ فاقتم يا فندم . صمتمت قليلاً وهى تستمع إلى عدد

من الأوامر، قالت بعدها:

- التاسعة صباحًا، تمام يا فندم . نظرت مُشيرة في السقف، إنها تستدعهم، لقد حانت لحظتها، كانت هادئة وهي تضغط على الزر الأبيض، طلبت قلمًا وأوراقًا . كانت الساعة تُشير إلى التاسعة مساء والغرفة خالية، قالت لها الممرضة بعدما أحضرت لها الأوراق والقلم :

- أنا هنا جنبك، إذا احتجيتِ أى شىء، فاضغطي على الزر، سمعت صوت ذلك العسكري الذى يجلس على كرسى خشبي أمام غرفتها مباشرة .هدأت الغرفة تمامًا ظلت تنظر مليًا إلى الخاتم العقيق الأخضر، من حسن حظها أنه ظل ملتصقًا بها، ولم يخلعوه عنها، نظرت له في فرح، وهي تكلمه:

- كنت عارفة إن هايجى يوم واحتاجك فيه، أنت المنقذ والخلص! أدارت رأس الخاتم برفق حتى خرج رويدًا رويدًا، وانفصل عن تجويف الخاتم. واستقر تحته مسحوق خشن قليلاً يحوى بلورات خضراء زاهية اللون. نظرت لها وهي تبتسم، ولونها الأخضر ينعكس على وجهها مع الإضاءة الخافتة للغرفة، تلمست حبيباتها في سعادة، وكأنها تتقرب من حبيب، همست باسمه في حنان

- الغصن الأخضر، حلال المشاكل، راحة المتعبين، والبوابة الخضراء للسعادة الأبدية، إذا كان بهذا البلد إنصاف، لحصلت على وسام وبراءة الاختراع؟! قبلت الخاتم في تقديس وسحبت كوب الماء من فوق المنضدة، سكبت حبيبات الكرستال الخضراء في الكوب، فأحدثت فورانًا قويًا، ورائحة ذكية، تشبه الفواكه، تذوقته بتلذذ من يشرب مشروبًا مُنعشًا في إحدى ليالى الصيف الحارة . جلست مُسترخية تمامًا، ثم مدت يدها وأخذت تكتب وتكتب حتى أفرغت كل ما في رأسها، خطت ثلاثة خطوط تحت ما كتبت ثم وضعت فوقها الخاتم. وأغمضت عينها في راحة .

صباح اليوم التاليالساعة التاسعة صباحًا .

خطوات ثقيلة لمجموعة من العسكريين يتوسطهم شخص يرتدى بذلة

مدنية أنيقة كاملة وبجواره المقدم طارق الأغا، اقتربوا من الباب، فنهض الجندي في احترام مؤديًا التحية العسكرية. استقبلتهم الشاويش (ياسمين) المريضة المشرفة على الغرفة ٢٢، فسألها المقدم طارق

- كل شيء جاهز يا ياسمين

ياسمين: جاهز سعادتك يا فندم .

طارق: هي صاحية؟

ياسمين: صاحية من ساعتين وفطرت. فتحت الباب، فوجدت كل شيء كما هو لكنها كانت نائمة، وقف الرجال حولها نصف دائرة وياسمين توقظها.

- إصحى يا مشيرة، الهوات جاين ياخدوا منك كلمتين، كانت مشيرة نائمة في هدوء ولم تستجب لنداءات ياسمين، حاولت معها تكررًا، ثم قالت للمقدم طارق الذى كسا الإحباط وجهه .

- إلحق يا باشا دى مش بترد!؟

- اقترب وكيل النيابة منها، ولحق به الأطباء، إلى أن قال أحد الأطباء.

- دى ماتت.

لا حظ وكيل النيابة تلك الأوراق والخاتم، فأخذها، وأمر إيداع الجثة المشرحة الأميرية، لتشييحها وإرسال تقرير بالوفاة .

يوم الخميس الموافق ٢٩ ديسمبر عام ٢٠٠٠ م

أعلم أنكم بحثم عنى كثيرًا، لكن هذا هو اختياري فأنا من سلالة العظماء، أنثى العقرب الشرسة، التلميذة النجيبة لجوليا توفانا^(١٥)، أشهر صانعة سموم في التاريخ!! فلا يمكن أن أموت كفأرفي مصيدة، لقد اخترت بوابتي الملكية للعبور إلى العالم الآخر، لقد قررت الموت على الطريقة الملكية، طريقتي التي أعدت لها نفسى منذ زمن، لا طريقتكم . لقد فعلت كل تلك الجرائم عن اقتناع، الحياة قاسية، ولا تقدم لأمثالنا من الفقراء الذين يعيشون معظم حياتهم، فوق أسطح العمارات، أو في أسفلها، أماكن قذرة، رطبة، لا يدخلها شمس أو هواء، لا نملك الكثير من الخيارات الجيدة، كل الخيارات المتاحة الكئيبة تكون من نصيبنا نحن، فالحياة درجات، والأغبياء والضعفاء فقط هم من يكون مصيرهم بأيدي غيرهم، أما أنا فلا؟!!!

أنا اخترت المجد، كنت أحب العلم، لكن ظروف فقري هيأت لى دراسة التمريض فقط! ولكنى برعت فيه لأقصى حد، كنت أهوى قراءة كتب الطب والصيدلة والكيمياء، صرت أقوى من أى خبير سموم دون مبالغة، فأنا أحب هذه الهواية وأمارسها بحب منذ أن كنت طفلة فى العاشرة، واغتصبتى (لمعى) الحقير صاحب المنزل الذى كنا نعيش فيه أنا وأمى، فقررت الانتقام يومها،

(15) جوليا توفانا، صانعة سموم إيطالية اشتهرت ببيع سم "أكوا توفانا" الذي ابتكرته وسمي باسمها للنساء اللاتي يرغبن في قتل أزواجهن ولتعدم على الكرسي الرسولي بأمر من البابا بالدولة البابوية في شهر يوليو عام ١٦٥٩ م.

وكثفت من قدراتي، وبحثت عن طريقة مناسبة للانتقام إلى أن وقع في يدي كتابًا قديمًا ابتعته بخمسة قروش من شارع النبي دانييل معقل الكتب القديمة، إنه كتاب عن سيده إيطالية - تدعى جوليا توفانا، أشهر صانعة سموم في القرن السابع عشر، قتلت زوجها بالسم، ثم قتلت أكثر من ستمائة زوج بالسموم المبتكرة التي باعها للزوجات، وحاكمتها الكنيسة وقامت بحرقها، أعجبتني قصتها، بل عشقتها بجنون!! وصرت أنعلم كل يوم حتى توصلت لتركيبيتي الخاصة، والتي لا تترك أثرًا!! استخدمتها كثيرًا لحل مشاكلنا أنا وحسين زوجي ومساعدى في جميع الجرائم!!، لم نكن نرغب في قتل أحد من البشر في البداية، وكنت مُكتفيةً، بهوايتي في تصنيع ومزج السموم واستخدامها على الحيوانات، إلى أن جاء اليوم المشؤم الذي حاول فيه سبع الليل اغتصابي وأنا نائمة، حاولت التخلص منه بأية طريقة، فلم أتمكن، قتلته بسكين الفاكهة الموجودة على المنضدة، وأجهزت عليه، وقمنا بالتخلص من جثته، أنا وحسين في أرض المحجر القديم، ثم بعد ذلك جاءت أمى (حميدة ابو النور) وهددتنى، فلقد رأيت كل شيء، وهى تختبئ في البرج الأخضر!، تحينت الفرصة، تركتها نائمة وغرزت برقبته الحقنة المسمومة، وماتت دون أثر، ثم تخلصنا به من (المعى عبد العاطى) تاجر الغلال، ذلك الحيوان القذر الذى قضى على طفولتى، ثم جاء بيتزنى، بعدما وقعت في يده بطاقة حسين وهو ينقل جثة سبع الليل، وضعت له السم في قطعة الجاتوه التى التهمها كالحوان الجائع ! ثم جاءت في النهاية فيروز حماتى التى تدخلت فيما لا يعنهما، وحازت أوراقًا، كانت كفييلة بفضحى وتشريدى واتهامى بالقتل وهددتنى، فوضعت لها السم في القهوة التى تعشقها، كما اشتركنا في قتل واخفاء جثة سبع الليل مناع زوج أمى . لقد حاكمناهم واعدمناهم بتهمة الغباء والوقوف في طريقنا، فنحن لم نعتد عليهم، هم الذين اعتدوا علينا، من بداية ذلك الحيوان النجس (المعى)، ثم(سبع الليل)، ثم الجميع.

أحياناً يجب أن يموت بعض الناس؛ لكي يعيش البعض الآخر حياة هادئة!!... ولقد اخترت البوابة الملكية لخروجي من تلك الحياة البائسة، فأنا قوية..قوية وأبحث دومًا عن الخلود .

مشيرة نبيل الراوى ..

ليلة رأس السنة عام ٢٠٠١ م

جلس عاصم وعلى وجهه علامات الهزال الشديد، بينما كان مساعده نصر يحتفى به بعد أول ليلة يخرج فيها من المستشفى، كالمعتاد في الحديقة وأمامه مصحفه الكبير المعلق على الحامل، والكتاب الأسود الذى كان الشيخ يدون فيه ملاحظاته.

نظر إلى نصر الذى يعامله كما يُعامل الوالد أباه، وتذكر حسين الذى انتهى به المصير إلى الجنون فحزن ودمعت عيناه، شعر به نصر، فربت على يديه قائلاً.
- أنت مش عارف أنا فرحان قد أیه، إنك رجعت لنا بالسلامة يا عم (عاصم).
عاصم: عارف يا نصر، الله يكرمك يا بنى .

نصر: لى طلب عندك

عاصم: خير يا بنى

نصر: أنا خلاص جهزت لك غرفة فى البيت عندى، هاتعيش معايا، السوبر ماركت بيكسب كويس قوى والحمدلله، . ابتسم عاصم ودموعه تملأ وجهه .
بسم الله الرحمن الرحيم

”إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ“

لقد تمنى أن يُدرك ابنه الوحيد حسين من الغرق، ولكن حسين نفسه أبى،

واختار طريقه. سمع صوت صلصلة الباب وعبودة التومرجى يدفع ترولى فوقه جثة مُغطاة بملاءة زرقاء. نظر له نصر مُبتسماً .

- ده عبودة التومرجى جايب الوارد، فتح له نصر مُبتسماً تعالى يا عبودة، لكن عبودة بدا مُتجهم الوجه، على غير عادته وقال لنصر بجدية .

- عاوز أشوف عم عاصم ضرورى يا نصر، لازم هو اللى يستلمها، اندهش نصر، فهو يتعامل معه منذ عدة أشهر، وأثناء مرض عاصم ولم يطلب هذا الطلب .

- بس عمك عاصم لسة صحته مش ها تستحمل شيل وحط .

- لازم أشوفه، هز نصر كتفيه فى استسلام قائلاً.

- أهو أنت عارف مكانه، رحله فى الجنينة،

- احتضنه عبودة بقوة وهو بيكى، بينما بكى عاصم كثيراً

- كل يوم كنت بروحك وأنت نايم، أوصى عليك وأرجع . أطلق عاصم

ابتسامة باهتة فى وجه عبودة قائلاً:

عاصم: عارف يا عبودة، ابتسم عبودة قائلاً:

- لأ أنا مش هاخاف منك تانى، أنا بحبك، أنت أعظم رجل شفته . بكى

عبودة ثم قال له، سامحنى ياعم عاصم، بس الوارد النهاردة يخصك، أعطاه

الورقة التى بها الاسم... (مشيرة نبيل الراوى)

انتمت حواس عاصم، وارتعد جسده، وهدأت كل حواسه. ارتدى ملابس

العمل ودخل إلى الثلاجة، كشف وجهها وهو يتأملها فى حزن، كان يشعر بعقله

يتقبل إشارات قوية من عقلها الرهيب .

عاصم: وفى النهاية، تموتين منتحرة

مشيرة: بيدي لا بيد عمرو!!

عاصم : كان يمكن أن تعيشين أفضل من ذلك

مشيرة : الفقراء مثلى ليست لهم اختيارات

عاصم: كنتِ عنيفة منذ طفولتك

مشيرة: كنت أرفض الذل. ولا أقبله

عاصم: وهل أنت الآن في عز؟

مشيرة: لله الأمر من قبل ومن بعد. هي النهاية إذن. ولقد اخترتها بشجاعة!!.

عاصم : بالفعل هي النهاية إذن .

نادى على نصر، ليسلمها للحاجة عائشة، لتقوم بإيادها أحد الأدرج،

تابعها وهي تدسها داخل أحد الأدرج، وخرج إلى الحديقة مرة أخرى، وجد

صديقه العزيز، الكاتب (فؤاد فواز) يجلس بجوار نصر، احتضنه بشدة. فقال

له:

- نصر بلغني أنك أول يوم النهاردة، فجيت أسلم عليك. قال نصر في مرح:

- النهاردة هايجي معايا افتتاح حلوني خميس وها يقعد على القهوة كمان،

عن إذلك يا عم فؤاد، لسة عندي شغل وهاخلصه، تابعه في دهشة وهو يزرع

الحديقة ويعد إفتاراً خفيفاً، قبل أذان المغرب. ويكنس الساحة. هزرأسه في

عجب قائلاً لعاصم:

الفضل يرجع لله، ثم لك في تغير شخصية الولد ده. لاحظت أن عمله،

صار كله لله. أطرق عاصم برأسه في أسى:

عاصم: ولكني فشلت مع أقرب الناس لى .

فؤاد: ده لايعنى إنك فشلت، فالهداية من عند الله. وفي النهاية كلهم أولادك

يا عاصم وثوابك عند الله كبير، خيرك وخير الحاجة فيروز على الحى بأكمله،

بيومي وخميس الحلواني ونورا ونصر وأسرته، كلهم أولادك . صمت عاصم، ثم

قال:

- إزاي بنتك منى، عاملة أية فى أمريكا؟ ابتسم فؤاد ودموعه على وجنتيه، وهو يتطلع إلى باب الثلاثجة الكبيرة قائلاً:

- تعرف ليه أنا اخترتك صديق لى دونًا عن كل من حولى من ناس؟ ابتسم عاصم فى وهن قائلاً ..

- لا، بس يهمنى أعرف؟

فؤاد: لأنك أعظم كداب فى العالم يا عاصم !. صمت عاصم فى دهشة! فأكمل فؤاد والتأثر باديًا على وجهه.

- عشر سنوات وأنت واقف معايا فى مرضى، مازهقتش ولا مليت، شايف صورها، وبتسمع منى أخبارها، وبتبتسم مثلى، وأنت عارف وأنا عارف، أنها ماتت فى حادث قبل ما ترجع أمريكا !! والغريب أنك أنت، اللى دفتها بإيديك يا صديقى، خلاص أنا خفيت، ومش هاعيش فى الوهم تانى!! ابتسم عاصم فى وهن قائلاً:

- مادمت رأيتها حية فهى حية تُرزق فى قلبك وعقلك يا صديقى، أنت عارف أنا بحب المكان ده ليه يافؤاد؟ نفى فؤاد مُتسانلاً:

- لأنه نقطة رمادية فاصلة بين الحياة والموت، علشان اتعلمت فيه معنى الموت وقيمة الحياة، فهناك أحياء أموات وهناك أموات أحياء والفرق كبير، المهم أن تصدق وتختار وتؤمن، وعليك الاختيار لأى من الفريقين تنتهى، وعلشان كده صدقتك يا صديقى، لما تجاهلت موت بنتك، إذًا فهى حية بالفعل، نفس الشئ حدث لى مع ابنى فضيل، هولم يمت أبدًا !! أراه كُل يوم، وأشعر به، ويشعربى، يكلمنى وأكلمه، أما الآخر فلقد مات من زمن بعيد !! فهمت ما أقصده بأن هناك أحياء أموات وأمواتًا أحياء . ابتسم فؤاد قائلاً:

- هاستناك هناك !! تردد عاصم قليلاً قائلاً:

- لكن؟! نهض فؤاد دون أن ينظر له قائلاً:

- هستناك هناك ! عاد نصرمنهكاً بعدما أغلق الأبواب قائلاً:

- فين الأستاذ فؤاد؟

- مشى وقالى، هاستناك هناك. ابتسم نصر قائلاً:

- كلنا هانستناك هناك . سمع أذان المغرب، جلس عاصم ونصر على الأرض، يتناولان طعام الإفطار، طبق واحد من البطاطس المسلوقة، ودورق من الخروب، تناول عدة لقيمات، ونظر إلى الكتاب الأسود الكبير الذى معه قائلاً:
- أنا رايع مشوار.

نصر: على فين يا شيخنا؟

عاصم: عندى دعوة من صاحب الكتاب، ولازم ألبى، حمل الكتاب الكبير المكتوب عليه "مقتطفات الحكم العطائية والوصايا الشاذلية بتصرف من مولانا الشيخ العابد الملقب بالهصورالعائد من أرض السباع" أ

أنهى (عاصم) صلاة القيام بالمسجد الكبير. وجلس هادئاً يُسبح، في سكيئة، مساجد الله بيوت الله على الأرض، لكنها ليست مثل بعضها، فهناك من تقضى صلاتك وتغادره سريعاً، وهناك مساجد تتمنى أن تقضى بها بقية حياتك! هذا المكان مُختلف، ولقد جاء بُناء على دعوة الشيخ الوقور صاحب الكتاب الأسود الذى طلب منه الزيارة، وأبلغه سلام ابنه فضيل، ثم أمره برد الأمانة إلى أحبائه، لكن كيف سيتعرفون عليه، هاهو جالس ينتظر في سلام. كاد اليأس يتسلل إلى نفسه بعد رحيل العامة، وبقاء عدد قليل جداً من الجُلساء، يقرأون القرآن حول أعمدة المسجد، أو يتجاذبون الحديث بصوت خفيض، كاد أن يهيم بالانصراف، خاصة بعد قطع الإضاءة بالمسجد، لكن يدًا حانية في الظلام ربتت على كتفه وقال صاحبها:

- أهلاً وسهلاً يا كاتم السر؟! نفس الكنية التى أطلقها عليه الشيخ المهيب عندما قابله في منامه مرات، وأقرأه السلام من ابنه فضيل، انتبه على ذلك الصوت الرجولى وهو يقول له:

- شرفتنا بالزيارة، اندهش (عاصم) من ذلك اللقب الذى سمعه من الشيخ الوقور، وأرسل له سلام ابنه فضيل، شعر أن الرجل جلس أمامه مباشرةً قائلاً:
- أعتقد أنك قصدت الشخص الخطأ، فلست أنا من تقصد. رد الرجل على الفور:

- بل أنت من أقصد ! امتدت يده في الظلام وتناولت الكتاب من أمامه قائلاً:

شكرًا على توصيلك الأمانة !!

- من أنت وكيف عرفتني في الظلام، ابتسم في طمأنينة قائلاً:

- عرفتك من جلبابك، !! نظر عاصم إلى جلبابه في الظلام وسقطت دموعه،

وهو يحملك في جلبابه الفقير، الذى زانته خيوط من ذهب !! . كان يتمتم:

- لا إله إلا الله، أيه ده. هدا الرجل من روعه وهو يقول:

- لا تندesh يا كاتم السر، تمنع قليلاً في من حولك، وفي مساعدك (بائع

الذهب)، الذى يحمل معك الأسرار، اندesh عاصم قائلاً:

- لماذا سميتموه هكذا (بائع الذهب)، لسنا نحن من نسميه، نحن فقط

عرفنا.

- عرفتم ماذا؟

- عرفنا صفاتكم، فأنت تكتم أسرار عبادٍ اطلعت على أسرارهم يوم فاضت

أرواحهم إلى بارئها، فحفظت سرهم، وسترت عيوبهم بأمر الله . أما مساعدك

فلقد باع الذهب والمال واشترى بها نفسه وحياته الأبدية. دمعت عيننا عاصم

وهو يرى نصرأو (بائع الذهب) الذى يصلى بجواره في خشوع و مجموعة

أخرى من الرجال الذين انخرطوا في صلاة فردية، يرتدون نفس الملابس التى

كانت تضئ الظلمة صمت الرجل بينما همس الشيخ في إذنه،

- لا تعجب يا كاتم السر، إنه رداء الذكر!!، هورداء تُفاتلك عليه الملوك لو

علموا به، لكن الله اختص به القليل من عباده !!.همس عاصم:

- كيف ذلك، قال الرجل بصوت رخيم .

الشيخ: أولم يقل سبحانه وتعالى (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) صدق الله

العظيم

صمت عاصم، كانت فرحته عارمة في تلك الليلة، فقال:

- من أنت يا شيخ

الشيخ: لا تتعجل الأمور، ستعرف كل شيء باذن الله .

عادت الإضاءة فظهر الرجل، هو يشبه الشيخ، ولكنه أصغر كثيرًا . اقترب رجل أسمر مُضئ الوجه، حلو القسما ت وهو بأذن بأدب، المقرأة جاهزة يا شيخ إبراهيم . ابتسم الشيخ قائلاً

- ها أنت عرفت اسمى دون أن أجيبك !

انتقلوا إلى المنزل الكبير، الملاصق للمسجد، شعر أنه رأى ذلك المكان من قبل ! الحديقة العظيمة المحيطة بذلك القصر الأسطوري الذى يبدو كأسد يزار من بعيد !!، دخل إلى المندرة الواسعة، وقف مشدوهاً أمام صورة الشيخ الكبير!! هو بعينه نفس الشيخ الذى رآه فى المشرحة، وصار يزوره بشكلٍ مُنتظم، وها هو يرى صورته تتوسط المكان التى تُطل على الحديقة الغناء التى ينبعث منها رائحة الفل، وكأنه فى عالم آخر، أصوات عذبة ولغة سليمة، ظل صوتهم يتردد باستمرار، وقد أصابتهم نشوة، وانفصلوا تمامًا عن الحياة، تشعر أن هؤلاء القوم قد أتوا من عالم آخر!!، فوجوههم الصبوحه وملابسهم النظيفة، وتلك الساعات القيمة التى يرتدونها، تشعرك بأن هؤلاء القوم لا يرتادون الشوارع ولا يتزاحمون فى طابور (العيش)، ولا يعانون من زحام الشوارع، فوجوههم نظيفة وأيديهم بيضاء، وأجسادهم قوية، تشعر أنهم قد خلقوا لتلك المهمة فقط (الذكر) وتلاوة القرآن، ولا شيء آخر. جلسوا فى حلقة بعد انتهاء الذكر ولسانهم يلهث بالشكر، جاء صوت شيخهم القوى الذى جالسه، مد الشيخ يده بالكتاب فرأى ذلك الوشم لأسد قوى، نفس الوشم الذى رآه على يد الشيخ المهيب . تسمر جسده عندما دخل إلى المندرة،

- من الشيخ بحق الله، وكيف جأنى فى المنام، وما سروشم الأسد المخيف الذى يربط بينكم؟!

- إنه جدى الشيخ (سيد العابد) والملقب بالقائد (الهصور)^(١٦) أما بالنسبة لقصة الأسد والوشم، فستعرفها جيداً، عندما تزورنا الشهر القادم . فلقد أعدت الكتاب وحفظت السر، فأنت الآن منا، وسننتظرك. أنت ومساعدك (بائع الذهب).... خرج عاصم ونصر من حديقة القصر الأسطورى إلى الشارع. سارا قليلاً فى الشارع الهادئ، كانت الأضواء تنبعث من المساجد القريبة بمناسبة شهر رمضان المعظم، كما كانت المحال والكنائس تزدان بالأنوار احتفالاً «بليلة الكريسماس». اقتربت منهما سيارة فاخرة طراز مرسيدس، كان عاصم يسير بجوارها دون أن يلتفت إليها، بينما نصر كان ينظر لها بقلق وفى النهاية توقفت السيارة، وهبط منها رجل أسمريرتدى بذلة كاملة، اقترب من باب السيارة الخلفى مُبتسماً فى أدب وفتح قائلاً

- تفضل يا حاج عاصم؟! فرد عاصم ظهره ودخل إلى السيارة بطريقة أرستقراطية، بينما وقف نصر مذهولاً، لكن عاصم قال له، اركب يا شيخ نصر! ظل نصر مشدوهاً ومتوتراً، لكن عاصم ابتسم قائلاً. اركب وها تعرف كل حاجة!! ثم نظر للسائق الأسمر قائلاً

- اطلع يا عوض على ٢ حارة الغول .

(16) (راجع رواية الهصور (العائد من أرض السباع) لنفس المؤلف

(النهاية)

الناس موتى، وأهل الحُب أحياء.

ليلة رأس السنة الميلادية عام ٢٠٠١.

جلس نصر في السيارة والذهول واضح على وجهه، بينما عاصم يُكمل قصته .

- والآن، أكمل لك الباقي من قصتي .. كما وعدتك!! لقد انتهى عهدي بالحياة يوم أن أعلن الطبيب وفاتي!، لقد سرت مع الموتى وتحديثت مع ابني فضيل. وشاهدت مصيرى المحتوم بعيني، ذلك المصير الذى لا يتمناه أى أحد ... لكن الله قد شاء لى أن أحيأ مرة أخرى، فرصة جديدة وحياة جديدة، ففعلت كما فعلت أنت ... تركت كل شىء، وعشت «عم عاصم»، الشيخ البسيط الذى يعمل على خدمة الموتى!.. لكنها حياة حقيقية، حياة لا صخب فيها ولا نصب، عهدٌ أخذه على ابني الشهيد فضيل، وأنا التزمت به. فتركت تجارتي لابن أخى وشريكى (محروس) ليديرها، وبالطبع دبرنا قصة بيع كل شىء، حتى لا يؤذيه (حسين). نظرله نصر فى عتاب وأسف قائلاً.

- طيب وحسين، أنت ظلمته. هزرأسه فى أسى قائلاً:

- حسين ظلم نفسه بأوهامه، كنت عاوزه راجل زى أخوه فضيل، ولكنه رفض، أجبرته على العمل فى وكالة الأقمشة مع محروس لكنه رفض العمل (موظف) عند محروس، ومع ذلك كنت أترك له شهرية مع محروس كل شهر، كان بينفقه على المخدرات. ومشى وراء الشيطانة (مشيرة). دخلها البيت، علشان تقتل فى النهاية أمه الست الطيبة.

نصر: يمكن لو علم أن ده ماله، كان حاله انصلح. ابتسم عاصم وهو ينفى برأسه.

- عرف أن المال ماله زمان! كان بيعمل بيه أيه، بيصرفه على البغايا والمخدرات!! كان ينفق فى اليوم الواحد، ما يُنفقه شقيقه الشهيد المكافح فى عدة أشهر. ولذلك كان علينا جميعاً أن نتطهرو ونعود إلى منزلنا القديم فى ٢ حارة الغول، المنزل الأسطورى الذين يطلقون عليه تارةً أنه مسكون، وتارةً أخرى أن به كنز.

شخص نصر بعيداً ببصره، وحرك إصبعه أمام عينيه، وكأنه يحل لغزاً مُستعصياً.

- لما كنت بتسلف الرجال بدون فوائد، كنت بسأل، منين بتجيب الفلوس دى كلها، وأنت رجلٌ سريع على باب الله، دلوقتى فهمت؟! يبقى أنت الرجل الخفى فى الحارة!! أنت اللى دفعت عملية (مرسى العجلاتى)، واشترت محل «سابليه الحلوانى» باسم خميس!!، ودفعت مصاريف علاج زوجة بيومى. وكنت بتبعت الشهرية لزوجة مساعدك (جابر)، لك الله يا أخى!

- لقد وعدت ابنى فضيل، وأتمنى أن أكون قد وفيت، ابتسم نصر وهو يُقبل يديه قائلاً

- لقد وفيت وكفيت يامولانا!!! ابتسم عاصم، وهو يقول له: عاوز أعاهدك على شيئين، تُقسم بهما

نصر: عارف، ماحدث ها يعرف السر، وهابقي الرجل الخفى مجهولاً!!
أوما عاصم برأسه موافقاً، وأكمل :

- أنت ومحروس هاتكملوا ما بدآته ولا تتوقفا أبداً .

نصر:حاضر

عاصم : أما العهد الآخر فاهتم بضيوفك كويس زى ما علمتك، لا تبخل
عليهم، دول اللى ها يشهدوا علينا أمام الله.

نصر: تقصد الضيوف هناك !! حاضر.ولكن ليه، أنت بتودعنى؟!..! تجاهل
جملته عندما اقتريا من المنطقة قائلأ:

- ها ننزل هنا يا عوض .كمل أنت ..وسلم على محروس . ابتسم عوض فى
أدب، قائلأ:

- حاضر يا حاج!! نظرإلى الزفة القريبة من الحارة، حول« حلوانى سابلية»،
كانت الفرحة عارمة، بينما لاحظ عاصم لافتة السوبر ماركت الكبير المكتوب
عليه «النصر، نصر عبدالله وأولاده»، فابتسم لنصر قائلأ:

- الله يرزقك يا نصر.. خير الحمد لله، ابتسم نصر فى سعادة، واقتريا أكثر
من مكان الحفل، اللافتة القماشية الكبيرة بالحارة، افتتاح حلوانى «سابلية
الجديد»(خميس السيد). الموسيقى الصاخبة تملأ المكان، والسعادة تملأ
أهالى حارة الغول، احتفالأ بلبلة رأس السنة وشهر رمضان المعظم. وقف
خميس بداخل المحل يوزع الكنافة والقطائف مجانأ على أهل الحارة، بينما
بيومى صاحب المقهى يلتهم الكنافة بتلذذ وبجواره زوجته نجوى، تحمل طفلاً
جميلاً لم يتجاوز عامه الأول .

وقفت نورا زوجة خميس بملابس زاهية تطلق الزغاريد، وبجوارها بناتها
الثلاثة يحملن الحلوى والشربات، بينما كانت (أمينة) زوجة نصر تطلق
الزغاريد، و وأطفالها يرقصون فى مرح، والأستاذ فؤاد يضحك فى سعادة.

توقف كل شيء بمجرد ظهور (عاصم) ونصر. لم تطأ قدمه الحارة منذ أشهر طويلة، بعد كل تلك المحن!! صممت الموسيقى وهرول الجميع إليه يحتضنونه، ويقبلون وجنتيه ورأسه، قبلت نورا زوجة خميس رأسه قائلة:

- حمد لله على السلامة يا عمي، اقتربت البنات بالحلوى والشربات، تناول

القليل وهو يسأل عن أحوالهن. احتضنه خميس باكيًا ومعاتبًا

- كده تسبينا المدة الطويلة دي، والله إحنا عايشين على حسك .

- معلش يا خميس يا بني ..أنت عارف الظروف.

- ولا يهمك يا عم عاصم ... إحنا أولادك، نظر باكيًا له، ثم قبل يديه في فرح،

فسحبا عاصم قائلاً.

- يابني ليه كده، نظره في فرحة قائلاً:

- حلمي تحقق يا عم عاصم بفضل الله ثم بفضلك

عاصم: الفضل من عند الله.

خميس: فاكر الكلمة، ابتسم عاصم قائلاً:

- الاستغفار.

- خميس: من يومها وأنا ما بطلتتش، مين كان يصدق إن في واحد اشترى

المحل باسمي .. نفسي أعرفه، ابتسم عاصم قائلاً:

- أنت ابن حلال يا خميس .. وتستهال كل خير. اقترب بيومي صاحب المقهى

هاتفًا في حماس :

- ودين النبي النهاردة عيد بجد ... ضحك عاصم قائلاً:

- لسة بكاش زى ماننت يا بيومي !! ضحك الجميع بينما حمل بيومي طفله

الصغير وقربه من وجه عاصم قائلاً:

- «رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ» ، فاكرك؟! فأجابه عاصم وهو ينظر إلى الطفل أيوة فاكرك!! فقال بيومي وهو يناوله الطفل شفت ده مين .؟! حمله عاصم في فرح ، فقال له بيومي والدموع في عينيه .

- ده ابني ..فضيل، سميته على اسم الشهيد، انهمرت دموع عاصم، ومعه انخلعت قلوب الجميع نساءً ورجالاً، لكن نصر قال لهم :

- النهاردة فرح يا خوانا .. عاوزين نفرح كلنا، صمت الجميع فقال له بصوت مرتفع، اليوم عيد وبداية سنة جديدة، نحن أولاد الحياة القاسية، تركنا أهاليينا من زمن بعيد، وجينا هنا، كنت لينا أب والحاجة فيروزرحمها الله كانت لنا أم، جذبه من ذراعه قائلاً:

- تعالى علشان تشوف المفاجأة. انتقلوا جميعاً إلى المسجد القريب من الحارة، لقد تم تجديده وصار كبيراً. وقفوا جميعاً أمام باب جانبي به لافتة كبيرة كتب عليها جمعية الفيروز، (قروض صغيرة- مشغل الفتيات- دار أيتام) ..بكي عاصم فرحاً بينما قالت له نورا.الشيخ نصر وناس تانية أهل خير، اتبرعوا بأموال كثيرة لتجديد المسجد وإنشاء الجمعية!!، نظر عاصم لنصر بابتسامة لها مغزى، فضحك نصر.

- كلنا بنشتغل فيها ونساعد البنات وبنكمل اللي كانت بتعمله الحاجة فيروز.شكرهم عاصم وفرح معهم . وبدأ الجميع في دعوته ليعيش معهم، لكنه نظر في اتجاه المنزل النصف مُتهدم قائلاً في حزم .

- هانام الليلة في فرشتي، حتى لو كان المنزل خرابة، كان مُصراً على ذلك، فنظروا لبعضهم جميعاً دون كلام، واتجهوا إلى هناك
٢ حارة الغول .

المراجع والأبحاث

كتاب الروح: للإمام ابن القيم الجوزية

الحكم العطائية للإمام : ابن عطاء الله السكندري

كتاب الطب الشرعى .. مبادئ وحقائق د:حسين على شحرور

المواقع العلمية والطبية المتخصصة

<http://www.compoundchem.com>

موقع الباحثين السوريين

obeikandi.com

شكرًا» للمراجعة المتميزة والمناقشة

م: عمرو بسيوني، د. أحمد بسيوني، المستشار: عمرو الشاذلي، أ: داليا الشيخ

د: ماجريت يوسف

شكر خاص لفريق دار (ن) للنشر

أ: حسام حسين - أ: طارق وافي - د: سيد محمود الشريف

obeikandi.com

للتواصل مع الكاتب:

Email : ehab.esmat@gmail.com

Facebook: <https://www.facebook.com/ehab.esmat.142>

<https://www.facebook.com/ehabesmat>

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر



noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007